إحياء القلوب

شرح الشيخ عبد القادر الرافعي الفاروقي الطرابلسي

على حكم شيخه

سيدي محمود الكردي الخلوتي

المتوفى ١١٩٥هـ

علق عليه ووضع حواشيه

أحمد فريد المزيدي



إحياء القلوب

دار ئاراس للطباعة والنشر



السلسلة الثقافية

*

صاحب الإمتياز: شوكت شيخ يزدين

رئيس التحرير: بدران أحمد حبيب

***

العنوان: دار ئاراس للطباعة والنشر - حي خانزاد - اربيل- كُردستان العراق
ص.ب رقم: ١
www.araspublisher.com

إحياء القلوب

اسم الكتاب: إحياء القلوب - شرح مولانا الشيخ عبدالقادر الرافعي الفاروقي الطرابلسي على حكم شيخه محمود الكردي الخلوتي قدس الله روحهما ونور ضريحهما
منشورات ئاراس: ٢٥٧
الإخراج الفني: شاخوان كركوكي
التنضيد: كردستان توفيق
التصحيح: عبدالرزاق عبدالله
الغلاف: آراس اكرم
كتابة الغلاف: الخطاط محمد زاده
الإشراف على الطبع: عبدالرحمن الحاج محمود
الطبعة الأولى: ٢٠٠٤
رقم الإيداع في مكتبة المديرية العامة للثقافة والفنون في اربيل: ١٠٠ / ٢٠٠٤

بسم اللّه الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أجرى ينابيع الحِكَم والأسرار على السنة المخلصين الاخيار. تحقيقاً لما أخبر به النبي المختار. في صادقِ كلامه. من أخلصَ لله أربعين صباحاً تفجّرت ينابيع الحكم من قلبه على لسانه. والصلاة والسلام على ترجمان الحضرة الإلهية ومنبع الفيوضات الوهبية. أفضل من نطق بالحكمة وفصل الخطاب. وأُوتي جوامع الكَلِم فأعجز البلغاء والفصحاء من أُولي اللُّسنِ والالباب. وعلى آله واصحابه الآخذين كلامَهُ بمحامل الكمال، السارحين في رياض حدائق معانيه. المقتبسين من مشكاة مبانيه. وعلى خلفائه الراشدين. والعلماء العاملين. وأهل الوراثة من الاولياء العارفين. والتابعين لهم بإحسان الى يوم الدين.

(أما بعد) فيقول أسير الذنوب كثير المساويء والعيوب. أبو البركات عبدالقادر الرافعي بن عبداللطيف البيساري. غفر اللّه زلّته وبيّض صحيفته. لمّا طالعت رسالة مولانا وسيدنا القطب الرباني والخاتمي الثاني، سيدي الشيخ محمود الكُردي الكَوراني قدّس اللّه سرّه وطيّب اللّه مقرّه. وكنت كثيراً ما اود ان تشرحها بشرح شافي. ولمهماتها كافي. حتى أني عرضت غير مرة لحضرة الاستاذ بشرحها. وكشف غامض سرها فقال لي رحمه اللّه تعالى: إشرحها أنت فجعلت فسترت وجهي منه بالخجل. ولبست ثوب الوَجَل. لعلمي بأني لست من أولئك الرجال. وليس لي في هذه الحلبة مجال. ثم بعد انتقال جناب الشيخ عليه الرحمة والرضوان، الى الرفيق الأعلى تصدى خليفته الشيخ العارف بربه شيخنا وسيدنا الشيخ عبداللّه الشرقاوي، بلّغه اللّه ما هو ناوي، الى شرحه فشرحه شرحاً لطيفاً جامعاً مانعاً استخرج به من كنوز معانيه أخفاها. فما غادر كبيرة ولا صغيرة إلاّ أحصاها. إلاّ أنه لتحققه شكر اللّه صنيعهُ في مقام العرفان. وأفاض علينا من بركاته فيوض الإحسان. سلك فيه مسلك الحقائق. وغاص في بحور الدقائق. فقصر عنه فهمُ مِثلي القاصر. وكل إناء بالذي فيه قاطر. فأحببت أن أخدمه بشرح

يجنح الى سبيل السلوك. مقتصراً على ما ذكره العارفون في علم السلوك. من الحكم الواضحة والمواعظ الناصحة. والحكايات الظاهرة. والامثال الزاهرة. ليعمَّ نفعهُ مَن كان مثلي قاصراً، ولي معاصراً. وما حملني واللّه يعلم عليه أن اذكر في المحافل. أو يُسطَّر اسمي في مؤلفي الكتب والرسائل. بل عملته تذكرة لنفسي الأمّارة ولمن شاء اللّه من الإخوان. امتثالاً لقوله تعالى وتعاونوا على البِرّ والتقوى ولاتعاونوا على الاثم والعداون. وما أبرِّيءُ نفسي إن النفس لأمّارةٌ بالسوء وقد تخفى على المرء دسائسها. ولايغلبها إلاّ من سايسها.

وقد صَدّرت هذا الشرح بترجمة مؤلفها لتشملها بركاته أولاً وآخراً. وباطناً وظاهراً. فأقول واللّه المستعان. وعليه التِكلان وهو حسبي ونعم الوكيل. أما الشيخ فهو العارف باللّه بلا نزاع. شيخ وقته بلا دفاع. انعقد اجماع العارفين على ولايته وتوافقت كلمتهم على خصوصيته نشأ في المجاهدة وهو في بلده صاقص من بلاد كَوران وهو ابن خمسة عشر سنة صائم الدهر يُحيي الليل كلّه في مسجد معروف ببلدته حتى اشتهر أمره وقصده الناس بالزيارة فهجر ذلك الجامع وصار يأوي الى الخراب الذي في خارج البلدة بحيث لايشعر به أحد. وقد أخبرني رضي اللّه عنه غير مرة أنه كان لايغمّه في الليل إلاّ سماع صوت الديكة خشية طلوع النهار لما يجده في ليله من المواهب والاسرار وكان نومه في النهار وكان كثير الاجتماع بالخضر عليه السلام وقد اخبرني غير مرة انه كان بمجرد ما ينام يرى الخضر في المنام يذكر اللّه معه حتى يستيقظ. وكان لايفتر عن ذكر اللّه تعالى لا نوماً ولايقظة. واخبرني رضي اللّه تعالى عنه غير مرة قال لي: جميع ما في كتاب إحياء العلوم للغزالي عملت به قبل ان اطالعه فلما طالعته حمدت اللّه على توفيقه لي وتوليه تعليمي من غير معلم. وكان رضي اللّه عنه كثير التقشف من الدنيا كان يأكل خبز الشعير وفي بيته يصنع خاص دقيق البرّ وكثيراً ما يلومه أخوته على ذلك وكان له اخ اكبر منه كان كثير اللوم له على ما يفعله من مجاهداته وتقشفاته واخبرني رضي اللّه عنه أنه لما مات والده اجتمع اخوانه وأخواله في مكان فقال لهم في الملأ العام: اشهدوا يا أخوالي ويا فلان وفلان على اني قد وهبت جميع ما يخصني من والدي من إرب وما أملكه لإخوتي وانا عندهم بمنزلة الضيف وما آكله عندهم صدقة فبكى اخوته عند ذلك وقالوا له انت بركتنا وأنت سيدنا وكان والده كثير الخير والمال

كان عليق دوابه في كل ليلة ما ينوف عن نصف غَرارة من الشعير.

وبعد ان صار عمره ثمانية عشر سنة أو تسعة عشر سنة رأى في بلده وهو في بلاد الكُرد الشيخ محمد الحفناوي فقيل له هذا شيخك فتعلق قلبه به وقصده بالرحلة اليه حتى قدم مصر واجتمع بالعارف باللّه سيدي محمد الحفناوي واخذ عنه الطريقة الخلوتية وسلك على يديه بعد أن كان على طريقة الشيخ القصيري رضي الله عنه، ولما أخذ على العارف بالله سيدي محمد الحفناوي المذكور قال له: يا سيدي إني أسلك على يديك ولكني لا أقدِر على ترك اوراد الشيخ القصيري فأقرأ اوراد القصيري وأسلك طريقتك فاجابه الشيخ رضي اللّه عنه الى ذلك ولم يشدد عليه في ترك اوراد الشيخ القصيري لما عرفه من صدقه مع المذكور فلازمه مدة طويلة ولقّنه اسماء الطريق السبعة في قطع مقاماتها وكتب له إجازة عظيمة شهد له فيها بالكمال والترقّي في مقامات الرجال، وأذِنَ له بالإرشاد وتربية المريدين للمراد.

وكان رضي اللّه عنه إذا أراد احد ان يأخذ عليه الطريق يرسله الى الشيخ محمود ويقول لغالب جماعته: عليكم بالشيخ محمود فإني لولا اعلم من نفوسكم ما أعلم لأمرتكم كلكم بالأخذ عليه والإنقياد إليه ولما قدم شيخ شيخه القطب الرباني سيدي مصطفى الصديقي رضي اللّه عنه لازمه وأخذ عنه كثيراً من علم الحقائق. وكان السيد البكري رضي اللّه عنه كثير الحب فيه، فلما رآه لايقرأ أوراد الطريقة الخلوتية ويقتصر على أوراد الشيخ القصيري رضي اللّه عنه عاتبه في ذلك وقال له: أيليق بك أن تكون سالكاً على أيدينا وتقرأ أوراد غيرنا إمّا ان تقرأ أورادنا وإمّا ان تتركنا. فقال له: ياسيدي أنتم جعلكم اللّه رحمة للعالمين وأنا أخاف من الشيخ القصيري إن تركت أوراده وشيء لازمته من صغري لا أحب ان اتركه في كِبَري. فقال له السيد البكري رضي اللّه عنه: استخرِ اللّه وانظر ماذا ترى لعل اللّه تعالى يشرح صدرك. قال رضي اللّه عنه كما سمعته منه غير مرة: فاستخرت اللّه تعالى ونمت فرأيت النبي ﷺ والقصيري عن يمينه والشيخ البكري عن يساره وأنا تجاههم، فقال القصيري للرسول عليه الصلاة والسلام: يارسول اللّه أليست طريقتي على طريقتك أليست أورادي مقتبسة من أنوارك فلِمَ يأمر السيد مصطفى البكري الشيخ محمود الكُردي بترك أورادي؟ فقال السيد البكري: يارسول اللّه رجل سلك على ايدينا واخذ طريقتنا وتولينا تربيته أيحسن منه ان يقرأ

أوراد غيرنا ويهجر أورادنا ؟ فقال الرسول عليه الصلاة والسلام: إعملا فيه القرعة واستيقظ الشيخ من منامه، فأخبر السيد البكري بالمنام فقال له: معنى القرعة في ذلك انشراح صدرك انظر الذي ينشرح له صدرك واعمل به ثم بعد ليلة أو أكثر رأى الصديق الأكبر رضي اللّه عنه وهو يقول له: يا محمود خليك مع ولدي السيد مصطفى ورأى وِرد السحَر الذي ألفه المذكور مكتوباً بين السماء والارض بالنور المجسم كل حرف منه مثل الجبل فشرح اللّه بعد ذلك صدره ولازم أوراد السيد البكري رضي اللّه عنه واخذ من أوراد القصيري ما استطاع وترك الباقي.

واخبرني رضي اللّه عنه انه رأى حضرة الرسول عليه الصلاة والسلام في بعض المرائي وكان جمع الفقراء في ليلة مباركة، وذكر بهم الى الصباح وكان عنده شيء من الدنيا فورد على قلبه وارد زهد ففرّقه على المذكورين. وفي اثناء ذلك صرخ من بين الجماعة صارخ بقوله "اللّه" بحال قوي فلما فرغوا قال للشيخ ياسيدي سمعت هاتفاً بين السماء والارض يقول ياشيخ محمود ليلتك قُبِلَت عند اللّه تعالى فلما نام رأى رسول اللّه ﷺ في منامه قال له ياشيخ محمود ليلتك قبلت عند اللّه وهات يدك حتى اجازيك فاخذ ﷺ بيد الشيخ والسيد البكري حاضر في المجلس، فاخذ يده ووضع يده الشريفة بين ايديهما وقال: اريد ان أخاوي بينك وبين السيد البكري وأتخاوى معكما، الناجي منا ياخذ بيد اخيه، فاستيقظ رضي اللّه عنه فرحاً بذلك فلم يلبث يسيراً إلاّ ورسول السيد البكري يطلبه فتوضأ وذهب الى زيارته وكان من عادته كل يوم يزوره فلما رآه قال له: ماأبطاك اليوم عن زيارتنا ؟ فقال: ياسيدي سهرنا البارحة الليل كله فنمت فتأخرت عنكم فقال له السيد: هل من بشارة او إشارة؟ فقلت: ياسيدي البشارة عندكم. فقال: قل مارأيت فتعجبت من ذلك فقلت ياسيدي رأيت كذا وكذا. فقال: يا ملا محمود منامك حق وهذه بشرة لنا ولك فإنه ﷺ ناج قطعاً ونحن ببركته ناجون.

ومناقبه رضي اللّه عنه لاتكاد تنحصر وكان كثير المرائي لرسول اللّه ﷺ قلّما تمر ليلة إلاّ ويراه ﷺ فيها وكثيراً ما يرى ربّه في المنام وقد رآه مرة يقول له يامحمود إني أحبك وأحب من يحبك، فكان رضي اللّه عنه يقول كل من أحبني دخل الجنة وقد أُذن لي أن اتكلم بذلك.

واما مجاهداته رضي اللّه عنه فالديمة المدرار كما قالت الست عائشة رضي اللّه عنها

في جنابه ﷺ كان عمله ديمة وأيُّكم يستطيع عمل رسول اللّه ﷺ وبلغ من مجاهداته رضي اللّه عنه انه لما ضعف عن القيام في الصلاة لعدم تماسكه بنفسه صنع له خشبة قائمة يستند عليها ولم يدع صلاة النفل قائمة فضلاً عن الفرض ولم يدع قيام الليل والوظائف التي كانت مرتبة عليه في حال من الاحوال وكان لاينام من الليل إلاّ قليلا وكان ربما يمضي عليه الليل كله وهو يبكي وربما تمر عليه الليلة كلها وهو يردد آية من كتاب اللّه تعالى وكثيراً ما كان يقتصر على الخبز والزيت ويؤكل في بيته خواص الاطعمة وكان غالباً ما يأكل الارز تارة بالزيت وتارة بالسمن البقري وقلّما تراه في خلوته أو مع مريديه إلاّ وهو مشغول في وظائف أو أوراد.

وقال لي مرة: ربما اكون مع أولادي ألاعبهم وأضاحكهم وقلبي في السماء الدنيا أو في السماء الثانية أو في العرش وكثيراً ما تفيض على قلبه معرفة الحق سبحانه وتعالى فيجعل يبكي ولايشعر به جليسه. وكنت قلت يوماً للعارف باللّه خليفته سيدي الشيخ محمد بدير رضي اللّه عنه من كرامة الاستاذ رضي اللّه عنه انه ما يسمع شيئاً من العلم إلاّ وحفظه ولايزول من ذهنه ولو بعد سنين. فقال لي المذكور رضي اللّه عنه بل الذي يعد من كرامات الشيخ رضي اللّه عنه انه لايسمع شيئاً من العلم النافع إلاّ ويعمل به في نفسه ويداوم عليه فقلت له صدقت واللّه هذا حاله رضي اللّه تعالى عنه وكنت مرة أسمعته روض الرياحين لليافعي رضي اللّه عنه فلما كمّلته قال بمحضر من اصحابه هل يوجد الآن مثل هؤلاء الرجال المذكورين فقال له بعض الاخوان: الخير موجود ياسيدي في أمة الرسول، فقال الشيخ رضي اللّه عنه: قد وقع لي في الطريق أبلغُ من ذلك. واحكي لكم عما وقع لي في ليلتي هذه، كنت قاعداً أقرأ في أورادي فعطشت وكان الزمن صيفاً والوقت حار وأم الأولاد نائمة فكرهت ان اوقظها شفقة عليها، فما استتم هذا الخاطر حتى رأيت الهوى قد تجسم لي ماء وعلا ليَ الماء حتى كأني صرت في غدير من الماء ومازال الماء يعلو حتى وصل الى فمي فشربت ماء لم اشرب مثله، ثم انه هبط حتى لم يبق قطرة ماء ولم يبتل مني. وبردتُ ليلة في ايام الشتاء برداً شديداً وانا قاعد اقرأ في وردي وقد سقط عني حِرامي الذي أتغطى به - وكان رضي اللّه عنه إذا سقط عنه غطاءه لايستطيع ان يرفعه بيده لضعف يده - قال فاردت ان اوقظ أم الاولاد فأخذتني الشفقة عليها فما تم هذا الخاطر حتى رأيت كانوناً عظيماً ملآناً من

الجمر وضع بين يدي وبقي عندي حتى دفيء بدني وغلب وهج النار عليَّ، فقلت في سرّي هل هذه النار حسية أو هي خيال فقربت اصبعي من النار فلذعتني فعلمت انها كرامة من اللّه تعالى ثم رُفعت. والحاصل ان مناقبه رضي اللّه عنه لاتكاد تنحصر.

وكان سبب تأليف هذه الحكم كما اخبرني رضي اللّه عنه غير مرة قال رأيت الشيخ محي الدين العربي رضي اللّه عنه في المنام اعطاني مفتاحاً وقال لي افتح فيه الخزانة فاستيقظت وهذه الحكم تدور على لساني ويرد على قلبي أني اكتبها وكنت كلما صرفت الوارد عني عاد اليّ فعلمت انه امر إلهي فكتبتها في لمحة يسيرة من غير تكلّف كأنما هي تُملى على لساني من قلبي. انتهى كلامه رضي اللّه عنه.

وقد ألف رسالة سماها السلوك لأبناء الملوك فكتب عليها كثير من العلماء وكتبت أيضاً عليها قصيدة قلت:

بحمدك يامولاي يرتاح ناطقه ... ويبدو لأرباب اليقين بوارقه

منك اتانا الفيض والفضل والهدى ... وجادَ بمكنون اللدني وادقه

ومن منك عن اذن تكلم بالهدى ... تجلّت على عرش القلوب حقائقه

فما كل وعظ في القلوب مؤثر ... وما كل روض الفضل تزهو شقائقه

اذا حلّ سرُّ اللّه في قلب عارف ... اضاءت على الأكوان منه شوارقه

الى آخر القصيدة وهي قصيدة طويلة مدحت فيها الرسالة المذكورة منها:

سكرنا بها لما أديرت كؤوسها ... علينا سنا واستنشق العرف ناشقه

وهذه الرسالة المذكورة عظيمة النفع سارت بها الركبان وانتفع بها القاصي والولدان ولم يختلف في فضلها اثنان، ولكلامه رضي الله عنه وقع في النفوس عظيم اذا تكلم كأنما كلامه خرزات نُظمنَ في جيد حسناء لاينطق إلاّ بحكمة أو موعظة أو مسائل دينية لاتكادُ تسمعُ في مجلَسه ذكر أحدٍ بسوء. خدمته نحواً من عشر سنوات مارأيته ارتكب صغيرة، كثير الشفقة والرحمة على خلق اللّه تعالى سميّاً لأرباب الذنوب والمعاصي، كثير التواضع كثير الإحسان للفقراء والمساكين لايمسك من الدنيا شيئاً جميع ما يأتيه ينفقه في طاعة اللّه تعالى، مارأيته امسك بيده درهماً ولا ديناراً قط، اخذ بالورع في جميع اموره. ليس له همٌّ إلاّ أمور الآخرة لايهتم لشأن الدنيا أقبَلَت أو أدبَرَت، كفاه اللّه مؤنة الدنيا، عنده خادم يقبض جميع ما ياتي له من الدنيا ويصرف عليه فلايزيد ذلك

على حاجته ولاينقص شيئاً وقد منَّ اللّه تعالى عليَّ أنني خدمته في غالب مرضه سيما في مرضه الذي مات فيه وقد قبضه اللّه تعالى اليه وهو في حجري وأنا مسنده الى صدري ومات وهو عني راضٍ رضي اللّه عنه وأرضاه ورضي عنا به وجميع المسلمين. وهذا أوان الشروع في المقصود. بعون الملك المعبود.

قال رحمه اللّه تعالى: **اسلُك مسلك الخير لتسلم من كل همٍّ وضير.** إعلم ان هذه الحكمة التي ذكرها الشيخ رضي اللّه عنه في بدأ حكمه جامعة لجميع ما بعدها من الحكم، فكل ما بعدها كالتفصيل لمجملها والشرح لها ، فإن مسالك الخير عبارة عن الطرق الموصلة الى رضوان اللّه تعالى من زهد وتوكُّل ومجاهدة نفس وذكر وجوع وسهر وصمت وعزلة وأدب مع خلق اللّه تعالى ويأس مما في ايدي الناس وإخلاص وقناعة وإظهار العجز والصدق في طلب الحق سبحانه وتعالى الى آخر ما ذكره رضي اللّه تعالى عنه. فقد كادت هذه الحكمة ان تكون من جوامع الكلم بالوراثة المحمدية فإن جميع ما في هذه الرسالة مندرج في ضمن هذه الحكمة الشريفة، ومسالك الخير المأمور بسلوكها عبارة عن امتثال الأوامر واجتناب النواهي، ما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ، وينتظم ذلك افعال الجوارح واعمال القلب بل المدار على الأعمال القلبية بموجب ان اللّه لاينظر الى صوركم ولكن ينظر الى قلوبكم واشارة ما فضلكم أبو بكر بصوم ولا صلاة ولكن فضلكم بشيء وقِرَ في صدره. فسلوك الجوارح بدون القلب تعذيب بلا طائل.

ومراتب السلوك ثلاثة. الإسلام والإيمان والإحسان. فالإسلام اول مراتب السلوك لعامة المؤمنين، والايمان اول معارج القلب لخاصتهم، والاحسان اول معارج الروح لخاصة المقربين. وقد فسّر ذلك ﷺ في الحديث المشهور حيث قال في الاسلام: أن تشهد ان لا إله إلاّ اللّه وأن محمداً رسول اللّه وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت اليه سبيلا. وفي الثاني: أن تؤمن باللّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر كله خيره وشره حلوهِ ومرّهِ، وفي الثالث: أن تعبد اللّه كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك. فاستُفيد منه ان الاسلام قيام البدن بوظائف الاحكام والإيمان قيام القلب بوظائف الإستسلام والإحسان قيام الروح بمشاهدة الملك العلاّم. وأعلم أن اول مسالك الخير التي يجب على كل مؤمن سلوكها التوبة، وهي اول مقامات

الطريق عند العارفين باللّه تعالى على خلاف في ذلك. وقيل اولها اليقظة أي يقظة القلب واشباهه من غفلاته واقباله على طهارته المشار اليه بحديث: الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا أي إذا ماتوا عن حظوظهم الفانية واختياراتهم إنكشفت لهم الأستار عن عالم الأنوار فدخلوا الطريق على بصيرة. وقيل أولها الزُهد في الدنيا لايتأتى للمريد إحكام شيء من المقامات لأن إناء القلب مشغول بالأغيار فأنّى تأتيه الانوار وما جعل اللّه لرجل من قلبين في جوفه وهذا هو الذي لَمّح اليه الشيخ رضي اللّه تعالى عنه بقوله: إزهَد تُحمَد. فاشار بذلك الى ان اول مسالك الخير الزُهد في الدنيا وهو الذي يصير به المرء محموداً عند اللّه تعالى وعند الخلق كما ورد في الحديث الصحيح: إزهد في الدنيا يحبك اللّه وإزهد فيما في ايدي الناس يحبك الناس، فمعنى تُحمَد أي تصير محموداً عند الخلق وعند الخالق فإن الدنيا جيفة قذرة ما تلطّخ بها إنسان إلاّ وقذّرهُ الناس ومجّوه، وعلى قدر زهد المرء فيها على قدر محبة الناس له واقبالهم عليه وانتفاعهم به. قال سيدي ابراهيم ابن أدهم سلطان الزاهدين رضي اللّه تعالى عنه: خصلة واحدة من اتصف بها صلُحَ، ان يكون إماماً للعالمين الزُهد في الدنيا وحقيقة الزُهد أن يُرغَب عن شيء ويُعدَل الى غيره. قال في المختار الزُهد الرغبة، تقول زُهد فيه وزُهد عنه من باب سلم. آه.

قال الشيخ رضي اللّه عنه: وللزُهد ثلاث درجات: الاولى ان يتكلف الشخص في الدنيا يجاهد نفسه في تركها مع كونه يشتهيها وهذا متزهِّد ولعل حاله إبتداء الزُهد. الثانية ان يزهَدَ فيها طوعاً لاستحقارها عنده بالاضافة الى ما طمع فيه كالذي يترك درهماً لأجل درهمين وهذا لايشقُّ عليه لكنه لايخلو عن ملاحظة ما تركه وملاحظة حالة نفسه وهي زاهدة ولاشك ان هذا نقصان أيضاً. الثالثة وهي العليا ان يزهَد طوعاً ويزهد في زُهده إذ لايرى أنه ترك شيئاً لمعرفته بان الدنيا ليست شيئاً فيكون كمن ترك بعرةً وأخذ درّةً فلايرى ذلك معاوضة ولاشك أن الدنيا بالنسبة الى الآخرة أو إلى اللّه تعالى أخَسُّ من البعرةِ بالنسبة إلى الدرّة بل لا نسبة هاهنا. آه. وأعلى درجات الزُهد ان يُرغب عن كل ما سوى اللّه تعالى حتى عن الآخرة ولايكون له رغبة إلاّ في جانب اللّه تعالى فلايريد شيئاً سواه. ويدل على فضيلة الزُهد كثير من الآيات والاخبار قال اللّه تعالى (إنا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم ايُّهم احسنُ عملا)، وقال تعالى (مَن كان

يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله في الآخرة من نصيب). وقال عليه الصلاة والسلام "إذا أرد اللّه بعبد خيراً زهَّدهُ في الدنيا ورغَّبهُ في الآخرة وبصَّرهُ بعيوب نفسه". وقال ﷺ "مَن اراد ان يؤتيه اللّه علماً بغير تعلم وهدى بغير هداية فليزهَد في الدنيا" وقال ﷺ "من أصبح وهمّه الدنيا شتّت اللّه عليه أمره وفرّق عليه ضيعته وجعل فَقرَه بين عينيه ولم يأتهِ من الدنيا إلاّ ما كتب له ومن اصبح وهمُّه الآخرة جمع اللّه له همه وحفظ عليه ضيعته وجعل غِناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمه". وقال عليه الصلاة والسلام "إذا رأيتم العبد قد أوتي زُهداً وصمتاً في الدنيا فاقربوا منه فإنه يُلقّى الحكمة". ولما قال حارثة لرسول اللّه ﷺ أنا مؤمن حقاً قال له عليه الصلاة والسلام وما حقيقة إيمانك فقال عرضت نفسي على الدنيا فاستوى عندي حَجَرُها وذهبُها وكأني بالجنة والنار وكأني بعرش ربي بارزاً فقال ﷺ عرفتَ فألزم عبداً نوّر اللّه قلبه للإيمان.

ولما سئل رسول اللّه ﷺ عن معنى الشرح في قوله تعالى (فمن يرد اللّه ان يهديه يشرح صدره للإسلام) فقيل له ما هذا الشرح فقال عليه الصلاة والسلام إن النور إذا دخلَ القلب إنشرح له الصدر وانفتح، قيل يارسول اللّه هل لذلك من علامة فقال ﷺ نعم التجافي عن دار الغرور والإنابة الى دار الخلود والإستعداد للموت قبل نزوله. وقال جابر رضي اللّه عنه خطبنا رسول اللّه ﷺ فقال: من جاء بلا إله إلاّ اللّه لايخلط معها غيرها وجبت له الجنة فقال علي رضي اللّه عنه بأبي انت وامي يارسول اللّه ما معنى لايخلط بها غيرها صِفهُ لنا، فسِّرهُ لنا، فقال ﷺ حب الدنيا وطلبها واتباعها، وقوم يقولون قول الأنبياءِ ويعملون أعمال الجبابرة فمن جاء بلا إله إلاّ اللّه ليس فيها شيء من هذا وجبت له الجنة. واعلم ان الزُهد الكامل هو ان يُزهَد في الدنيا لكونها مذمومة عند اللّه تعالى وعند رسوله ﷺ مكروهةً بالطبع لأحبابه ويزهَد في زُهدهِ بأن لايرى لنفسه زهداً بل يرى المِنّة لله تعالى على توفيقه الى ترك التلطخ بقاذوراتها. فذلك هو الزُهد الحقيقي المحمودَ في الشرائع المحمول عليه أحوال السلف الصالح وفي هذا المعنى أنشد سيدي على وفا قدّسَ اللّه سره:

تجرد عن مقام الزُهد قلبي ... فانت بحق وجدك في شهودي
أأزهَدُ في سواك وليس شيء ... أراه سواك يا سرَّ الوجودِ

واما من ترك الدنيا للآخرة فليس بزاهد حقيقة بل هو تارك للقليل الفاني طمعاً في الكثير الباقي. وقال حجة الاسلام الغزالي مَثَلُ مَن يترك الدنيا للآخرة عند أهل المعرفة وارباب القلوب المعمورة بالمشاهدات والمكاشفات مَثَل مَن منعه عن باب الملك كلب فالقى عليه لقمة خبز فشغله بنفسه ودخل الباب ونال القرب عند الملك حتى نفذ امره في جميع مملكته، أفترَى أنه يرى لنفسه عند الملك يداً بلقمة خبز ألقاها الى كلبه في مقابلة ما يناله، والشيطان كلب على باب اللّه تعالى يمنع الناس من الدخول اليه مع أن الباب مفتوح والحجاب مرفوع، والدنيا كلقمة خبز فإن اكلت فلذتها في الحال على قرب بالابتلاع ثم تبقى ثقلة في المعدة ثم تنهتي الى النتن والقذر ويحتاج الى اخراج الثقل فمن تركها لينال عند الملك قرباً كيف يلتفت اليها ونسبة الدنيا ما يسلم لكل واحد منها بالنسبة الى الآخرة اقل من لقمة بالاضافة الى ملك الدنيا، إذ لا نسبة للمتناهي الى ما لا نهاية له والدنيا متناهية على القرب ولو تمادت الف سنة صافية من الكدورات فمصيرها الى الزوال.

إذا عرفت هذا فأعلى درجات الزُهد ان تزهد فيما سوى اللّه تعالى طلباً لوجه اللّه تعالى إلاّ ما لا بد منه لسد الضرورة فإن الدنيا كنهر طالوت المرموز اليه بقوله تعالى **(إن اللّه مُبتليكم بنهرٍ فمَن شَربَ منه فليس مِني ومَن لم يطعمه فإنه مِني إلاّ مَن اغترف غُرفةً بيده)** يعني ان من تضلع من نهر الدنيا ارتواء واتخذها رداء فليس من حضرة اللّه في شيء فإن أهل اللّه تعالى بأسرهم اجمعوا على ان حب الدنيا وحب اللّه تعالى لايجتمعان في قلب، وَمن لم يطعمه اي يذقه ويشرب منه اصلاً وهو القلب الخالي من الاغيار الذي لم تقذّره الأقذار فإنه مني، اي من أهل حضرتي وخواص أهل دولتي، إلاّ ما كان بقدره فإنه مستثنى لابد منه وهو المشار اليه بقوله **(إلاّ من اغترف غُرفةً بيده)**. وقد اجتمع حاتم الاصم أو شقيق البلخي بهارون الرشيد فقال له: مرحباً بالزاهد في الدنيا. فقال له حاتم: انت ازهد مني. قال: كيف ذلك؟ قال: لانك زهدت في الآخرة للدنيا، تركت الباقي للفاني وأنا تركت الدنيا الفانية للآخرة الباقية فأنت أزهد مني. قال صدقت يا أستاذ.

والحاصل ان حب الدنيا مذموم في كل الشرائع وهو رأس كل خطيئة وسبب لكل فتنة. قال ﷺ **"حب الدنيا رأس كل خطيئة"**، وانما كان حبها كذلك لأن مَن أحب الدنيا

خاطر في طلبها ونافس أهلها فلايخلو عند ذلك من آفاتها ، فيحتاج عند ذلك الى المداهنة مع ابنائها أو معاداتهم، ومن لازم ذلك الطمع فيما في أيدي الناس فإن كان متجرداً من الاسباب التفت الى ما في ايديهم من متاعها وحطامها ، فإن أعطي منها رضي وحمد وإن منع غضب وسخط وذم، فحمله ذلك على الشحناء والغيبة والنميمة والبهتان وسوء الظن بالمسلمين. كما قال تعالى **(فإن أعطوا منها رَضوا وإن لم يُعطوا منها إذا هم يسخطون)**.

وربما حمله انهماكه على جمعها والتكاثر منها الى ان يصل الى حالة لايسأل فيها عن حلال أو حرام كما هو واقع من غالب ابنائها الذين استرقتهم بشهواتهم وخدعتهم بخزعبلاتها ، أفلا تراه لايسأل عن فاسد البيع من صحيحه ولايحترز في معاملاته فيكون كما قال ﷺ **"كل لحم نبت من سُحت فالنار أولى به"**. ثم انه اذ اعتاد تناول الحرام وتهاون فيما يدخل بطنه قلَّ ان يُوفَّق للعمل الصالح، وإن وفق له ظاهراً فلا بد ان يعتريه من الآفات الباطنة ما يفسده عليه من العجب والرياء ونحوهما.

وعلى كل حال فالذي يأكل الحرام عمله مردود عليه لأن اللّه طيب لايقبل إلاّ طيباً ، فإن اعمال الجوارح لاتستطاع إلاّ بالقوة المكتسبة بالغذاء، فإذا كان الغذاء خبيثاً تكون القوة والحركات المتولدة منه خبيثة. قال عبداللّه بن عمر رضي اللّه عنهما: **"لو صلّيتم حتى تكونوا كالحنايا وصُمتم حتى تكونوا كالأوتار لم يتقبل اللّه منكم ذلك إلاّ بورع حاجز"**. وروى مرفوعاً الى رسول اللّه ﷺ: **"مَن اشترى ثوباً بعشرة دراهم وفيها درهم من حرام لم يتقبل اللّه له صلاة مادام عليه منه شيء"**. وإذا كان هذا حكم الثوب الذي عشر قيمته من حرام، فكيف يكون الحال لو كان كله كذلك. واذا كان هذا في الملبوس الذي هو على ظاهر الجسد فما الظن به في الغذاء الذي يتخلل العروق والاوصال ويسري في سائر البدن. فالحاصل ان حبها إذا سرى في قلب العبد أفسده وجعله قاعاً صفصفاً لاتكاد تجد فيه من الخير مثقال ذرة. وكما ان حبها رأس كل خطيئة كذلك بغضها رأس كل طاعة وحسنة، ويكفيك زُهداً في الدنيا ان اللّه تعالى سماها في عدة مواضع من كتابة (مَتاع الغرور)؛ وهو خضرة النبات كما قاله الحسن البصري رحمه اللّه تعالى، أو هي الجيفة المنتنة وقد حصرها اللّه تعالى في اللّهو واللعب اللذين لايلتفت لهما عاقل ولايعرج عليهما إلاّ كل غبي جاهل، فقال اللّه تعالى **(انما الحياة الدنيا لعب**

ولهو) الى غير ذلك.

واعلم ان الزُهد في الدنيا نعيم عاجل لأهله لايستطيعه إلاّ مَن شرح اللّه صدره باشراق انوار المعرفة قال اللّه تعالى لموسى عليه السلام في بعض المناجاة: اما زُهدُك في الدنيا فقد استعجلت الراحة فإن الراحة في تركها. قال صلى الله عليه وآله: "**خذ من الدنيا ما شئت وخذ بقدره همّاً**". فكلٌّ مَن اخذ منها فوق ما يكفيه اخذ حتفه وهو لايشعر. وادنى درجات الزُهد ان لايقع بسبب الدنيا في ركوب معصية أو ترك طاعة، واعلى درجاته ان لايأخذ من الدنيا شيئاً حتى يعلم ان اخذه احب الى اللّه من تركه. وبين هاتين الدرجتين درجات كثيرة.

وللزهد الصادق علامات منها: ان لايفرح بالموجود ولايحزن على المفقود من الدنيا، ومنها ان لايشغله طلب الدنيا والتمتع بها عما هو خير له عند ربه. ومن جملة حب الدنيا حب الجاه فيجب على العاقل العمل على اخراج حب الجاه من قلبه حتى يستوي عنده المدح والذم واقبال الخلق عليه وادبارهم عنه، فإن حب الجاه اضرُّ على صاحبه من حب المال وكلاهما دالأن على الرغبة في الدنيا. واصل حب الجاه حب التعظيم، والعظمة من صفات اللّه تعالى ففي ذلك شائبة منازعة للربوبية. واما حب التمتع بالشهوات وذلك من صفات البهائم وقد قال عليه الصلاة والسلام عن اللّه تعالى: (**العظمة إزاري والكبرياء ردائي فمَن نازعني واحداً منها قذفته في نار جهنم**). وقال عليه الصلاة والسلام: "**ما ذئبان جائعان أُرسلا في زريبة غنم بأفسد لها من حب الشرف والمال في دين الرجال المسلمين**".

قال الامام الغزالي في مختصر الإحياء: اعلم ان الدنيا عدوة لله تعالى عدوة لأوليائه عدوة لأعدائه، فعداوتها لله تعالى انها قطعت الطريق على اوليائه ولذلك لم ينظر اليها تعالى منذ خلقها، وأما عداوتها لأولياء اللّه تعالى لانها تزينت لهم بزينتها ونضارتها وعمتهم حتى تجرعوا مرارة الصبر في مقاطعتها، واما عداوتها لأعداء اللّه تعالى فلاستدراجها لهم بمكرها ومكيدتها، فقد اقتنصتهم بشبكتها حتى وثقوا بها وعوّلوا عليها فخذلتهم احوج ما كانوا اليها. آه.

وقال بعض العارفين: الدنيا اسحر من هاروت وماروت لانهما كان يفرقان بين المرء وزوجه، واما الدنيا فتفرق بين العبد وربه والمرء وقلبه. وقد رأى بعض أهل الكشف

الدنيا في صورة عجوز شوهاء، فقال لها: كم رجل تزوجت؟ قالت: كثيراً لا عدد لهم. قال طلقك منهم احد؟ قالت: لا، كلهم قتلت. وقد روى انه ﷺ قال لما مر بشاة ميتة: "أترون هذه الشاة هينة على اصحابها؟ قالوا: نعم. قال: والذي نفسي بيده الدنيا اهون على اللّه تعالى من هذه على صاحبها، ولو كانت الدنيا تعدل عند اللّه تعالى جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء". وقال ﷺ "الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر". وقال ﷺ "الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلاّ ما كان لله منها". وقال أبو موسى الاشعري رضي اللّه عنه: قال رسول اللّه ﷺ: "مَن احب دنياه اضرّ بآخرته ومن احب آخرته اضرّ بدنياه فآثروا ما يبقى على ما يفنى". وقال زيد بن أرقم: كنا مع الصديق رضي اللّه عنه فدعا بشراب فأتي بماء وعسل، فلما ادنى من فيه بكى حتى أبكى اصحابه، فسكتوا وماسكت، ثم عاد وبكى حتى ظنوا انهم لم يقدروا على تسكيته قال ثم مسح عينيه فقالوا: ياخليفة رسول اللّه ما ابكاك؟ قال: كنت مع رسول اللّه عليه وسلم فرأيته يدفع عن نفسه شيئاً ولم ار معه احداً فقلت يارسول اللّه ما الذي تدفع عن نفسك قال هذه الدنيا مَثُلَت لي فقلت اليكِ عني ثم رجعت فقالت انك إنْ أَفلتَّ مني لم يفلت مني من بعدك.

وقال عليه الصلاة والسلام: يا عجباً كل العجب لمن يصدق بدار الخلود وهو يسعى لدار الغرور. وقال عليه الصلاة والسلام: ان الدنيا حلوة خضرة وان اللّه تعالى مستخلفكم فيها فناظرٌ كيف تعملون، إن بني اسرائيل لما بُسِطت لهم الدنيا ومُهِّدت تباهوا في الحلية والنساء والطيب والثياب. وقال عيسى عليه الصلاة والسلام: لاتتخذوا الدنيا ربّاً فتتخذكم عبيداً، أكثروا كنز اللّه عند مَن لايضّيعه. وان صاحب الدنيا يخاف عليه الآفة وصاحب كنز اللّه لايخاف عليه الآفة. وقال ﷺ في بعض خطبه: "المؤمن بين مخافتين أجلٌ قد مضى لايدري ما اللّه صانع فيه وبين أجلٍ قد بقي لايدري ما اللّه قاض فيه، فليتزود العبد من نفسه لنفسه ومن دنياه لآخرته ومن حياته لموته ومن شبابه لهرمه، فإن الدنيا خلقت لكم وأنتم خلقتم للآخرة، والذي نفسي بيده ما بعد الموت مستعتب ولا بعد الدنيا دار إلاّ الجنة أو النار". وقال ﷺ انه حق على اللّه ان لايرفع شيئاً من الدنيا إلاّ وضعه. وقال عيسى عليه الصلاة والسلام: مَن ذا الذي يبني على موج البحر داراً ويلكم الدنيا لاتتخذوها قراراً. وقال أيضاً: يامعشر

الحواريين ارضوا بدنيء الدنيا مع سلامة الدين كما رضي أهل الدنيا بدنيء الدين مع سلامة الدنيا. وقال ابن عباس رضي اللّه عنه: ان اللّه تعالى جعل الدنيا ثلاثة أجزاء: جزء للمؤمن، وجزء للمنافق، وجزء للكافر. فالمؤمن يتزود والمنافق يتزين والكافر يتمتع. ولقد أحسن من قال:

ياخاطب الدنيا الى نفسه ... تنحَّ عن خطبتها تسلم
إن الذي تخطبْ غدّارة ... قريبة العرس من المأثم

وقيل إذا امتحن الدنيا لبيب تكشّفت له عن عدو فى ثياب صديق.

وقال غيره:

أرى الزهاد في روح وراحة ... قلوبهم من الدنيا مُزاحة
اذا أبصرتهم أبصرت قوماً ... ملوك الارض شيمتهم سماحة

وقال غيره:

هي الدار دار القذا والأذى ... ودار الغناء ودار الغير
فلو نلتها بحذافيرها ... لِمتَّ ولم تقضِ منها الوَطر

وقال غيره:

إن لله عباداً فطنا ... طلّقوا الدنيا وخافوا الفتنا
حسبوها لجّة فاتخذوا ... صالح الأعمال فيها سُفنا

وغيره:

أيا من يؤمِّل دار الفَنا ... لدار البقا عليه الضرر
اذا أنت شبتَ وبان الشبا ... ب فلا خير في العيش بعد الكِبَر

وغيره:

هي الدنيا تقول بملء فيها ... حذار حذار من بطشي وفتكي
فلا يعجبكمو مني إبتسام ... فوجهي مُضحك والفعل مُبكي

وقال غيره:

هي الدنيا تجهز بانطلاقي ... مشمِّرة على قدم وساق
فلا الدنيا بباقية لحيٍّ ... ولا حيٌّ على الدنيا بباق

وقال بعض الحكماء: الدنيا من حيث التغرير بخيالاتها ثم الافلاس منها بعد إفلاتها تشبه خيالات المنام وأضغاث أحلام. وقال عليه الصلاة والسلام: الدنيا حلم وأهلها عليها مجازون ومعاقبون وهالكون. وكتب علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه الى سلمان الفارسي رضي اللّه عنه بمثالها فقال: مَثَلُ الدنيا مثل الحية يلين مسها ويقتل سُمُّها فأعرض عما يعجبك بها لقلّةِ ما يصحبك منها، وضع عنك همومها لما أيقنت من فراقها، وكن آسر ما تكوّن فيها واَحذر ما تكوّن لها، فإن صاحبها كلما اطمأن فيها الى سرور أشخصه مكروه والسلام. وقال ﷺ: **"انما مَثَلُ صاحب الدنيا كمَثَلِ الماشي في الماء هل يستطيع الماشي في الماء ان لاتبتلّ قدماه"**. وقال ﷺ: **"ما الدنيا في الآخرة إلاّ كمثلِ ما يجعل أحدكم أصبعه في اليمِّ فلينظر بما ترجع اليه"**.

واعلم ان الدنيا والآخرة عبارتان عن حالتين، فالقريب الداني دنياك وهي كلما قبل الموت، فالذي يصحبك من الدنيا بعد الموت من العلم والعمل فذلك معدود من الآخرة، وان كان من حيث الصورة في هذا العالم كما قال ﷺ: **"حُبِّبَ اليّ من دنياكم ثلاث الطيب والنساء وجُعلت قرة عيني في الصلاة"** فعدد الصلاة من الدنيا وملاذّها لدخول حركاتها في الحسّ والمشاهدة الظاهرة. ويقابل هذا القسم قسم آخر وهو كلما فيه لذة عاجلة لا ثمرة لها بعد الموت كالمعاصي والمباحات الزائدة على الحاجات. وهناك قسم آخر متوسط بينهما وهو كل حظٍّ في العاجل يعين على اعمال الآخرة كقدر الحاجة من المطعم والمنكح والملبس فليس ذلك من الدنيا كالقسم الاول. ويجمع هذه الاقسام قول بعضهم: دنياك ما شغلك عن اللّه تعالى وقد جعل اللّه تعالى مجامع الهوى في خمسة أمور في قوله تعالى **(إنما الحياةُ الدنيا لعب ولهو وزينةٌ وتفاخرٌ بينكم وتكاثرٌ في الاموال والأولاد)** والاعيان التي تحصل منها هذه الاشياء سبعة يجمعها قوله تعالى **(زُيِّنَ للناسَ حبُّ الشهواتِ من النساءِ والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب الفضة والخيل المسوَّمة والانعام والحرث ذلك مَتَاعُ الحياةِ الدنيا واللّه عندهُ حسنُ المآب)**.

وأعلم ان مثال العبد في نسيانه وما به مَثَلُ الحاجِّ الذي يقف على منازل الطريق ولايزال يعلف الدابة ويتعاهدها وينظفها ويكسوها ألوان الثياب ويحمل عليها ألوان الحشيش ويبرد لها الماء بالثلج حتى تفوته القافلة وهو غافل عن الحجِّ ومرور القافلة وبقائه في البدو وحده فريسة السباع. والعاقل لايهمه أمر الحمل إلاّ بقدر الحاجة فكذلك

البصير في الآخرة لايهمة أمر نفسه ودنياه إلاّ بقدر ما يتقوّى به على سلوك طريق الآخرة. وطائفةٌ غلبتهم الشهوة والغفلة فيكتسبون حتى يأكلون ويلبسون، وطائفة عرفوا لما خلقوا فاستعدوا له وعَدّوا ما سواه من الحاجات والضرورات فلم يقدموا عليها إلاّ لحاجة والضرورة. فهكذا ينبغي للعاقل ان لايغفلَ عن ربه ويقنع من الدنيا بأدنى بلغة وكفاف. ولما كان الزُهد في الدنيا مستلزماً للتوكل على اللّه تعالى لأن الإنسان انما يترك الحاضر ثقة باللّه تعالى انه يقوم بكفايته ويتولى عنايته أعقب الشيخ رضي اللّه عنه الزُهد بالتوكل فقال:

(توكل تُقبَل) اعلم ان التوكل عبارة عن اعتماد القلب على اللّه تعالى وسكونه عن الاضطراب عند فقد الاسباب الموضوعة في العالم التي من شأن النفوس أن تركن اليها فإن اضطرب فليس بمتوكل، وأصل التوكل على اللّه تعالى معرفة القلب بأن الامور كلها بيد اللّه تعالى ما ينفع منها وما يضرّ وما يسوء منها وما يسر وإن الخلق لو اجتمعوا كلهم على ان ينفعوه بشيء لم ينفعوه إلاّ بشيء كتبه اللّه له أو على ان يضرّوه بشيء لم يضروه إلاّ بشيء قد كتبه اللّه عليه معنى قوله (تُقبَل) اي تصير مقبولاً عند اللّه تعالى لأن اللّه تعالى يحبّ المتوكلين ومن احبه اللّه تعالى فهو لاشك انه مقبول عنده ومقبول عند الناس لأن مَن لازم التوكل ترك الطمع فيما في ايدي الناس ثقةً باللّه تعالى وعدم الانهماك على الدنيا ومن كان بهذه المثابة كان مقبولاً عند الخاص والعام ملحوظاً بعين الكمال ألبسه اللّه ثوب القبول والمهابة واعزّه اللّه تعالى بعزِّ القناعة وقد امر اللّه تعالى بالتوكل في كثير من الآيات قال اللّه تعالى وعلى اللّه فليتوكل المؤمنون وقال تعالى (وعلى اللّه فتوكلوا ان كنتم مؤمنين) وقال تعالى (ومَن يتوكل على اللّه فهو حسبه) وقال تعالى (ان اللّه يحب المتوكلين) و(توكل على الحي الذي لايموت). وقال سول اللّه ﷺ فيما رواه ابن مسعود: "**أُريتُ الامم في الموسم فرأيت أمتي قد ملئوا السهل والجبل فاعجبني كثرتهم وهيأتهم فقيل أرضيت قلت نعم، قال: ومع هؤلاء سبعون الفاً يدخلون الجنة بغير حساب لايكتوون ولايتطيرون ولايسترقون وعلى ربهم يتوكلون، فقال عكاشة: يا رسول اللّه أدع اللّه تعالى ان يجعلني منهم، فقال عليه الصلاة والسلام: اللّهم اجعله منهم فقام رجل آخر فقال: أدع اللّه ان يجعلني منهم فقال سبقك بها عكاشة**" والاشارة انه لما تأخر عن ارادة الخير فاته ذلك

الفوز وحُرِمَ حظه لأن الآفات في التأخير خصوصاً في الطاعة وبعدما يفوت الفوت للوقت لايدركه إلاّ ندامة. قال اللّه تعالى (والسابقون السابقون) وقال تعالى (سابقوا الى مغفرة من ربكم) وقال ﷺ: **"لو أنكم تتوكلون على اللّه حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً"**.

ولما قرأ الخَوّاص رحمه اللّه تعالى (**وتوكل على الحي الذي لايموت وسبح بحمده**... الآية) قال: ماينبغي لأحد بعد هذه الآية ان يلتجيء الى احد غير اللّه تعالى. وعن ابي هُريرة رضي اللّه عنه عن النبي ﷺ قال: **"يدخل الجنة اقوام افئدتهم مثل افئدة الطير"** رواه مسلم. قيل معناه يتوكلون وقيل قلوبهم رقيقة. أوحى اللّه تعالى الى داود عليه السلام ياداود مَن دعاني أجبته ومن استغاثني اغثتُه ومَن استنصرني نصرتُه ومن توكّل عليَّ كفيتُه فأنا كافي المتوكلين وناصر المستنصرين ومغيث المستغيثين ومجيب الداعين. وروي ان هذه الكلمات وجدها كعب الاحبار في التوراة فكتبها يا ابن آدم لاتخافنَّ من ذي سلطان مادام سلطاني باقياً وسلطاني لاينفد ابداً، يا ابن آدم لاتأنس لغيري وأنا لك فإن طلبتني وجدتني وان انست لغيري فُتُّكَ وفاتك الخير كلّه، يا ابن آدم خلقتك لعبادتي فلاتلعب وقسمت رزقك فلاتتعب وفي اكثر منه فلاتطمع وفي اقل منه فلاتجزع، فإن انت رضيت بما قسمت لك ارحت قلبك وبدنك وكنت عندي محموداً، وان لم ترضَ بما قسمته لك فَوَعزّتي وجلالى لأسلطنَّ عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحش في البر ولاينالك منها إلاّ ما قسمته لك وكنت عندي مذموماً، يا ابن آدم خلقت السموات السبع والارضين السبع ولم اعيَ بخلقهن أيُعيِيني رغيف اسوقه لك من غير تعب، يا ابن آدم أنا لك محب فبحقي عليك كن لي محبّاً، يا ابن آدم لاتطالبني برزق غدٍ كما لا أطالبك بعمل غد فإني لم أنسَ مَن عصاني فكيف مَن أطاعني وأنا على كل شيء قدير وبكل شيء محيط.

واعلم ان مقام التوكل مقام عزيز لايناله إلاّ من كَنَسَت نفوسهم المزابل وفَنوا في مُراد اللّه تعالى عن مُراداتهم واختياراتهم وهو مقام ابراهيم المشار اليه بقوله تعالى (**مقام ابراهيم وَمن دخله كان آمناً**) وهو حاله الذي كان عليه حين وضع في المنجنيق وأُلقيَ في نار النمرود، فتعرض له عند ذلك جبريل عليه السلام فقال له: هل لك من حاجة؟ فقال في ذلك المقام وتلك الضرورة: أمّا إليك فلا وأما اليه فحسبي من سؤالي علمه بحالي. فقد

فوّض كل التفويض ودخل في لجة التوكل والانقطاع اليه تعالى بالكلية. فمن كان هذا مقامه كان آمناً من كل شيء تنفعل له الاكوان وتصير نار نمرود والنفس والشيطان عليه برداً وسلاماً.

قال العارف باللّه القطب الغوث الجامع سيدي الشيخ عبد القادر الگيلاني رضي اللّه تعالى عنه في فتوح الغيب: لاتختر جلب النعماء ولا دفع البلواء فالنعمة واصلة إليك ان كانت قسمك استجلبتها أم كرهتها، والبلوة حالّةٌ بك إن كانت مقضية عليك سواء كرهتها أو دفعتها عنك بالدعاء أو صبرت وتجلّدت لرضا المولى، بل سلِّم للكل فيفعل الفعل فيك، فإن كانت النعماء فاشتغل بالشكر وان كانت البلواء فاشتغل بالصبر والتصبر والموافقة والرضا والتنعم بها أو العدم والغنى فيها على قدر ما تعطى من الحالات، وتنقل اليها وتنزل في المنازل، وتسير في طريق المولى الذي أمرت بطاعته والمولى يقطع بك الفيافي والمفاوز والبراري الى المقامات لتصل الى الرفيق الاعلى، فتقام حينئذ في مقام مَن تقدم قبلك ومضى من الصديقين والشهداء - أعنى به قرب العلي الاعلى - لتعاين مقام مَن سبقك الى الملك ومنه دنا ووجد عنده كل طريق وسرور وكرامة وأمناً ونعماً. دع البلية تزورك خلّ عن سبيلها ولاتقف في وجهها بدعائك، ولاتجزع من مجيئها وقربها فليس نارها اعظم من نار جهنم ولظى.

وقد ثبت في الخبر المروي عن خير البرية خير من أقلته الارض وأظلّته السماء محمد المصطفى ﷺ: "إن جهنم تقول للمؤمن جز يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبي". فهل كان نور المؤمن الذي اطفأ لهب نار جهنم ولظى إلاّ النور الذي صحبَهُ فى الدنيا الذي تميّز به بين مَن أطاع وعصى، فليطف هذا النورُ لهبَ البلوى وليخمد بردُ صبرك وموافقتك للمولى وهجَ ما حلَّ بك من ذلك ودنا منك، فالبلية لم تأتك لتهلكك ولكنها تأتيك لتختبرك وتتحقق صحة ايمانك وتؤيد قاعدة يقينك، ويبشرك باطنها من مولاك بمباهاته بك. قال تعالى (ولنبلونَّكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم). فإذا ثبتّ مع الحق عزَّ وجلّ بايمانك وموافقته في فعله بيقينك. فاعلم أن كل ذلك بتوفيق منه وفضل ومنّة فكن حينئذ أبداً صابراً موافقاً مسلماً الى آخر كلامه رضي اللّه عنه. وهو كلام حسن في غاية الافادة.

وقال سيدي أبو الحسن الشاذلي رضي اللّه عنه ونفعنا ببركته والمسلمين في رسالته

واسمها القصد: مَن أراد أن لايكون للشيطان عليه سبيل فليصحح الايمان والتوكل والعبودية لله تعالى على بساط الفقر واللجأ والاستعاذة باللّه، قال تعالى (ان الشيطان ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون) وقال تعالى (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان) وقال تعالى (وإمّا ينزغنّكَ من الشيطان نزغ فاستعذ باللّه انه هو السميع العليم) وتصحيح الايمان بالشكر على النعماء والصبر على البلاء والرضا بالقضاء، وصحة التوكل بهجران النفس ونسيان الخلق والتعليق بالملك الحق وملازمة الذكر والدعاء إذا عارضك عارض يصدُّك عن اللّه تعالى فاثبت قال اللّه تعالى (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا اللّه كثيراً لعلكم تفلحون) وتصحيح العبودية بملازمة الفقر والعجز والضعف والذل لله تعالى واضادها أوصاف الربوبية. آه.

وقال الامام حجة الاسلام الغزالي رضي اللّه عنه في منهاج العابدين في العقبة الرابعة عقبة العوارض: فعليك بالتوكل على اللّه سبحانه في موضع الرزق والحاجة بكل حال وذلك لأمرين أحدهما؛ لتفريغ العياذة ويتمشى لك من الخير حقه، فإن لم تكن متوكلاً فلابد من الاشتغال عن عبادة اللّه تعالى لسبب الحاجة والرزق والمصلحة، إما ظاهراً وإما باطنا، وكسب بالبدن كعامة الراغبين، وإما بذكر وإرادة ووسوسة بالقلب كالمجتهدين المتعلقين بها. والعبادة تحتاج الى فراغ القلب والبدن ليحصل حقهما والفراغ لايكون إلاّ للمتوكلين، بل أقول كل من هو ضعيف القلب لايكاد يطمئن قلبه إلاّ بشيء معلوم لايكاد يتمُّ له أمر خطير من دنيا وآخرة. وكثيراً ما سمعت من شيخي أبي محمد رحمه اللّه تعالى يقول: إنما الامور لاتتمشى في العالم إلاّ لرجلين متوكل أو متهور. قُلتُ وهذا كلام جامع في معناه، فإن المتهور يقصد الامور على قوة عادة وجراءة قلب لايلتفت الى صارف يصرفه أو خاطر يضعفه فتجرى له الامور، والمتوكل يقصد الامور على قوة بصيرة وكمال يقين بوعد اللّه سبحانه وتمام بضمانه لايلتفت الى إنسان يخوفه أو شيطان يوسوسه فيفوز بمقاصده ويظفر بمطالبه، والمعلَّق الضعيف فهو أبداً بين نكولٍ وتردد وقصورٍ وتحيُّر كالحمار في معلفه والدجاج في تعبه يرمق ما تعود من صاحبه لايكاد ينفك من ذلك تقاعدت نفسه معالي الامور وانقطعت همّته، فلا يكاد يقصد أمراً شريفاً وإن قصده فلا يكاد يظفر. ولايتُمُّ له ذلك أما ترى أصحاب الهِمم من أبناء الدنيا لم ينالوا مرتبة كبيرة ومنزلة خطيرة إلاّ باقتطاع قلوبهم عن

أنفسهم وأموالهم وأهليهم، أما الملوك فيباشرون الحروب ويكافحون الاعداء إما ملكاً وإما هالكاً حتى يحصل لهم الملك وعقد الولاية.

وقيل ان معاوية لما نظر الى العسكرين يوم صفين قال: مَن أراد خطيراً خاطر بعظيمته. وأما التجار فيركبون المهالك براً وبحراً ويطرحون باموالهم في المقاطع شرقاً وغرباً ويوطنون أنفسهم على أحد الامرين إما فوت الارواح وإما حصول الارباح حتى يحصل لهم بذلك ربح عظيم ومال جسيم وعلف نفيس، وأما السوقي الذي ضَعُف قلبه ورقّ عزمه لايكاد يقلع القلب عن علاقته من نفسه وماله فهو من بيته الى دكانه طول عمره لايكاد يصل الى مرتبة شريفة كالملوك ولا الى ربح عظيم كالتجار المخاطرين فإن نال في سوقه ربحاً على بضاعته درهماً فذلك له كثير وذلك لتعلق قلبه بشيء معلوم. فهذا في الدنيا وابنائها وأما أبناء الآخرة فرأس مالهم هذه الخصلة التي هي التوكل وقطع القلب عن العلائق لما أحكموها وحصلوها حقاً تفرغوا لعبادة اللّه تعالى تمكنوا من التفرغ عن الخلق والسياحة في الارض واقتحام الفيافى واستيطان الجبال والشعاب فصاروا أقوياء العباد ورجال الدين وأحرار الناس وملوك الارض بالحقيقة يسيرون حيث يشاؤن وينزلون حيث يشاؤن ويقرؤون من الامور العظام علماً وعبادةً ما يشاؤن لا عائق لهم ولا حاجز دونهم وكلّ الاماكن لهم واحد وكل الازمان عندهم واحد، واليه الاشارة بقوله ﷺ **من سرَّهُ ان يكون أقوى الناس فليتقِّ اللّه ومن سرَّهُ ان يكون أغنى الناس فليكن بما فى يد اللّه أوثق منه بما فى يده**، وعن سليمان الخوّاص لو أن رجلاً توكل على اللّه سبحانه بصدق النية لإحتاج اليه الامراء فمن دونهم وكيف يحتاج ومولاه الغنيُّ الحميد، وعن ابراهيم الخوّاص قال: لقيت غلاماً في التيه كأنه سبيكة فضة قلت الى أين يا غلام، قال الى مكة، قلت بلا زاد ولا راحلة، فقال يا ضعيف اليقين الذي يقدر على حفظ السموات والارض يقدر أن يوصلني الى مكة بلا زاد ولا راحلة، فلما دخلت مكة فإذا هو في الطواف يقول:

يانفس سيحي أبدا ... ولا تحبي أحدا
إلاّ الجليل الصمدا ... يا نفس موتي كمدا

فلما رآني قال ياشيخ أنت بعد على ذلك الضعف. وقال أبو مطيع لحاتم الأصم بلغني انك تقطع المفاوز بالتوكل من غير زاد. قال زادي أربعة أشياء. قال: ماهي؟ قال: أرى

الدنيا والآخرة مملكة اللّه، وأرى الخلق كلهم عبيد اللّه وعياله، وأرى الأرزاق والاسباب كلها بيد اللّه، وأرى قضاء اللّه تعالى نافذ في جميع أرض اللّه.

الامر الثاني الذي اقتضى التوكل على اللّه تعالى في هذا الشأن هو ما في تركه من الخطر العظيم والامر الكبير قلت: أليس اللّه سبحانه قرنَ الرزق بالخلق؟ فقال: خلقكم ثم رزقكم فدلّ على ان الرزق من اللّه لا غير كالخلق ثم لم يكتفِ بالدلالة حتى وعد، فقال ان اللّه هو الرزّاق ثم لم يكتفِ بالوعد حتى ضمن، فقال وما من دابة في الارض إلاّ على اللّه رزقها ثم لم يكتفِ بالضمان حتى أقسم، فقال فوربِّ السماء والارض انه لحقٌّ مِثل ما أنكم تنطقون، ثم لم يكتفِ بذلك حتى أمر بالتوكل وأبلغ وانذر، فقال وتوكل على الحيّ الذي لايموت، وقال سبحانه (وعلى اللّه فتوكلوا إن كنتم مؤمنين).

فمَن لم يعتبر قوله لم يكتفِ بوعده ولم يطمئن بضمانه ولم يقنع بقسمه ثم لم يبالِ بأمره ووعده ووعيده فإنظر ماذا يكون حاله، وانتبه أي محنة تجيء من هذا فهذه واللّه مصيبة شديدة ونحن منها في غفلة عظيمة. ولقد قال الصادق الامين ﷺ لإبن عمر: **كيف أنت إذا بقيت بين قوم يخبؤون رزق سنتهم لضعف اليقين؟** وعن الحسن انه قال: **لعنَ اللّه أقواماً أقسم لهم ربهم فلم يصدقوه.** وقالت الملائكة عند نزول هذه الآية: فوربِّ السماء والارض هلكت بنوا آدم أغضبوا الرب حتى أقسم لهم على أرزاقهم. وعن أويس القرني رضي اللّه تعالى عنه انه قال: لو عبدت اللّه عبادة أهل السموات والارض لما تقبل منك حتى تصدقه، قيل: وكيف نصدقه؟ قال: تكون آمناً بما تكفّل اللّه من أمر رزقك وترى جسدك فارغاً لعبادته. ولقد قال له هرم بن حيان: أين تأمرني ان اقيم: فأومأ بيده الى الشام. قال: كيف المعيشة فيها؟ قال: أفٍّ لهذه القلوب لقد خالطها الشك فما ينفعها الموعظة.

وبلغنا ان نبّاشاً تاب على يد أبي يزيد البسطامي رحمه اللّه تعالى فسأله أبو يزيد عن حاله فقال: نبشت عن ألف قبر فلم أرَ وجوههم الى القبلة إلاّ رجلين. وقال أبو يزيد مساكين أولئك تهمة الرزق حُوِّلت وجوههم عن القبلة. فإن قيل هل يلزم العبد طلب الرزق بحال فاعلم ان الرزق المضمون الذي هو الغذاء والقوام فلايمكن طلبه اذ هو شيء من فعل اللّه تعالى بالعبد كالحياة والموت لايقدر العبد على تحصيله ولا دفعه. وأما المقسوم من الاسباب فلايلزم العبد طلبه اذ لا حاجة للعبد الى ذلك، وانما حاجته الى

المضمون وهو من اللّه تعالى وفي ضمان اللّه تعالى.

واما قوله عزَّ وجلّ (**وابتغوا من فضل اللّه**) المراد به العلم والثواب. وقيل بل هو رخصة اذ هو أمر وارد بعد الحظر فيكون بمعنى الإباحة لا بمعنى الايجاب والإلزام. فإن قلت هل يزيد الرزق بالطلب وهل ينقص بترك الطلب، قلنا انه مكتوب في اللوح المحفوظ مقدّر موقت ولا تبديل لحكم اللّه ولا تغيير لقسمه وكتابه هذا الصحيح عند علمائنا رضي اللّه عنهم، خلافاً لما ذهب اليه اصحاب حاتم وشقيق قالوا ان الرزق لايزيد ولاينقص بفعل العبد ولكن المال يزيد وينقص. وهذا فاسد لأن الدليل في الموضعين واحد وهو الكتابة والقسمة واليه الاشارة بقوله تعالى (**لكيلا تأسوا على مافاتكم ولاتفرحوا بما أتاكم**) ولَو كان الطلب يُزيد والتَرك يُنقص لكان للأسى والفرح موضع إذ هو قَصَّر وتوانى حتى فاته وجَدَّ وشَمَّر حتى حَصّله. وقال النبي ﷺ: "**هاك ولو لم تأته لأتتك**". فإن قيل فنجد الطالبين يجدون الاموال والأرزاق والتاركين يعدمون ويفتقرون، قيل له كأنك لاتجد مع ذلك طالباً محروماً فقيراً وفارغاً مرزوقاً غنياً، بلى ان هذا هو الاكثر لتعلم ان ذلك بتقدير العزيز العليم وتدبير الملك الحكيم. وانشد أبو بكر محمد بن سابق الصقلّي الواعظ رحمه اللّه تعالى بالشام:

كم من قوي قويٍّ في تقلّبه ... مهذَّب الرأي عنه الرزق منحرفُ
وكم ضعيف ضعيف في تقلّبه ... كأنه من خليج البحر يغترفُ
هذا دليل على ان الإله له ... في الخلق سرٌّ خفيٌّ ليس ينكشفُ

وأنشد بعضهم:

جرى قلم القضاء بما يكون ... فسيّان التحرك والسكون
جنون منك ان تسعى لرزق ... ويُرزَق في غِشاوته الجنين

فإن قلت هل يجوز لاحد ان يدخل البادية بغير زاد؟ فاعلم ان كان لك قوة القلب باللّه تعالى والثقة البالغة بوعد اللّه فادخل، وإلاّ فكن كالعوام بعلائقهم. آه.

وقد سمعت من شيخنا سيدي الشيخ محمود رضي اللّه عنه يقول في قوله تعالى في الحديث القدسي "**انا عند ظنِّ عبدي بي**" قال: فُسِّر هذا الحديث بسبعين تفسيراً وأَجَلُّها ان الإنسان إن ظنَّ باللّه تعالى انه لايرزقه إلاّ إذا قطع الطريق تقيد رزقه بذلك. وان ظن بربه انه لايرزقه الاّ إذا تعاطى الاسباب الموضوعة في العالم تقيّد رزقه بذلك. وان ظن

في اللّه انه يرزقه ولو كان في شاهق جبل قيّض اللّه له هناك رزقه.

ومن هذا المعنى قاله الامام الغزالي رحمه اللّه تعالى سمعت الامام ابا المعالي رحمه اللّه تعالى يقول ان من جرى مع اللّه تعالى على عادة الناس جرى اللّه تعالى معه على ما هو عادة الناس في كفاية المؤنة. فإن قلت هل حمل الزاد للمتوكل ينافي توكله ام لاينافيه؟ قلتُ اعلم ان التوكل محلّه القلب وحركة الظاهر لاتنافيه، فربما يحمل المتوكل الزاد في سفره ولايعلق قلبه به بانه لا محالة رزقه وفيه قوامه، انما يعلق قلبه باللّه تعالى ويتوكل عليه ويقول ان الرزق مقسوم مفروغ منه واللّه تعالى إن شاء أقام بنيتي بهذا أو بغيره، وربما يحمل بنيّةٍ أخرى بان يعين مسلماً أو يطعم جائعاً أو نحو ذلك. وليس الشأن في أخذ الزاد وتركه انما الشأن في تعلق القلب وعدمه، فلاتعلق قلبك إلاّ باللّه تعالى وحسن كفايته وتتيقن بأن اللّه تعالى هو الذي يتولى أمورك كلها ويرزقك من حيث لاتحتسب. فمن كان بهذه المثابة فلايضرُّ حمل الزاد، فكم من حامل للزاد وقلبه مع اللّه تعالى وكم من تارك للزاد وقلبه مع الزاد دون اللّه تعالى، هذا فسيد المتوكلين الرسول الاعظم ﷺ كان يحمل الزاد في الاسفار وكذلك الصحابة والسلف الصالح فهذا مباح غير حرام، بل الحرام تعلق القلب بالزاد والاعتماد عليه والارتباط به كما قلنا. فإن قلت أيهما أفضل، حمل الزاد أم تركه؟ قلت هذا يختلف باختلاف الحال. فإن كان مقتدى به يريد ان يبين ان أخذ الزاد مباح أو ينوي به اعانة مسلم أو اغاثة ملهوف ونحو ذلك فالاخذ أفضل. وان كان منفرداً قوي القلب باللّه سبحانه وتعالى ويشغله الزاد عن عبادة اللّه تعالى فالترك أفضل. فتفهّم هذه الجملة واحتفظ بها وباللّه تعالى التوفيق.

ومما يحكى عن أقوياء القلب في التوكل على اللّه تعالى ما حكي ان ابراهيم بن أدهم رحمه اللّه تعالى لما أراد ان يدخل الى البادية أتاه الشيطان فخوفه ان هذه بادية مهلكة ولا زاد معك ولا سبب، فعزم على نفسه رحمه اللّه تعالى ان يقطع البادية على تجرده ذلك وان لايقطعها حتى يصلي تحت ميل من أميالها ألف ركعة، وقام بما عزم عليه وبقي في البادية اثنتا عشرة سنة، حتى ان الرشيد حج في بعض السنين فرآه تحت ميل يصلى فقيل له هذا ابراهيم ابن أدهم، فأتاه فقال: كيف تجدك يا أبا اسحق؟ فأنشد ابراهيم يقول:

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا　　فلا ديننا يبقى ولا ما نرقع
فطوبى لعبد آثر اللّه ربّه　　وجاد بدنياه لما يتوقع

وعن بعض الصالحين رحمه اللّه انه كان في بعض البوادي فوسوس له الشيطان بانك متجرد وهذه بادية لا عمران فيها ولا ناس، فعزم على نفسه بان يمضي على تجرده وان يترك الطريق حتى لايقع باحد الناس ولايأكل شيئاً حتى يُجعل في فيه السمن والعسل، ثم عدل عن الشارع ومر على وجهه قال رحمه اللّه تعالى فسرت ما شاء اللّه تعالى فإذا بقافلة قد أضلّت الطريق وهم يسيرون، فلما أبصرتهم رميت نفسي الى الارض لعلهم لايبصروني، فسيّرهم اللّه حتى وقفوا عليّ، فغمّضت عيني فدنوا مني وقالوا هذا منقطع غشي عليه من الجوع والعطش، فهاتوا سمناً وعسلاً نجعله في فيه لعله يفيق، فأتوا بسمنٍ وعسل فشددت فمي وأسناني، فأتوا بسكين فعالجوا فمي حتى يفتحوه فضحكت وفتحت فمي. فلما رأوا ذلك قالوا: مجنون أنت؟ قلت: لا واللّه والحمد لله تعالى، وأخبرتهم ببعض ما جرى لي من الشيطان.

وعن بعض مشايخنا قال: نزلت في بعض أسفاري أيام التعليم مسجداً وكنت متجرداً على عادات أوليائنا فوسوس اليَّ الشيطان بان هذا مسجد بعيد عن الناس ولو صرت الى مسجد بين الناس لرأوك أهله وقاموا بكفايتك، فقلت: لا أبيتُ إلاّ ههنا وعلى عهد اللّه تعالى أن لا آكل شيئاً إلاّ الحلواء ولا آكله حتى يوضع في فمي لقمة لقمة وصليت العشاء الاخيرة وأغلقت الباب، فلما مضى صدر من الليل إذا أنا بانسان يدق الباب ومعه سراج فلما أكثر الدق فتحت الباب فإذا بعجوز معها شاب قد دخلت فوضعت بين يدي طبقاً من الخبيص فقالت: هذا الشاب ولدي صنعت له هذا الخبيص وجرى منى كلام فحلفت أن لاياكل حتى يأكل معه رجل غريب وقالت أنت هذا الغريب الذي في المسجد فكل يرحمك اللّه. وأخذت تضع في فمي لقمة وفي فم ولدها لقمة.

حُكيَ ان رجلاً جاء الى الشبلي يشكو اليه كثرة العيال، فقال ارجع الى بيتك فمن تعلم ان رزقه ليس على اللّه فاطرده عنك. وحكى ان حاتم الاصم كان رجلاً كثير العيال وكان له أولاد ذكور وأناث ولم يكن يملك حبة واحدة، وكان قدمه التوكل فجلس ذات ليلة مع أصحابه يتحدث معهم فعرضوا بذكر الحج فقدح الشوق في قلبه فدخل على أولاده فجلس معهم يحدثهم ثم قال لهم: لو أذنتم لابيكم ان يذهب الى بيت ربه في

هذا العام حاجّاً ويدعوا لكم ماذا عليكم لو فعلتم، فقالت زوجته وأولاده: أنت على هذه الحالة لاتملك شيئاً ونحن على ما ترى من الفاقة فكيف تريد ذلك ونحن بهذه الحالة، وكانت له ابنة صغيرة فقالت له: ماذا عليكم لو أذنتم له ولايهمكم ذلك فدعوه يذهب حيث يشاء فإنه أكّال للرزق وليس برزّاق فذكرتهم بذلك. فقالوا: صدقت واللّه ياهذه الصغيرة، يا أبانا اذهب حيث أحببت. فقام من وقته وساعته وأحرم بالحج وخرج مسافراً وأصبح أهل بيته يدخلون جيرانهم عليهم يوبخونهم كيف أذنوا له بالحج وتأسف على فراقه أصحابه وجيرانه فجعل أولاده يلومون تلك الصغيرة ويقولون لو سكت ما تكلمنا فرفعت الصبية رأسها وقالت الهي وسيدي ومولاي وعدت القوم بفضلك وانك لاتضيعهم فلا تخيبهم ولاتخجلني معهم، فبينما هم على تلك الحالة إذ خرج أمير البلدة متصيداً فإنقطع عن عسكره واصحابه فحصل لهم عطش شديد فاجتاز بيت الرجل الصالح حاتم الاصم فاستسقى منهم ماء وقرع الباب فقال: من انتم قالوا الامير ببابكم يستسقيكم، فرفعت زوجة حاتم رأسها الى السماء وقالت إلهي وسيدي سبحانك، البارحة بتنا جياعاً واليوم يقف الامير علي بابنا ثم انها اخذت كوزاً جديداً وملأته ماء وقالت للمتناول منها اعذرونا فاخذ الامير الكوز وشرب منه فاستطاب الشرب من ذلك الماء، فقال: هذه الدار لأمير؟ فقالوا: لا واللّه بل لعبد من عباد اللّه الصالحين يعرف بحاتم الاصم. فقال الامير: لقد سمعت به. فقال الوزير: ياسيدي لقد سمعت البارحة انه احرم بالحج وسافر ولم يخلف شيئاً لعياله وخبرت زوجتة انهم البارحة باتوا بغير عشاء. فقال الامير: ونحن أيضاً ثقّلنا عليهم اليوم وليس هذا من المروءة يثقل مثلنا على مثلكم، ثم حلّ الامير منطقته من وسطه ورمى بها في الدار. ثم قال لاصحابه: مَن احبني فليلقِ منطقته. فحلَّ جميع اصحابه مناطقهم ورموا بها اليهم ثم انصرفوا. فقال الوزير: السلام عليكم أهل البيت لآتينكم الساعة بثمن هذه المناطق. فلما نزل الامير رجع الوزير بثمن المناطق مالاً جزيلاً، فلما رأت الصغيرة ذلك بكت بكاءً شديداً، فقالوا لها: ما هذا البكاء انما يجب ان تفرحي فإن اللّه قد وسّع علينا؟ فقالت: ياأمي انما ابكي كيف بتنا جياعاً فنظر الينا مخلوق نظرة واحدة فاغنانا بعد فقرنا، فالكريم الخالق إذا نظر الينا لايكلِنا الى احد، اللّهم انظر الى ابينا ودبِّره باحسن التدبير.

واما ما كان من امر حاتم فإنه لما خرج محرما ولحق بالقوم فرجع امير الركب فطلب

طبيباً فلم يجد فقال هل ههنا من عبد صالح فدل على حاتم، فلما دخل عليه وكلمه دعا له فعوفي الامير، فامر له بما يركب وما يأكل وما يشرب فنام تلك الليلة متفكراً في امر عياله فقيل له في منامه يا حاتم مَن اصلح معاملته معنا اصلحنا معاملتنا معه ثم أُخبر بما كان من امر عياله فأكثر من الثناء على اللّه تعالى. فلما قضى حجَّهُ ورجع تلقته اولاده فعانق الصغيرة وبكى ثم قال صغار قوم كبار قوم آخرين ان اللّه لاينظر الى اكبركم ولكن ينظر الى اعرفكم به.

فعليكم بمعرفته فالاتكال عليه فإنه من توكل عليه فهو حسبه. ومن كلام الحكماء من ايقن ان الرزق الذي قُسِم له لايفوته تعجل الراحة، ومَن علم ان الذي قضي عليه لم يكن يخطيه فقد استراح من الجزع ومن علم ان مولاه خير له من العباد وقصده كفاه هَمّهُ وجمع شمله. ولما كان مقام الزُهد في الدنيا والتوكل لايُنالان بدون مجاهدة نفس ومكابدة حس أردفهما بقوله:

إجهد تشهد؛ اي جاهد النفس بفطمها عن المألوفات وحملها على خلاف الهوى في سائر الاوقات تشهد بقلبك رب الارضين والسموات. قال بعض العارفين مَن زيّن ظاهره بالمجاهدة حسَّنَ اللّه سرائره بالمشاهدة قال اللّه تعالى (والذين جاهدوا فينا لنهدينَّهم سبلنا). وحقيقة المجاهدة حمل النفس على خلاف دواعيها وذبحها بسيوف المخالفة وعدم الركون إليها في نفس من الانفاس، فإن النفس ما دامت حية تسعى فهي حيةٌ تسعى كما قال ابن عطاء: النفس مجبولة على سوء الأدب والعبد مأمور بملازمة الأدب. فالنفس تجري بطبعها في ميدان المخالفة والعبد يردها بجهده عن سوء المطالبة، فمن اطلق عنانها فهو شريكها في افسادها. وكان الجُنَيد رضي اللّه عنه يقول: النفس الامارة بالسوء هي الداعية الى المهالك المعينة للأعداء المتبعة للأهواء المتصفة باصناف الأسواء. وقال أبو حفص: مَن لم يتهم نفسه على دوام الاوقات ولم يخالفها في جميع الاحوال ولم يجرها الى مكروهها في سائر أيامه كان مغروراً، ومَن نظر اليها باستحسان شيءٍ منها فقد أهلكها. قال القشيري في الرسالة: واعلم ان مَن لم يكن باديته صاحب مجاهدة لم يجد من هذه الطريقة شمه، سمعت الشيخ ابا عبدالرحمن السلمي يقول سمعت ابا عثمان المغربي يقول مَن ظن انه يفتح عليه بشيء من هذه الطريقة أو يكشف له عن شيء منها إلاّ بلزوم المجاهدة فهو في غلط. وسمعت الاستاذ

أبا علي الدقّاق يقول: مَن لم يكن له في بدايته قومة لم يكن له في نهايته جلسة. وقال غيره: مَن لم تكن له بداية محرقة لم تكن له نهاية مشرقة. وقولهم الحركة بركة معناه ان حركات الظواهر بالمجاهدة توجب بركات السرائر بالمشاهدة.

وعن أبي يزيد البسطامي رضي اللّه عنه قال: كنت إثنتي عشرة سنة حدّاد نفسي وخمس سنين كنت مرآة قلبي وسنة أنظر فيما بينهما فإذا في وسطي زنار ظاهر، فعملت في قطعه إثنتي عشرة سنة، ثم نظرت فإذا في باطني زنار فعملت في قطعه خمس سنين أنظر كيف أقطع، فكشف لي فنظرت الى الخلق فرأيتهم موتى فكبّرت عليهم أربع تكبيرات. ومعناه انه عمل في مجاهدة نفسه وازالة رعوناتها وما جُبلت عليه من عُجب وكِبَر وحرص وحقد وما شابه ذلك من مألوفاتها، فأدخلها كِبر التخويف ثم طرقها بمطارق ما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا حتى ظن انها تنظفت، ثم نظر خمس سنين في مرآة قلبه ويتفقد أحوال قلبه ويعمل على جلائه واشراقه وسنة ينظر بين نفسه وقلبه هل بقي فيهما بقية أو شهوة خفية، فإذا في وسطه زنار ظاهر من الشرك الخفي الذي هو أخفى من دبيب النمل وحب الرياسة والظهور ونحو ذلك، فعمل على قطعه المدة الذكورة حتى قطعه فنظر، فإذا زنار باطني مثل نظره الى أعماله وملاحظة الثواب والعقاب والتشوف الى الكرامات، فعمل في قطعه حتى أمات من نفسه ما كان حياً وفنى عن حسه وسقطت ملاحظة الخلق من قلبه وعمل لربّه بربّهِ، فثبت قدمه في مقام الشهود، فعند ذلك كبّر على الخلق أربع تكبيرات بمعنى انهم صاروا عنده بمنزلة الموتى وكأن اللّه ما خلق سواه لعبادته.

والمراد بالخلق ما فارقه وفنى عنه من أوصافه الذميمة التي جُبلت عليها نفسه وخصَّ التكبيرات بالأربع لأن حجاب الخلق عن الحق أربع: النفس والشيطان والدنيا والهوى. فكلما فنى عنه واحد من هذه الاربعة كبّر عليه تكبيرة. وكان السري السَقَطي يقول: يا معشر الشباب جِدّوا قبل ان تبلغوا مبلغي فتضعفوا وتقصِّروا كما قصَّرتُ. وكان في ذلك الوقت لايلحقه الشباب في العبادة. وقال بعض السادة بني هذا الأمر على ثلاثة أشياء: أن لاتأكل إلاّ عند الفاقة، ولاتنام إلاّ عند الغلبة، ولاتتكلم إلاّ عند الضرورة. وكان ابراهيم ابن أدهم رضى اللّه تعالى عنه يقول: لن ينال الرجل درجة الصالحين حتى يجوز ست عقبات. الأول؛ يغلق باب النعمة أي التنعُّم ويفتح باب الشِدّة أي الأخذ

بالعزائم وترك الرخص على النفس. والثاني؛ يغلق باب العزّ ويفتح باب الذل. والثالث؛ يغلق باب الراحة ويفتح باب الجهد. والرابع؛ يغلق باب النوم ويفتح باب السهر. والخامس؛ يغلق باب الغنى ويفتح باب الفقر. والسادس؛ يغلق باب الامل ويفتح باب الاستعداد للموت.

وقال أبو علي الروزبادي: إذا قال الصوفي بعد خمسة أيام أنا جائع فألزموه السوق وأمروه بالكسب. وأعلم ان للنفس صفتين: انهماك في الشهوات وإمتناع عن الطاعات. فإذا أجمحَتْ عند ركوب الهوى يجب كبحها بلجام التقوى، وإذا حَرَنَتْ عند القيام بالموافقات يجب سوقها على خلاف الهوى، واذا ثارث عند غضبها فمن الواجب مراعاة حالها. فما من منزلة أحسن عاقبة من غضب يُكسَر سلطانه بخُلُق وتُخمَد نيرانه برفق. واذا استحلت شراب الرعونة فضاقت إلاّ عن اظهار مناقبها والتزيّن لمن ينظر اليها ويلاحظها، فمن الواجب كسر ذلك عليها أو إحلالها بعقوبة الذل بما يذكرها من حقارة قدرها وخساسة أصلها وقذارة فعلها.

وأعلم ان المجاهدة تختلف باختلاف الخَلق فمجاهدة العوام بتوفية الأعمال ومجاهدة الخوّاص بتصفية الاحوال، فإن مقاسات الجوع والسهر سهل يسير ومعالجة الإخلاص والتنقي عن سفسافها صعب عسير، ومن غوامض آفات النفس ركونها الى استحلاء المدح فإن من تحسّى منه جرعة حمل السموات والارضين مثلاً على أشفاره وعلامة ذلك انه إذا انقطع عنه ذلك الشراب آل أمره الى الكسل والفشل. كان بعض المشايخ يصلى في مسجده في الصف الاول سنين كثيرة فعاقه يوماً عائق عن الإبتكار الى المسجد فصلى في الصف الاخير فلم يُرَ مدة فسُئل عن السبب فقال: كنت أقضي صلاة كذا كذا سنة صلّيتها في الصف الاول وعندي اننى مخلص فيها للّه فداخلني يوم تأخري عن المسجد من شهود الناس إياي في الصف الاخير نوع خجل فعلمت ان نشاطي طول عمري انما كان على رؤيتهم فقضيت صلاتي.

ويحكى عن أبي محمد المرتعش انه قال حججت كذا كذا حَجّة على التجريد فبان لي ان جميع ذلك كان مشوبا لحظي وذلك ان والدتي سألتني يوماً أن أستقي لها جرّة ماء فثقل ذلك على نفسي فعلمت ان مطاوعة نفسي في الحجاب كانت لحظٍّ وشرفٍ لنفسى اذ لو كانت نفسي فإنية لم يصعب عليها ما هو حق في الشرع. وكانت إمرأة قد طعنت

في السن فسئلت عن حالها فقالت كنت في حال الشباب أجد في نفسى أحوالاً أظنها قوة الحال فلما كبرت زالت عني فعلمت ان ذلك كانت قوة الشباب فتوهمتها أحوالاً. سمعت الشيخ أبا علي الدقّاق يقول ما سمع هذه الحكاية أحد من الشيوخ إلاّ رَقُّوا لهذه العجوز وقالوا انها كانت منصفة.

وقال ذو النون المصري: ما أعزَّ اللّه عبداً بعزٍّ هو أعزُّ له من أن يدلّهُ على ذلِّ نفسه وما أذلَّ اللّه عبداً بذلٍّ هو أذلُّ له من أن يحجبه عن ذلِّ نفسه. قال ابراهيم الخوّاص رضي اللّه عنه: ما هالني شيء إلاّ ركبته. وكان محمد بن الفضل يقول: الراحة هي الخلاص من امانى النفس. وقال أبو علي الروزبادي: دخلت الآفة من ثلاث سقم الطبيعة وملازمة العادة وفساد الصحبة. فسُئِلَ ما سقم الطبيعة قال: أكل الحرام، فقلت وما ملازمة العادة؟ قال النظر والاستماع بالحرام والغيبة. فقلت فما فساد الصحبة؟ قال: كلما هاج في النفس شهوة يتبعها.

وكان النصرابادي يقول: سجنك نفسك اذ اخرجت منها وقعت في راحة الابد. وكان أبو الحسين الورّاق يقول: كان أجل أحكامنا في مبادي أمرنا فى مسجد أبي عثمان إلاّ يُثار بما يفتح علينا وان نبيت على معلوم ومَن استقبلنا بمكروه لا ننتقم لأنفسنا بل نعتذر اليه ونتواضع له واذا وقع في قلوبنا حقارة لأحد قمنا بخدمته والإحسان اليه حتى يزول. وقال أبو حفص: النفس ظلمة كُلُّها وسراجها سِرُّها ونور سراجها التوفيق فمن لم يصحبه في سرِّهِ توفيقٌ من ربه كان ظلمة كله. ومعنى قوله سراجها سرها يريد سرُّ العبد الذي بينه وبين اللّه تعالى فهو محل إخلاصه وبه يعرف ان الحادثات باللّه لا بنفسه ولا من نفسه ليكون متبرياً من حوله وقوته على استدامة أوقاته ثم بالتوفيق يعتصم من شرور نفسه، فإن مَن لم يدركه التوفيق لم ينفعه علمه بنفسه ولا بربه، ولهذا قال بعض العارفين اجمع رأي سبعين صدِّيقاً على أنه لايمكن الخروج من النفس بالنفس بل باللّه تعالى. وقالت الشيوخ مَن لم يكن له سرٌّ فهو مصرّ. قال أبو عثمان: لايرى أحدٌ عيبَ نفسه وهو يستحسن من نفسه شيئاً وإنما يرى عيوب نفسه مَن يتهمها في جميع الاحوال. وقال ذو النون المصرى رضي اللّه تعالى عنه: انما دخل الفساد على الخلق من ستة أشياء أحدها ضعف النية بعمل الآخرة. والثاني صارت أبدانهم رهينة بشهواتهم. والثالث غلب عليهم طول الأمل مع قرب الأجل. والرابع آثروا رضا

المخلوقين على رضا الخالق. والخامس اتبعوا أهواءهم ونبذوا سُنّة نبيهم ﷺ وراء ظهورهم. والسادس جعلوا قليل زلاّت السلف حجة أنفسهم ودفنوا كثير مناقبهم آه. هذا غالبه مأخوذ من كلام القشيري في الرسالة في باب المجاهدة.

وقال شيخنا في شرحه في قول المؤلف رضي اللّه عنه: اجهَدْ أي جاهد نفسك بمخالفة هواها فإن مخالفتها هو الموت الأحمر وهو حال شاقٌ عليها لأنها في الحقيقة هي المخالفة نفسها، فالمخالِف بالكسر عين المخالَف بالفتح وذلك من أعجب الامور. ولو كانا متغايرين لم يحصلَ تعجّب ولا مشقة وفائدة مخالفة النفس عظيمة، والوجود الفتح مقرونان بها اقتران المسبب بالسبب ولاتخالف إلاّ في ثلاث مواطن، في المباح والمكروه والمحظور، بخلاف الطاعة فإنها لاتخالُف فيها نعم إن وقعت لها لذّة في طاعة مخصوصة وعمل مقرّب كان هناك علّة خفية فينبغي مخالفتها بطاعة أخرى وعمل مقرّب آخر، فإن استوى عندها جميع التصرفات في فنون الطاعات سلّمنا لها تلك اللذّة في الطاعة الخاصة. وان وجدت المشقة في العمل المقرب الآخر المخالف لذلك العمل فالعدول الى الشاقّ واجب لأن إعتياد مساعدتها في مثل هذا يجرُّ الى مساعدتها في المحظور والمكروة والمباح. ومما أوجب صعوبة المخالفة على النفس أيضاً كرمُ أصلها وعلوُّ منصبها فإن النيابة الإلهية في العالم ثابتة لها، فتقول في نفسها بيدي أزمة الأمر وملاكُهُ ولاسيما وقد خلقت على الصورة فمخالفتي مخالفة الحق وحُجبتُ عن الإتساع الإلهي وعما خلقت له، وعن العلم بأن الصورة وليست لكل نفس وانما هي للنفوس الكاملة كنفوس الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ومن كَمُلَ من الناس، فلو كَمُلَت هذه النفس لما كانت المخالفة لها موتاً أحمر، فإن لذة العرفإن تعطيها الحياة التي لا موت فيها، فالعارف الذي صار الحق سمعَهُ وقواه لا حرج عليه في مساعدتها في اغراضها فإنه صار نوراً كلّهُ والنور لا ظلمة فيه الى آخر ما نقله عن الفتوحات. ومن هذا القبيل قول العارف باللّه تعالى سيدي عمر بن الفارض رضي اللّه تعالى عنه:

ونفسي كانت قبل لوّامة متى ... أُطعها عَصَتْ أو تعصَ كانت مطيعتي
فأوردتها ما الموت أيسرَ بعضه ... واتعبتها كيما تكون مُريحَتي
فعادت ومهما حملته تحمّلت ... مني وان خففت عنها تأذت

واعلم ان المجاهدة والمكابدة من المقامات المستصحبة للمُكلَّف مادام التكليف فإذا زال

حكم التكليف زال حكمها ، ولهذا نَفَّسَ اللّه تعالى عن المكلَّفين بصنف المباح وهو أرفع أحوال العبد في الدنيا لأنه من حكم الحياة الآخرة التي لاتحجير فيها. وأمّا قول بعض السادة يصل العبد الى مقام يرتفع فيه عنه التكليف فإن صحَّ فمعناه ترتفع عنه المشقة في الطاعات التي كان يجدها في حال بدايته وتصير نفسه منقادة مذلّلَة للعمل الصالح بل الأعمال الصالحة قرّة عين لها ، كما قال ﷺ **وجُعلَت قُرّة عيني في الصلاة**، وهذا هو المشار اليه آنفا بقول ابن الفارض:

فعادت ومهما حمَلتُهُ تحمَّلت　　　　منّي وإن خففت عنها تأذت

وقد حُكيَ عن الجُنيد رحمه اللّه تعالى انه قال: كنت أرقتُ ليلةً فقمت الى وِردي فلم اجد ما كنت أجد من الحلاوة، فأردت أن أنام فلم اقدر عليه فقعدت فلم أطق القعود ، ففتحت الباب خرجت فإذا رجلٌ ملتفٌ في عباءة مطروح على الطريق، فلما احسَّ بي رفع رأسه وقال: يا أبا القاسم الى الساعة فقلت ياسيدي بلا موعد، فقال: بلى سألتُ محرك القلوب ان يحرّك لي قلبك، قلت: فقد فعل فما حاجتك؟ قال: متى يصير داء النفس دواها ؟ فقلت: إذا خالفتَ النفس هواها صار داؤها دواها. فأقبل عليَّ نفسه وقال: اسمعي قد أجبتك بهذا الجواب سبع مرات فأبيتِ إلاّ أن تسمعيه من الجُنيد فقد سمعتِ وانصرف عني ولم اعرفه ولم اقف عليه آه.

فما وصل احد الى درجة عالية ومقام شريف إلاّ بعد تجرّع مرارات المجاهدة والصبر على مشاق النفس تصير النفس راضية مرضية فتصلح للدخول الى حضرة الحق التي هي جنة القُرب وتُخلع عليها خلعة الخلافة في العالم. قال ابراهيم الخوّاص رحمه اللّه تعالى: كنت في جبل لكام فرأيت رماناً فاشتهيته فدنوت فأخذت منه واحدة وشققتها فوجدتها حامضة فمضيت وتركت الرمان فرأيت، رجلاً مطروحاً قد إجتمع عليه الزنابير فقلت: السلام عليك، فقال: وعليك السلام يا ابراهيم. فقلت: كيف عرفتني؟ قال: مَن عرف اللّه لايخفى عليه شيء. فقلت: أرى لك حالاً مع اللّه فلو سألته ان يحميك ويقيك الأذى من هذه الزنابير. فقال: وأرى لك حالاً مع اللّه فلو سألته أن يقيك شهوة الرمان فإن لذع الرمان يجد الإنسان ألمه في الآخرة ولذع الزنابير يجد الإنسان ألمه في الدنيا فتركته ومضيت. قال أبو سليمان الداراني رضي اللّه عنه: من احسن في ليله كوفيء في نهاره ومَن أحسن في نهاره كوفيء في ليله ومَن صدق في ترك شهوة كُفيَ

مؤنتها واللّه أكره من أن يعذب قلباً ترك شهوةً لأجله.

أوحى اللّه تعالى الى داود عليه السلام يا داود حذِّر وأنذِر أصحابك اكلَ الشهوات فإن القلوب المعلّقة بشهوات الدنيا عقولها عنّي محجوبة. ورأى رجلاً جالساً في الهواء فقيل له بمَ نِلتَ هذا؟ قال تركت الهوى فسَخَّرَ لي الهواء. وقيل لو عرض للمؤمن ألف شهوة لأخرجها بالخوف ولو عُرضت للفاجر شهوةٌ واحدة لأخرجته من الخوف. وقيل لاتضع زمامك بيد الهوى فإنه يقودك الى الظلمة. وقال يوسف بن اسباط لايمحو الشهوات من القلب إلاّ خوف مزعج أو شوق مُقلِق. وقال الخوّاص مَن ترك شهوةً فلم يجد عوضها في قلبه فهو كاذب في تركها.

واعلم ان انواع المُجاهَدة كثيرة وكل مريد يليق به نوع منها لايليق بغيره على قدر قوة المريد وضعفه ومعرفة ما هو الأشقُّ عليه ينظر الى حاله والى زمان مجاهدته وغير ذلك. مثال ذلك أن المجاهدة بالصوم والصلاة أشَقُّ على الملوك من المجاهدة بالصدقة والعِتق وفي حق التجار الحريصين على الأموال بالعكس. والمُجاهَدة بترك المنازعة وإظهار الفضل وترك التنافس في المجلس وطلب التصدُّر أشَقُّ على بعض فقهاء أهل زماننا بل تركُ إعطاء يده للناس ليقبِّلوها أشَقُّ عليه من لبس الصوف الخشن وملازمة السجادة مدة طويلة. والمُجاهَدة بالصوم في الصيف أشَقُّ من المجاهدة بالصوم في الشتاء وفي قيام الليل الأمر بالعكس. والحاصل أن تعيين انواع المُجاهَدات للمريدين مفوّض الى رأي الشيخ الذي يسلكهم ويريهم لا إلى إختيارهم لأنفسهم، فإن ذلك خطر عظيم وخَطبٌ جسيم. سمعت شيخنا المصحِّف رحمه اللّه يقول لإن تكون تحت أمر هِرّة خير لك من أن تكون تحت أمر نفسك. وسمعته أيضاً يقول إذا أمر الشيخ مريده بنقل الحجر من الجبل ففتوح المريد في إمتثال أمر شيخه، يعني فنفع المريد في نقل الحجارة أكثر من صومه وصلاته بنفسه.

والحاصل ان المجاهدة في نفسها لازمة لكل مؤمن لكن إذا كانت بإشارة الشيخ فهي أقدح وأسرع الى الفتوح، إذ المريد بدون شيخ عقيم لايجيء منه شيء في الطريق وإن حصلت له جُذبة أو نفحة إلهية لايصلح الإقتداء به وعطبه أقرب من سلامته. قالت الشيوخ من لم تُربِّه الرجال فهو لقيط. قال سيدي عبدالوهاب الشعراني رضي اللّه عنه في المِنن: ومن جملة ما جاهدت به نفسي أني كنت جعلت لي حبلاً في سقف الخلوة

محرراً في عنقي إذا جلست لايصل الى الارض لو اضطجعت، فكنت أجعله في عنقي من العشاء الى الفجر. ومكثت على ذلك سنين ولم يكن لي بحمد اللّه تعالى من حين كنت صغيراً شيء يعوقني من امور الدنيا سوى الحجاب وكثرة دخول العلل في اعمالي وإن كانت العِلل لاتنقطع عن العبد إلاّ أنها تتنوع بحسب المقامات، فكل مقام له علل تُناسبه فأفهم. وكانت القناعة سُدايَ ولحَمتي فاغنتني بحمد اللّه عن الوقوع في الذَلّ لأحد من أبناء الدنيا ولم أُباشر قطُّ حرفةً ولا وظيفة بفلوس وإنما الحقُّ تعالى يرزقني من حيث لا أحتسب الى وقتي هذا، وعرضوا عليَّ الألف دينارٍ فأكثر فرددتها فلم اقبَلها، وكان المباشرون والتجار يأتون بالذهب والفضة فأرميها في صحن الجامع الغمري فيلتقطها الناس وتركت اكل لذيذ الطعام والشراب وقنعت بالخشن من المأكل والمشرب ثم تركت لبسَ الثياب والطعام جملةً وكنت ألبَسُ الشراميط من الكيمان وآكل التراب مدة لعدم الحلال الصافي على حسب مقامي إذ ذاك، وكنت لا آكل طعام أميرٍ ولا مُباشِرٍ ولا تاجر ولا فقيه لايسدُّ في وظيفته ولا غيرهم، وضاقت عليَّ الارض كلها فاقمت في المساجد المهجورة والخرائب مدة سنة، وكنت أطوي الثلاثة ايامٍ وأكثر واذا أفطرت تناولت نحو أوقيةٍ غير زيادة حتى كنت اصعد بالهِمّة الى الصاري المنصوب على سقف جامع الغمري من غير سُلَّمٍ والناس نائمون، ثم إذا نزلت في السُلَّم انزل بجهد لغلبة روحانيتي على جُثمانيتي وطلبها محل إستقرارها من السموات، وهذا هو السبب لتحريك الإنسان إذا قرأ القرآن فكأن الروح تشتاق الى لقاء ربها إذا سمعت كلامه فتكاد تلحق بعالمها السماوي فافهم، وكان لى صاحب من عباد اللّه الصالحين يقلي السمسم في معصرة السيرج فكان يأتيني بالقطعة الكسب فاحمِّصُها وآكل منها ثلاثة أيام نحو أوقية، وتنكَّرَتْ قلوب اصحابي مني حتى كأنهم قطُّ لم يعرفوني من ضيق وقتي عن مباسطتهم بالكلام، وكنت كثيراً ما أخرج الى الموارد التي يغسل الناس فيها الجزر والخس والبقل فآكل مما اجده من الاوراق وأشرب عليه من النهر وأكتفي به ذلك اليوم، وكنت لا آكل طعاماً قطُّ لفقير لا كَسْبَ له من المتعبّدين وأقول هذا رجل يأكل بدِينه وكذلك كنت لا آكل طعام تاجر يبيع على القضاة والمكّاسين خوفاً من دخول الرِشوة والغَشّ على القاضي والتاجر، ثم تركت طعام كل من يمسك الميزان، وكنت إذا إفتتحت مجلس الذِكر بعد العشاء لا أختمه حتى يُقال لي الفجر طلع، ثم أذكُرُ من بعد

الصبح الى ضحوة النهار ومن الظهر الى العصر ومن العصر الى المغرب وهكذا فمكثت على ذلك سنين، وكنت أصلّي بين المغرب والعصر والعشاء بربع القرآن ثم اصلّي بباقيه فأختمه قبل الفجر وربما ختمته كله في ركعةٍ، وكنت كثيراً ما أضرب أفخاذي بالسوط إذا غلبَ النوم عليَّ وربما انزل بثيابي في الماء البارد في الشتاء حتى لاياخذني النوم وهذا من قاعدة ما إذا اتعارض عندنا مفسدتان ارتُكب الأخفُّ منهما، ولا شك ان وقوف المحبِّ بين يدي اللّه تعالى في الظلام مع تألم جسمه بالضرب أحسن عنده من نومه عنه حال التجلّي مع صحة الجسم.

ولكل مقام رجال ومَن طلب النفيس خاطر بالنفيس، فعُلمَ ان المحب للّه في واد والمُنكِر عليه في واد، ومَن طالعَ احوال القوم في مجاهداتهم سهُلَ عليه العسير. وقد قال سيدي عبدالقادر الجيلي رضي اللّه عنه: مكثت في بدايتي سنة كاملة لا آكل ولا أشرب ولا أنام، قال ودعوت نفسي الى العبادة فأبَت فمنعتها شرب الماء سنة آه. ثم قال وكانت عمامتي ايام مُجاهَدتي مجتمعة من حبال وجلود وشراميط لقلة الحلال، وبالغت في التدقيق في الورَع بحماية اللّه تعالى لا بحولي ولا قوتي حتى كنت لا أمشي في ظل عمارة أحدٍ من الظَلَمة ولا أعوانهم، ولما عمل السلطان قانصوه الغوري الساباط الذي بين مدرسته وقبته الزرقاء تركت المرور من تحته إذا قصدتُ زيارة القرافة أو غيرها، وكنت ادخل من سوق الورّاقين وأدخل من سوق الشرب، وأنا بحمد اللّه تعالى على قدم الورَع لأن نور المعرفة لايطفيء نور الورَع كل ذلك حمايةً من اللّه تعالى بعدم قسمته لي لاأنه قسّمهُ لي فمَنَعت نفسي منه فإن ذلك لايصح، فجميع ما ردّهُ المتورع من الامور ليس هو له بالأصالة وإنما هو وهم، وقد أُمر العبد من طريق تكليفه أن يدافع الأقدر جهده ويُثاب على ذلك فافهم، واذا اعتنى اللّه تعالى بعبده المحبوب استخلص له الحلال من بين فرث الحرام ودمِ الشبهات كما يُستخرج اللَبَن واللّه على كل شيء قدير انتهى كلامه رضي اللّه عنه.

والحاصل انَّ جُلَّ مدار هذا الامر على المُجاهَدَة إذا كانت العناية الربانية سابقةً للعبد الخصوصي نسأله تعالى ان يجعلنا من أهلها ويوردَنا مناهلَها ويجنبنا وأحبابنا من متابعة النفس والهوى، فإن مَن مال مع الهوى الغدّار آل امره الى النار، ولذا قالت النخلة للشبلي رضي اللّه عنه يا شبلي كُن مثلي يرمونني بالأحجار وأرميهم بالثمار،

فقال لها ولمَ كان مصيرك الى النار؟ فقالت لَميلي مع الهوى الغدار. فمجاهدة النفس أفضل الجهاد لما رواه الديلمي عن أبي ذرّ: أفضل الجهاد ان تجاهد نفسك وهواك في ذات اللّه تعالى. وعن ليث بن أبي طلحة قال: إنطلق رجلٌ ذات يوم فنزع ثيابه فتمرغ في الرمضاء وهو يقول لنفسه ذوقي نار جهنم ذمٌّ بالليل وبطالة بالنهار. قال فبينما هو كذلك اذ أبصر النبي ﷺ في ظل شجرة فأتاه فقال غلبتني نفسي، فقال له النبي ﷺ أما بعد فقد فُتحت لك ابواب السماء ولقد باهى اللّه بك الملائكة، ثم قال لأصحابه تزوّدوا من أخيكم فجعل الرجل يقول يافلان ادعُ لي، فقال له النبي ﷺ عمهُمْ، فقال اللّهم اجعل التقوى زادهم واجمع على الهدى أمرهم، فجعل النبي ﷺ يقول اللّهم سدّده، فقال وأجعل الجنة مآبهم. وفي روايةٍ أنه لما اقبل على النبي ﷺ قال دونكم أخاكم، فقالوا له ادعُ اللّه يرحمك اللّه، فقال اللّهم اجمع على الهدى امرهم، فقالوا زدنا، فقال اللّهم إجعل التقوى زادهم، فقال ﷺ زدهم اللهم وفقه، فقال اللهم اجعل الجنّة مأواهم. رواه أبو نعيم.

فاذا كان هذا مُجاهدة نفسه ساعة من نهار حصل له هذا الخير فما بالك بمن وُفق لمجاهدتها في اغلب احيانه. وقد رأى بعض الناس الإمام حجة الإسلام الغزالي في البرّية وعليه مرقعة وبيده ركوة وعُكّاز بعد أن كان رآه يحضر مجلسه ثلاثمائة مدرّس ومائة من أمراء بغداد، فقال يا إمام أليس تدريس العلم أولى؟ فنظر اليه شَذراً وقال لما بزغ بَدرُ السعاده في فَلَك الإراده وجنحت العقول الى مغرب الأفول:

تركت هوى سعدى وليلى بمعزلٍ وعدت الى مصحوب أول مَنزل
وناديت بالأشواق مهلاً فهذه منازل مَن تهوى رويدك فانزل
غزلت لهم غزلاً رَقيقاً فلم أجد لغزلي نِساجاً فكسرت مِغزَلي

وقد تقدم أن انواع المُجاهَدة كثيرة وفروعها غزيرة واعظم انواع المجاهدة تأثيراً في تهذيب الاخلاق وتنوير القلب وإشراقه الإكثار من الذكر، إذ هو معظم أركان الطريق ومنشور ولاية أهل التوفيق، فلهذا اعقب المُجاهَدة بقوله:

اكثر من الذكرَ . ترى الأنور البِكر فهو تفصيل بعد إجمال وإرداف وإكمال، ومُرْ بالإكثار من الذكر لأن اصل الذكر لاينفكُّ عنه كل مؤمن وإنما تحصل مُجاهَدَةُ النفس بالدوام عليه وإِستغراق الانفاس فيه بحيث لايضيع منه نَفَسٌ من أنفاس عمره إلاّ ويشغله بذِكر

اللّه تعالى (والذاكرين اللّه كثيراً والذاكرات) وقال تعالى (يا أيها الذين آمنو اذكروا اللّه ذكراً كثيراً وسبّحوه بُكرةً وأصيلاً) ومعنى ترى الأنوار البِكر: تُشرق على قلبك الانوار الإلهية فتمحي عنك ظُلمة الأغيار الوهمية وتنتظم في سلك الابرار. ومعنى كونها بِكراً أنها خالصة من الشوائب وظُلمة الطبيعة لم يطمسها قبلَك طامِس ولم تَحُمْ حولها يدُ لامِس محجوبة في خِدرها لم تظهر إلاّ لأهلها.

وأعلم أن الذكرَ ركن قوي في طريق الحق سبحانه بل هو العُمدة في هذا الطريق، ولايصل أحدٌ الى اللّه تعالى إلاّ بدوام الذكر. قال أبو علي الدقّاق رحمه اللّه تعالى: الذكرُ منشور الولاية فمن وُفق للذكر فقد أُعطي المنشور ومن سُلِبَ الذكر فقد عُزل. ويُطلق الذكر ويُراد به القرآن قال تعالى (إنّا نحن نزّلنا الذِكرَ). وفي الحديث "أهل القرآن أهلَ اللّه وخاصته". وفي روايةٍ "أهل القرآن عرفاء أهل الجنة". ويُطلق الذكر ويراد به ما يعمُّ القرآن والتسبيح والاستغفار والصلاة على النبي ﷺ وقراءة العلم والحديث والفقه وحضور مجالس الذكر بأي إسم كان. وهذا هو المراد للمصنِّف وهو المراد من الأوامر القرآنية الواردة بلفظ الذِكر كما في قوله تعالى (فاذكروني أذكُركُم) و(فاذكروا اللّه قياماً وقعوداً وعلى جنوبِكم). وهو المراد من أوامر الحديث كذلك كما في قوله ﷺ "اكثروا ذِكر اللّه تعالى حتى يقولوا انه مجنون"، وفي رواية "حتى يقول المنافقون إنكم مراؤن"، كذا في «الجامع الصغير» قال رسول اللّه ﷺ "يقول اللّه أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حين يذكرني فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خيرٌ منه". وقال عليه الصلاة والسلام "يقول اللّه أنا جليس مَن ذكرني" وقال عليه الصلاة والسلام "ألا أنبئكم بخيرِ اعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخيرٌ لكم من إنفاقِ الذهبِ والوَرِق ومن أن تَلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا اعناقكم. قالوا بلى يارسول اللّه. قال ذكر اللّه".

فالمراد من الذكر في هذه الآيات والاحاديث ما يشمل قراءة القرآن والتسبيح والاستغفار والدعاء وحضور مجالس الحديث والفقه والعلم النافع وذكر اللّه تعالى بأي إسم كان من اسمائه كما ذكرناه آنفاً. ومن جملة أقسام ذكر اللّه تعالى ذكرُ أحبابه لما جاء عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم "ذكرُ على عبادَة" رواه الديلمي عن عائشة ويقاس عليه بقية الصحابة والسادة. وعنه ﷺ "ذِكرُ الأنبياء من العبادة وذكر الصالحين

كفّارة وذِكرُ الموت صدقة وذكرُ القبر يقرّبكم من الجنة" رواه الديلمي عن معاذ. وقال بعضهم المراد من الذِكر تحقيق الأنس باللّه تعالى والوِحشة من الخَلق.

وحقيقة الذكر عند العارفين باللّه تعالى دوام الحضور من غير تخلل غفلة وقصور، فإنْ تخلّلته سُمِّيَ تذكُّراً، وأنشدَ سيدي أبو يزيد البسطامي رضي اللّه تعالى عنه:

عجبتُ لمن يقول ذكرتُ ربّي ... وهل أنسى فأذكرُ ما نسيت
شربت الحبَّ كأساً بعد كأسٍ ... فما نفذ الشراب ولا رُوِيتُ

وسُئل الواسطي عن الذِكر فقال: الخروج عن ميدان الغفلة الى فضاء المشاهَد على غلبة الخوف وشدة الحب. وكان ذو النون المصري يقول: مَن ذكرَ اللّه تعالى على الحقيقة نسيَ في جنب ذِكره كلَّ شيء وحفظ اللّه عليه كلَّ شيء وكان له عوضاً عن كلِّ شيء.

وللذكر ثمرات ونتائج يجدها مَن واظب عليه بوصف الأدب والحضور أقلها أن يجد فيه من الحلاوة واللذّة ماتستحقر في جنبه كلُّما يعرفه من اللذّات الدنيوية وأعلاها ان يفنى بالمذكور عن الذكر وعما سواه، وهذه الحالة هي المشار اليها بالحديث القدسي "لايزال عبدي يتقرّب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببتُه كنتُ سمعهُ الذي يسمع به وبصرهُ الذي يبصُرُ به... الى آخر الحديث". فإن المراد من كينونة الحق سمعُ عبده وبصره إلخ أن العبد إذا أكثر من الذكر وانواع الطاعات إستغرق في ملاحظة اللّه تعالى حتى لايسمع إلاّ بربّه ولايُبصر إلاّ بربّه ولايمشي إلاّ بربّه ولايبطش إلاّ بربّه ولاتقع منه حركة ولا سكون إلاّ وهو مستشعر جانب الحق سبحان وتعالى أما مع الغيبوبة عن الخلق أو مع ملاحظة الخلق. والأول حال بداية العارفين. والثاني حال نهايتهم، فإن مقام الجميع بين الخلق والحق مقام أهل التمكين الراسخين كالأنبياء والمرسلين وخواص الأولياء والعارفين، كما قد نقل شيخ شيخنا العارف باللّه تعالى سيدي مصطفى البكري في «السيوف الحداد» عن الشيخ الاكبر قال: إجتمعت روحي بروح سيدنا هارون في السماء الخامسة. فقلت يا سيدي ومن الأعداء وكيف تقول ولاتُشمت بيَ الاعداء والواحد منا يصل الى مقام لايرى مع اللّه احداً؟ فقال لي هل إذا وصل أحدكم الى هذا المقام سقط الخلق في الواقع ونفس الامر ولم يبقَ خلق أو سقط من نظره وملاحظته وحُجبت عن رؤيته؟ فقلت بل سقط من نظره وملاحظته وهو موجود في الخارج. فقال فبقدر حجابكم عن الخلق بقدر نقصكم في المقام، وأما نحن معشر الأنبياء فلا يحجبنا

الخلق عن الحق ولا الحق عن الخلق. فنبهني على ما لم يكن عندي آه. قلت ولعل هذا كان في بداية الشيخ الاكبر رضي اللّه عنه ثم ترقّى الى المقام الثاني، وهذا هو الظنّ الراجح في جانبه رضي اللّه عنه.

وأعلم يا أخي أن مَن قعد وهو على طهارة في خلوة مستقبل القبلة ساكن الأطراف مطرق الرأس ثم ذكَرَ اللّه بقلب حاضر رأى في قلبه للذكر أثراً ظاهراً، فإن دامَ على ذلك اشرقت عليه انواع القرب وإنكشفت له أسرار الغيب. قال العارف باللّه سيدي محي الدين العربي رضي اللّه تعالى عنه: إذا أشعرَ الإنسان قلبَه ذكرَ اللّه دائماً في كل حال لابد أن يستنير قلبه بنور الذكر فيرزقه بذلك النور الكشف، فإن بالنور يقع الكشف. ومن عظيم فوائد الذكر أنه إذا تمكن الذكر من القلب فإن دنا منه الشيطان صرع كما يصرع الانسان اذا دنا منه الشيطان، فتجتمع عليه الشياطين فيقولون ما لهذا؟ فيقال قد مَسّه الإنسيُّ بالذكر. آه.

والذكرُ أحد أركان الطريق الثمانية كما قال الجُنيد وهي: الجوع والصمت والسهر والعزلة ودوام الطُهر وربط القلب بالشيخ بأن يراقبه دائماً ونفي كل الخواطر عن قلبه، فإن تكرر عليه خاطر حكاه للشيخ. والذكر في كل حال وانفعُ الذكر بالنظر للمريد ما لقّنهُ له شيخه. وأفضل الذكر ما كان بالقلب واللسان معاً. والمراد من ذكر القلب ان يكون حاضراً فيه معنى الذكر الذي يجري على اللسان كالتقديس والتوحيد عند التسبيح والتهليل. والأفضل للذاكر من الإسرار والجهر بالذكر والقراءة الأصلح منهما لقلبه واكثرهما تأثيراً في تمزيق الحُجُب الظُلمانية. والذكر بالجهر للمبتديء انفع واكثر عملاً في إزالة الحجب، فإذا تمكن الذكر في القلب وسكنت معرفة الحق فيه كان الذكر بالقلب أنفع له وأجدر.

وأعلم ان الذكر هو الوارد الدائم المستمر فاجتهد أن لايزال لسانك منه رطباً في كل حال. وانواع الذكر كثيرة كما تقدم، فينبغي للعبد ان يكون له من كل نوع من أنواعه ورد ولاينبغي ان يستغرق جميع اوقاته بورد واحد وإن كان أفضل الأوراد، لأن ذلك يؤدي الى السأمة والملل والعجز والكسل. قال ابن عطاءاللّه الإسكندري في حكمه: لما علم الحق منك وجود الملل لوّن لك الطاعات، وبالإقتصار على ورد واحد يفوت الإنسان بركات تعداد الاوراد والتنقل فيها، فإن لكل ورد اثرٌ في القلب ونور ومدد ومكانة من

الله ليست لغيره. ولتعداد الاوراد اثر عظيم في تنوير القلب وضبط الجوارح ولكن لايظهر ويتأكد إلاّ عند المواظبة والتكرار، وفعل كل وِرد منها في وقت يخصه فإن لم تكن ممن يستغرق جميع ساعات ليلة ونهاره بوظائف الخيرات فاجعل لك أوراداً تواظب عليها في اوقات مخصوصة وتقضيها مهما فاتتك لتعتاد النفس المحافظة، ومتى أنِست منك النفس أنك لاتسمح بترك اورادك حتى تداركها بالقضاء متى فاتت بادرت الى فعلها في اوقاتها. وقد قال سيدي عبدالرحمن السقّاف رضي الله تعالى عنه: مَن لم يكن له وِرد فهو قرد.

وقال بعض العارفين: الواردات من حيث الاوراد فمن لم يكن له وِرد في ظواهره لم يكن له وارد في سرائره. وينبغي للانسان ان يلزم القصد والوسط من كل امر ويؤخذ من الأعمال مايطيق المداومة عليه. قال ﷺ "**خذوا من الأعمال ما تطيقون فإن الله تعالى لايملُّ حتى تَمَلّوا**" ومن شأن الشيطان ان يزين للمريد في مبدأ إرادته الإستكثار من الطاعات والإفراط فيها وغرضه من ذلك ان يردَّهُ على عقبه في ترك فعل الخير اصلاً أو فعله على غير الوجه الذي ينبغي. ثم إن الاوراد تكون في الاكثر صلاة نفلٍ أو تلاوة قرآن أو قراءة علم أو ذِكر أو فكر ونحن نذكر نبذة من الآداب التي يحتاج اليها العامل بهذه الوظائف الدينية فنقول: ينبغي ان يكون لك وِرد من صلاة النَفل زائد على النوافل الواردة تعين له وقتاً وتضبطه بعد وتطيق المداومة عليه، وقد كان من السلف الصالح من وِردهُ في اليوم والليلة ألف ركعة مثل على بن الحسين رضي الله عنهما، ومنهم من وِردهُ خمسمائة ومنهم من وِردهُ ثلاثمائة الى غير ذلك.

واعلم أن للصلاة صورة ظاهرة وحقيقة باطنة ولاتكون من المقيمين للصلاة إلاّ أن تقيم صورتها وحقيقتها كما ينبغي. فأمّا صورتها فهي الأركان والآداب الضاهرة من القيام والقراءة والركوع والسجود والتسبيح ونحوها، وأمّا حقيقتها الباطنة فهي الحضور مع الله تعالى وخلاص النية والقصد له تعالى والإقبال بكنه الهِمّة وجمع القلب، وان يكون فكرك مقصوراً على صلاتك فلا تحدث نفسك بغيرها، وتكون مؤدباً بآداب المناجاة مع الله تعالى. قال عليه الصلاة والسلام "انما المُصلّي مناجٍ ربّهُ". وقال ﷺ "**إذا قام العبد الى الصلاة أقبل الله عليه بوجهه**" ولاينبغي ان يشتغل بنفلٍ مطلق في وقت نفلٍ وَرَدَ في السنة المطهرة من فعل رسول الله ﷺ أو قوله حتى تاتي على العدد الاكمل منه،

فمن ذلك الركعات التي وردت قبل المكتوبة وبعدها وشهرتها تغني عن ذكرها، ومن ذلك صلاة الوتر وهي صلاة ثابتة مؤكدة وقد ذهب بعض العلماء الى وجوب ثلاثة منها وهو إمامنا الامام الاعظم رضي اللّه تعالى عنه لقوله ﷺ "**الوتر حقّ ومَن لم يوتِر فليس منّا**"، واكثرها إحدى عشر ركعة واقلّ ما ينبغي ان يُقتصر عليه ثلاث ركعات وفعلها من آخر الليل لمن له عادة راسخة في القيام من آخره أفضل. وقال عليه الصلاة والسلام "**إجعلوا آخر صلاتكم بالليل وِتراً**"، ومَن لم يكن له عادة في القيام ففعلها بعد صلاة العشاء أفضل له. ومن ذلك صلاة الضحى وهي صلاة مباركة كثيرة النفع واكثرها ثمانِ ركعات وقيل إثنا عشر، وقد ورد واقلّها ركعتان وأفضل اوقاتها ان تُصلّى إذا أضحى النهار ومضى قريبٌ من ربعه. قال ﷺ "**يصبح على كلُّ سلامي عن أحدكم صدقة فكل تسبيحةٍ صدقة وكل تحميدةٍ صدقة وكل تكبيرةٍ صدقة وأمرٌ بالمعروف صدقة ونهيٌ عن المنكر صدقة**". ويجزيه من ذلك كله ركعتان يركعها من الضحى فلو لم يرد في فضل هذه الصلاة إلاّ هذا الحديث الصحيح لكفى. ومن ذلك الصلاة بين المغرب والعشاء واكثرها عشرون ركعة وأوسطها ستٌّ ركعات، قال رسول ﷺ "**مَن صلّى بين العشاءين عشرين ركعة بَنى اللّه له بيتاً في الجنة**". وقال ﷺ "**مَن صلّى بعد المغرب ستَّ ركعات لايتكلم بينهن بسوء عدلن عبادة اثني عشر سنة**".

ومن السُنّة احياء ما بين العشاءين وقد ورد في فضله أخبار وآثار وحسبك من ذلك ان أحمد بن الجوزي شاور شيخه أبا سليمان رحمهم اللّه في أن يصوم النهار أو يحي مابين العَشاءين فقال له اجمع بينهما. فقال لا أستطيع لأني متى صمت إشتغلت بالإفطار في هذا الوقت. فقال إذا لم تستطع ان تجمع بينهما فدع صيام النهار واحيي مابين العشاءين. وقالت عائشة رضي اللّه عنها ما دخل رسول اللّه ﷺ بيتي بعد العشاء الاخير إلاّ صلّى أربعاً أو ستّاً. وقال عليه الصلاة والسلام "**أربعٌ بعد العشاء كمثلهن من ليلة القدر**".

ومن جملة أوراد الأذكار صلاة الليل، فقد قال ﷺ "**أفضل الصلوات بعد المكتوبة صلاة الليل**" وقال عليه الصلاة والسلام "**فضل صلاة الليل على صلاة النهار كفضل صدقة السرِّ على صدقة العلانية**" وقد ورد أن صدقة السرّ تضاعف على صدقة العلانية سبعين. وقال عليه الصلاة والسلام "**عليكم بقيام الليل فإنه دأبُ الصالحين قبلكم**

ومَطردةٌ للداء عن الجسد ومَقربةٌ لكم الى ربِّكم ومغفرة للسيآت ومَنهاةٌ عن الاثم".

وأعلم أن مَن صلّى بعد العشاء فقد قام الليل. وقد كان بعض السلف يصلّي وِرده في أول الليل ولكن في القيام بعد النوم إرغام للشيطان ومُجاهدة للنفس وسرٌّ عجيب وهو التهجّد الذي أمر اللّه به رسوله ﷺ في قوله (**ومِن الليل فتهجّد به نافلةً لك**) وفي المأثور أن اللّه يعجب من العبد إذا قام من على فراشه بين أهله الى صلاته ويباهي به ملائكته ويقبل عليه بوجهه الكريم.

وأعلم انه يقبحُ بطالب الآخرة أن لايكون له قيام بالليل كيف والمريد لايزال طالباً للمزيد متعرضاً للنفحات على دوام الأوقات. وقد قال ﷺ "**إن في الليل ساعة لايوافقها عبدٌ مسلم يسأل اللّه خيراً من أمر الدنيا والآخرة إلاّ أعطاه إيّاه وذلك كل ليلة**" اخرجه مسلم. وفي بعض كتب اللّه المنزلة كذبَ مَن يدّعي محبتي واذا جنّهُ الليل نام عني أليسَ كلُّ محبٍّ يحب الخلوة بحبيبه. وقال الشيخ إسماعيل بن ابراهيم الجبرتي رحمه اللّه تعالى: جميع الخير كله بالليل وما عُقدت لوليٍّ ولاية قط إلاّ بالليل. وقال سيدي العيدروسي عبداللّه بن ابي بكر العلوي: مَن اراد الصفاء الربّاني فعليه بالإنكسار في جوف الليل. وقال رسول اللّه ﷺ "**ينزِلُ اللّه كل ليلة الى سماء الدنيا فيقول هل من داع فأستجيب له، هل من مستغفِر فأغفرَ له، هل من تائب فأتوب عليه حتى يطلع الفجر**، ولو لم يرد في الحثِّ على قيام الليل غير هذا الحديث لكفى كيف والكتاب والسُنّة طافحان بالترغيب فيه والحثِّ عليه. وللعارفين باللّه في قيام الليل منازلات شريفة واذواق لطيفة يجدونها في قلوبهم من نعيم القرب من اللّه ولذة الأُنس باللّه وطيب المناجاة والمحادثة مع اللّه حتى قال بعضهم: إن كان أهل الجنة في مثل ما نحن فيه إنهم لفي عيشٍ طيب. وقال آخر: أهل الليل في ليلهم كأهل اللّهو في لهوهم. وقال آخر: منذ أربعين سنة ما غمَّني شيء إلاّ طلوع الفجر وهذا النعيم لايكون إلاّ بعد تجرُّع المرارات وتحمّل المشقّات في القيام، كما قال عتبة الغلام: كابدتُ الليل عشرين سنة وتنعّمت به عشرين سنة.

فإن قلت ماذا أقرأ في صلاة الليل وكم ركعات ينبغي ان أصلّي؟ فاعلم أن رسول اللّه ﷺ لم يواظب في تهجّده على قراءة شيء مخصوص ومن الحسن ان تتبع القرآن فتقرأه شيئاً فشيئاً في قيامك حتى تختمه في شهر أو أقل أو أكثر حسب نشاطك. وأما عدد

الركعات فأكثر ما روي من قيام رسول اللّه ﷺ ثلاث عشرة ركعة وورد الإقتصار على سبع وتسع. وأكثر ما ورد عنه عليه الصلاة والسلام المواظبة على إحدى عشرة ركعة. ويتخلص من مجموع الحديث انه ينبغي لك ويُستحب إذا قمتَ من النوم أن تمسح عن وجهك بيدك وتقول الحمد اللّه الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور وتقرأ (**إن في خلق السموات والارض وإختلاف الليل والنهار لآياتٍ لأولي الألباب**... الى آخر السورة) ثم تستاك وتتوضأ وضوءاً كاملاً ثم تصلي ركعتين خفيفتين ثم تصلي ثلاث ركعات تطوِّلهن وتسلِّم من كل ركعتين إن شئت أو من كل أربع أو تجمعهن بتسليمة واحدة، وكل ذلك قد ورد، ثم إن رأيت بقي عندك نشاط فتنفَّل ما بدالك ثم صلِّ ثلاث ركعات بنيّةِ الوتر بتسليمة واحدة إن كنت حنفياً أو بتسليمتين إن كنت شافعياً، وتقرأ في الأولى (**سبّح أسم ربك الأعلى**... السورة بتمامها) وفي الثانية قل ياأيها الكافرون وفي الثالثة الإخلاص والمعوذتين. ولاتحسب أن الوتر الذي هو إحدى عشر ركعة وهذه الركعات المذكورة في هذا السياق شيء آخر، كلا إنه لم يروَ من قيام رسول اللّه ﷺ غير ما قصصناه فاعلم ذلك.

وينبغي أن يكون لك وِرد من الكتاب العزيز تداوم على قراءته في كل يوم وأدنى ذلك أن تقتصر على جزء فيكون لك في كل شهر خَتمة، وأعلى من ذلك أن تختم في كل ثلاثة ايام. وأعلم ان لقراءة القرآن فضلاً عظيماً واثراً في تنوير القلب كبيراً، قال رسول اللّه ﷺ: "**أفضل عبادة أمتي قراءة القرآن**" وقال عليٌّ كرّم اللّه وجهه: مَن قرأ القرآن وهو قائم في صلاة كان له بكل حرف مائة حسنة، ومن قرأه وهو قاعد في الصلاة كان له بكل حرف خمسون حسنة، ومَن قرأه خارج الصلاة وهو على طهارة كان له بكل حرف خمس وعشرون حسنة، ومَن قرأه وهو على غير طهارة كان له بكل حرف عشر حسنات.

وإيّاكَ أن يكون هَمُّكَ في تلاوتك مقصوراً على الإكثار منها بدون تدبُّر وترتيل. وعليك إذا تلوت بالتدبُّر والفهم وأستعن على ذلك بالترتيل والترسُّل وحضِّر في قلبك عَظَمَة المتكلم سبحانه وإنك بين يديه تقرأ عليه كتابه الذي أمرك فيه ونهاك ووعظك ووصّاك. وكُنْ عند قراءة آيات التوحيد والتمجيد ممتلئاً بالإجلال والتعظيم، وعند قراءة آيات الوعيد ممتلئاً بالرَغَب والرَهَب، وعند قراءة الأوامر والزواجر شاكراً معترفاً

بالتقصير ومستغفراً عازماً على التشمير. وأعلم أن القرآن هو البحر المحيط، ومنه تُستخرج جواهر العلوم ونفائس الفهوم، ومَن فُتح له طريق الفهم فيه من المؤمنين دام فتحه وتمَّ سروره وأتسع علمه وصار لايملُّ من قرأءته ليلاً ولا نهاراً إلاّ انه قد وجد فيه مقصوده وظفر فيه بمطلوبه، وهذه صفة المريد الصادق، قال الشيخ أبو مدين رضي اللّه عنه: لايكون المريد مريداً حتى يجد في القرآن كل ما يريد. وعليك بالمحافظة على قراءة السور والآيات التي ورد الحثُّ في السُنّة عليها في بعض الأوقات. ومن ذلك ان تقرأ كل ليلة قبل أن تنام ألم السجدة، وتبارك الملك، وسورة الواقعة، وآمن الرسول الى آخر السورة، وسورة الدخان ليلة الإثين والجمعة، وسورة الكهف يوم الجمعة وليلتها. وإن امكنك أن تقرأ المنجّيات السبع في كل ليلة فذلك من الفضائل العظيمة، ومن ذلك إذا اصبحت وإذا امسيت أوائل الحديد وخواتم الحشر والإخلاص والمعوذتين ثلاثاً ثلاثاً، وكذا تقرأ الإخلاص والمعوذتين عند النوم مع آية الكافرون وإجعلها آخر ما تقول، واللّه يقول الحق وهو يهدي السبيل.

ومن جملة الأوراد التي هي من انواع الذِكر وقراءة العلم النافع وهو الذي يزيد في معرفتك بذات اللّه وصفاته وافعاله وآلائه وتعرف به ما امرك به من طاعته ونهاك عن معصيته ويورثك زُهداً في الدنيا ورغبةً في الآخرة ويبصّرك بعيوب نفسك وآفات أعمالك ومكايد عدوك. وهذا العلم مثبوت في الكتاب والسُنّة وكتب الأئمة، وقد جمعه الإمام الغزالي في كتبه العظيم القدر، الكبيرة الخِطر عند مَن له بصيرةٌ في الدين ورسوخٌ في العلم وكمالٌ في اليقين. فواظب على مطالعتها إن كانت لك همّة في سلوك الطريق ورغبةً في الوصول الى مراتب التحقيق. وقد انفردت الكتب الغزالية من بين كتب المحققين من الصوفية بالجمع والتحرير وحصول التأثير الكثير في الزمن القصير. وعليك بالإكثار من قراءة كتب الحديث والتفسير ومن مطالعة كتب القوم عامة، فإن ذلك فتح عام وسلوك تام كما قال بعض العارفين. ولكن ينبغي ان تحترز من مطالعة ما يشمل من رسائلهم على الأمور الغامضة والحقائق المجردة، وهذه الاشياء توجد في اكثر مؤلفات سيدي الشيخ محي الدين محمد بن العربي رضي اللّه عنه وفي شيء من رسائل الغزالي كـ(المعراج) و(المظنون به). وقد ذكر الشيخ زروق في (تأسيس القواعد) قاعدة في التحذير من الكتب التي تجري هذا المجرى فراجعها إن شئت،

وكذلك كتب سيدي الشيخ عبدالكريم الجيلي إلاّ لمن شرب مشاربه وذاق ما ذاقوا من الاحوال السَنية والمكاشفات وما فتح اللّه لهم من الامور القلبية، فإن هذه الكتب إذا لم يكن المطالع بها لها بهذه المثابة كان ضررها اكثر من نفعها فينبغي الترك إيثاراً للسلامة، فإن قال قائل لا بأس في مطالعة هذه الكتب لأني آخذ منها ما أفهمه وأُسلِّم مالا افهمه لقائله قيل قد أنصفت، ولكن نخشى عليك مما تفهمه أن تفهمه على غير وجهه فتضلَّ عن سواء السبيل كما وقع ذلك لأقوام عكفوا على مطالعة هذه الكتب فصاروا في زندقة وإلحاد وقالوا بالحلول والإتحاد ولا حول ولا قوة الا باللّه العلي العظيم.

ومن جملة انواع الأذكار التي ينبغي ان تجعل لك منها ورداً، التَفكُّر في كل يوم وليلة تعين له ساعة أو ساعات واحسن الأوقات للتفكُّر أفرَغَها واصفاها واجدرها في حضور القلب كجوف الليل. وأعلم أن صلاح الدنيا والدين موقوف على صحة التفكير، ومن أعطي حظه منه فقد اخذ بحظ وافر من كل خير. وقد ورد تفكر ساعة خير من عبادة سنة، وقال علي كرّم اللّه وجهة: لا عبادة كالتَفكُّر. وقال بعض العارفين رحمه اللّه تعالى: الفكر سراج القلب فإذا ذهب فلا إضاءة له. ومجاري الفكر كثيرة فمنها وهو اشرفها ان تتفكَّرَ في عجائب مصنوعات اللّه تعالى الباهرة وآثار قدرته الباطنة والظاهرة وما بثَّ فيها من الآيات في ملكوت الارض والسموات. وهذا التفكُّر يزيد في معرفتك بذات اللّه تعالى وصفاته واسمائه وقد حث عليه اللّه بقوله (**قل انظروا ماذا في السموات والارض**) وأنت من عجائب المصنوعات فتفكَّر في نفسك قال اللّه تعالى (**وفي الأرض آياتٌ للموقنين وفي انفسكم أفلا تبصرون**). ومنها ان تتفكر في آلاء اللّه واياديه التي اوصلها اليك ونعمهُ التي أسبغها عليك قال اللّه تعالى (**فاذكروا آلاء اللّه لعلكم تفلحون وإن تعدّوا نعمة اللّه لاتحصوها**) وقال تعالى (**وما بكم من نعمة فمن اللّه**).

وثمرة هذا التفكر امتلاء القلب بمحبة اللّه تعالى والإشتغال بشكره باطناً وظاهراً كما يحبهُ ويرضاه. ومنها ان تتفكر في إحاطة علم اللّه بك ونظرهُ إليك واطلاعه عليك، قال اللّه تعالي (**ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوسُ بهِ نفسُهُ ونحن اقربُ إليه من حبلِ الوريد**) وقال تعالى (**وهو معكم أينما كنتم واللّه بما تعملون بصير**) وقال تعالى (**ألم**

ترَ أنَّ اللّهَ يعلم ما في السموات وما في الارض ما يكون من نجوى ثلاثةٍ إلاّ هو رابعهم).
وهذا التفكُّر ثمرته ان تستحي من الله تعالى ان يراك حيث نهاك او يفقدك حيث امرك. ومنها ان تتفكر في تقصيرك في عبادة مولاك وتعريضك لسخطه بإتيانك ما عنه نهاك قال اللّه تعالى (وماخَلَقتُ الجن والإنس إلاّ ليعبدون) وقال تعالى (أفحسبتُم أنما خلقناكم عبثاً وانكم إلينا لاتُرجعون) وقال تعالى (ياأيها الإنسان ماغرَّكَ بربِّكَ الكريم) وقال تعالى (يا أيُّها الإنسان إنك كادحٌ الى ربك كدحاً فمُلاقيه) فهذا التفكُّر يزيد في خوفك من اللّه ويحملك على لوم نفسك وتوبيخها ومجانبة التقصير وملازمة التشمير. ومنها أن تتفكّر في هذه الحياة الدنيا وكثرة أشغالها ووبالها وسرعة زوالها، وفي الآخرة ونعيمها ودوامها، قال الله تعالى (كذلك يبين اللّه لكم الآيات لعلَّكم تتفكرون) وفي الدنيا والآخرة وقال تعالى (بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خيرٌ وأبقى) وقال تعالى (وما هذه الحياة الدنيا إلاّ لعبٌ ولهوٌ وأن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون). وهذا التفكُّر يثمر لك الزُهد في الدنيا والرغبة في الآخرة. ومنها أن تتفكَّرَ في نزول الموت وحصول الحسرة والندامة بعد الفوت، قال اللّه تعالى (قُل إنَّ الموتَ الذي تفرّون منه فإنه مُلاقيكم ثم تُردَّون الى عالِم الغيب والشهادة فينبِّئُكم بما كنتم تعملون) وقال تعالى (حتى إذا جاء أحدهم الموتَ قال ربِّ أرجعونِ لعلّي اعمل صالحاً فيما تركتُ) كلاّ إنها كلمةٌ هو قائلها، وقال تعالى (يا أيُّها الذين آمنوا لاتُلهِكم أموالكم ولا أولادكم عن ذِكرِ اللّه... الى قوله ولن يؤخِّر اللّه نفساً إذا جاء أجَلُها).

وفائدة هذا التفكُّر قصر الامل وإصلاح العمل وإعداد الزاد ليوم المعاد. ومنها ان تتفكر في الأخلاق والأعمال التي وصف اللّه بها أولياءه وأعداءه وفيما وعد اللّه للفريقين من الخير العاجل والآجل، قال اللّه تعالى (إنَّ الابرار لَفي نعيم وإنَّ الفجار لَفي جحيم) وقال تعالى (أفَمَن كان مؤمناً كمَن كان فاسقاً لايستوون) وقال تعالى (فأمّا مَن أعطى واتَّقى وصدّق بالحُسنى فسنيسِّرهُ لليُسرى) الى آخر السورة، وقال تعالى (إنَّما المؤمنون الذين إذا ذُكر اللّه وجلَت قلوبهم... الى قوله تعالى لهم مغفرةٌ ورزقٌ كريم) وقال تعالى(وعدَ اللّهُ الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات لَيَستخلفنَّهُم في الأرض كما استخلَفَ الذين من قبلهم) وقال تعالى (فكُلاً أخذنا بذنبه فمنهم مَن

ارسلنا عليه حاصباً ومنهم مَن أخذته الصيحة ومنهم مَن خسفنا به الأرض ومنهم مَن أغرقنا وما كان اللّه ليظلمهم ولكن كانوا انفسهُم يظلمون) وقال تعالى (المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمُنكر وينهَون عنَ المعروف... الى قوله تعالى ولعنهم اللّه ولهم عذابٌ مقيم) وقال تعالى (والمؤمنين والمؤمنات بعضهم أولياءُ بعضٍ يأمرون بالمعروف وينهَون عن المُنكر... الى قوله تعالى ورضوان من اللّه اكبر ذلك هو الفوزُ العظيم) وقال تعالى (إنَّ الذين لايَرجُون لقاءنا ورَضوا بالحياةِ الدُنيا واطمأنّوا بها... الى قوله وآخر دعواهم أنِ الحمدُ للهِ ربِّ العالمين).

وثمرة هذا التفكُّر محبة السعداء وحملُ النفسِ على العمل باعمالهم والتخلُّق بأخلاقهم وبُغضُ الأشقياء وحملُ النفسِ على اجتناب اعمالهم واخلاقهم. وإن ذهبنا نتبع مجاري الفكر خرجنا عن المقصود من الايجاز، وإيّاك والتفكُّر في ذات اللّه تعالى وصفاته من حيث تطلُّب الماهية وتعقُّل الكيفية وقل ما ولع بذلك احدٌ إلاّ وهوى في مَهاوي التعطيل وتورَّط في وطارَت التشبيه، وقد رُوي مرفوعاً الى رسول اللّه ﷺ: "تفكَّروا في آيات اللّه ولاتتفكَّروا في اللّه فإنكم لن تقدِّروه حقَ قَدرِه".

فهذا ما قصدنا ذكرَهُ من آداب هذه الوظائف ومقصود الذكر وروحه إنما هو الحضور مع اللّه فيه. ولما كان هذا لايحصل للمريد إلاّ مع صفاء الباطن وصفاء الباطن ثمرة الجوع ونتيجته فإن الباطن إذا إمتلأ خمدت الفكرة وهاجت الوساوس وتكاسلت الاعضاء وتقاعدت عن انواع الطاعات كلِّها مِن ذِكرٍ وصلاةٍ وتلاوة قرآنٍ وغير ذلك، حثَّ الشيخ رضي اللّه عنه عليه بقوله:

عليك بالجوع، أي إلزمه نفسك واجعله شعارك ودثارك في ليلك ونهارك فإنه جِبِلّةُ أهل الحق ومفتاح الفتوح والصدق، وهو احد أركان المجاهَدة وبسببه تنفجر ينابيع الحكمة لأهل السلوك. وهو صفات أهل الحقيقة قال اللّه تعالى (ولنَبلونَّكم بشيءٍ من الخوف والجوعِ) ثم قال في آخر الآية (وبَشِّرِ الصابرين) أي وبشِّر الصابرين على الخوف والجوع. وقال تعالى (ويؤثرون على انفسهم ولَو كان بهم خَصاصة). وكان النبي ﷺ يبقى اياماً لايأكل شيئاً. وعن أنس بن مالك أنه حدّثه قال: جاءت فاطمة بكسرة خبزٍ لرسول اللّه صلى اللّه ﷺ فقال: "ما هذه الكسرة يا فاطمة، قالت قرصٌ خَبزتُهُ ولم تَطِب نفسي حتى اتيتك بهذه الكسرة. فقال أما إنه أول طعام دخلَ فم

ابيك منذ ثلاثة ايام" وفي بعض الروايات جاءته فاطمة بقرص من شعير. وكان سهل بن عبدالله لاياكل الطعام إلاّ كلَّ خمسة عشر يوماً فإذا دخل رمضان لاياكل حتى يرى هلال شوال وإنما يفطر كل ليلة على الماء وحده وكان يقول: جعل الله في الشَبَعِ الجهل والمعصية وفي الجوع العلم والحكمة. وكان رحمه الله إذا اكل ضَعُفَ واذا جاع قَويَ. وقال عبدالعزيز بن عمر: جاع صنف من الطير أربعين صباحاً ثم طاروا في الهواء ورجعوا بعد ايام ورائحة المسك تفوح منهم، وقال الإمام القشيري رحمه الله تعالى: لايبعد أنهم وصلوا الى الجنة. وقال أبو سليمان الداراني: مفتاح الآخرة الجوع. قال يحي بن معاذ: الجوع نور والشبع نار. وقال الإمام أبو بكر بن فورك: هَمُّ العيال نتيجة متابعة الحلال فكيف تكون نتيجة متابعة شهوة الحرام. وقال أبو علي الروزبادي: إذا قال الصوفي بعد خمسة أيام انا جائع فألزموه السوق وامروه بالكسب. وقيل للربيع قد غلا السعر فقال: نحن اهون على الله من أن يُجيعنا إنما يُجيعُ اولياءَهُ. وقال الأستاذ أبو علي: قام فقير في مجلس يطلب شيئاً فقال اني جائع منذ ثلاثٍ فصاح عليه بعض المشايخ وقال إن الجوع سرٌّ الله وهو لايضع سرَّهُ عند من يحمله الى مَن يريد. وقال أبو تراب النخشي: ما تمنت نفسي إلاّ مرّة واحدة تمنت عليَّ خبزاً وبيضاً وأنا مسافر، فدخلت الى قرية لطلب الخبز والبيض فوثب رجل وتعلّق بي وقال لقومه هذا كان معهم فبطحوني وضربوني سبعين سوطاً، فمر بي رجل فعرفني فخلّصني منهم وعرّفهم بي فإعتذروا لي وادخلني رجل منهم الى منزله وقدّم لي خبزاً وبيضاً، فقلت لنفسي كلي شهوتك بعد سبعين جلدة. وقيل أن أبا تراب رحمه الله تعالى أكل من البصرة الى مكة أكلةً واحدة. ونقل شيخنا الشيخ عبدالله الشرقاوي في شرحه عن الشيخ الاكبر رضي الله عنه قال ما حاصله: والجوع المطلوب للسالكين هو جوع الاختيار لتقليل فضول الطمع ولطلب السكون عن الحركة الى الحاجة، فإن علا عن ذلك فلطلب الصفة الصمدية وحدهُ عندنا صوم يوم فإن زاد فإلى السَحَر هذا هو الجوع المشروع الاختياري، وما لنا طريق الى الله الأعلى الوجه المشروع ولولا أن الله تعالى عرف إن المصلحة في ذلك لعموم خلقه لَمَا وقّته بهذا الحدّ، فلا يكون الإنسان في الزيادة عليه أعلم بمصالح نفسه من ربه فإن ذلك غاية سوءُ الأدب معه تعالى، نعم إن كان ممن يَطعم ويسقى في بيته ويلقى أثرَ ذلك في قوته وصحة عقله وحفظ مزاجه فليواصل ماشاء فإنه ليس بصاحب

جوع، وكذا إن كان ممن يستغرقه حال يحول بينه وبين الطعام فإن كان صاحب فائدة كأبي عقال فمطلوب وإلاّ فهو مرض يَسأل الاطباء عن حاله، وهذا ليس مطلب القوم.

وأما جوع الأكابِر فجوع اضطراري، فإنَّ نتيجة الجوع الاختياي قد حصلت لهم على سبيل المَلَكة فلا تزول عنهم في حال جوع ولا شبع، فلم يبق إلاّ القليل من الحلال إما للنشاط على العبادة وإما لقلّة الحساب. قال ﷺ: **"إنكم تسألون عن نعيم هذا اليوم ولم يكن سوى تمر"** ولم يُدخِل نفسه ﷺ في الجماعة لأن للّه عباداً سليمانيين يقول اللّه تعالى لهم كما قال لسليمان هذا عطاؤنا فامنُن أو أمسك بغير حساب، وهم سبعون الفاً في هذه الأمة قد نعتهم النبي ﷺ وعدَّ عُكاشة منهم كما مرّ. فينبغي للصالح السالك ان لايزيد على الجوع المشروع فيكون متبعا والإتباع هو الاصل فيه فإنَّ وجودنا تبعٌ لوجود من اوجَدَنا. وقد اجمع العلماء وأهل اللّه على أن المراد من قوله ﷺ: **"إن الشيطان يجري من إبن آدم مجرى الدم فسُدّوا مجاريه بالجوع والعطش"** أي الصوم والتقليل من الطعام في السحور. فلا ينبغي الجوع من غير صوم لأنه غير طريق مشروع وان غلطَ فيه بعض أهل الطريق الذين يجوِّعون تلامذتهم أو يصوِّمونهم ثم يطعمونهم قبل غروب الشمس فهذا غلط وإن قصدوا به مخالفة النفوس، بل الذي ينبغي ان تخالفوها في تعيين المأكول على حدٍّ مخصوص ووجه معين وميزان مستقيم يعرفه أهل اللّه تعالى، فإذا مالت الى طعام مخصوص معين عندها ردها الى غيره حتى لاتكره شيئاً من نعم اللّه تعالى. ولقد عملتُ على هذا أزماناً حتى طاب لي كل شيء كنت لا اقدر على اكله وتمجُّهُ نفسي، وكذلك في التقليل من الطعام فإن اشدّ ما يكون على النفس ان تشرع في الشيء فيُحالُ بينها وبينه. وقد ذكرَ الغرالي في إحيائه نبذةً في فضائل الجوع إن اردت ان اذكُر شيئاً من ذلك فمن ذلك ما رواه عن رسول اللّه ﷺ أنه قال: **"جاهِدوا انفسكم بالجوع والعطش فإن الأجر في ذلك كأجرُ المجاهد في سبيل اللّه وأنه ليس مِن عمل احبُّ الى اللّه من جوع وعطش"** وقال ابن عباس قال النبي صلى اله عليه وسلم: **"لا يدخل ملكوت السموات والارض مَن ملأ بطنه"** وقيل يارسول اللّه أيُّ الناس أفضل قال: **"مَن قلَّ مَطعمُهُ وضحكهُ ورضيَ بما يسترُ به عورته"**. وقال النبي ﷺ: **"سيدُ الأعمال الجوع وذلُّ النفس لباس الصوف"**.

وقال أبو سعيد الخدري رضي اللّه عنه قال رسول اللّه ﷺ: **"إلبسوا واشربوا وكلوا**

أنصاف البطون فإنه جزءٌ من النبوة" وقال الحسن قال النبي ﷺ: "التفكُّر نصف العبادة وقلّة الطعام هي العبادة" وقال ﷺ: "إنَّ اللّه تعالى يباهي الملائكة بمَن قلّ مَطعمُه ومَشربُه في الدنيا يقول اللّه تعالى انظروا الى عبدي ابتليته بالطعام والشراب في الدنيا فصبر وتركهما إشهدوا يا ملائكتي ما مِن أكلَةٍ يدعها إلاّ أبدلَته بها درجات في الجنة" وقال ﷺ: "لا تُميتوا القلوب بكثرة الطعام والشراب فإن القلب كالزرع يموت إذا كثر عليه الماء" وقال ﷺ: "ما ملأ ابن آدم وعاءً شراً من بطنه حسبُ ابن آدم لُقيمات يُقمن صُلبه وإن كان لابد فثُلثٌ لطعامه وثُلثٌ لشرابه وثلثٌ لنَفَسه" وروى الحسن عن ابي هريرة ان رسول اللّه ﷺ قال: "إلبَسو الصوف وشمِّروا وكلوا بأنصاف البطون تدخلوا في ملكوت السماء" وقال عيسى عليه السلام: "يا معشر الحواريين أجيعوا أكبادكم وأعروا اجسادكم لعل قلوبكم ترى اللّه عزوجل" وقيل مكتوب بالتوراة ان اللّه عزَّ وجلّ ليبغض الحَبرَ السمين لأن السمن يدلُّ على الغفلة وكثرة الأكل وذلك قبيح خصوصاً بالحَبر، ولأجله قال ابن مسعود رضي اللّه عنه ان اللّه تعالى يبغض القاريء السمين من الشبع. وفي خبر مرسل إن الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مجاريه بالجوع العطش.

وفي الخبر ان الأكل على الشبع يورث البرص. وقال ﷺ: "المؤمن يأكل في معاء واحد والكافر يأكل في سبعة أمعاء أي يأكل سبعة أضعاف ما يأكل المؤمن أو تكون شهوته سبعة أضعاف شهوته، ويكون المِعاء كناية عن الشهوة لأن الشهوة هي التي تقبل الطعام وتأخذه كما يأخذه المعاء وليس المعنى زيادة معاء الكافر على معاء المؤمن. وروى الحسن عن عائشة رضي اللّه عنها قالت سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: "أديموا قرع باب الجنة يُفتح لكم، قلت وكيف نُديمُ قرع باب الجنة، قال بالجوع والظمأ" وكانت عائشة رضي اللّه عنها تقول ان رسول اللّه ﷺ لم يمتليء قط شَبعاً وربما بكيت رحمةً له مما ارى به من الجوع فأمسحُ بطنه بيدي واقول نفسي لك الفداء لو تبلّغت من الدنيا بقدر ما يقويك ويمنعك من الجوع، فيقول: "يا عائشة إخواني من أولي العزم من الرسل قد صبروا على ما هو اشد من هذا فمضوا على حالهم فقَدموا على ربهم فاكرم مآبهم واجزل ثوابَهم فأجدني استحي إن ترفهت في معيشتي أن يُقصر بي غدا دونهم فالصبر أياما يسيرة احبُّ إليَّ مِن ان ينقص حظي غداً في الآخرة وما مِن

شيء احبُّ إلي من اللحوق باصحابي وإخواني" قالت والله ما استكمل بعد ذلك جمعة حتى قبضه الله إليه.

وقال عمر رضي الله عنه: إياكم والبِطنة فإنها ثقل في الحياة نَتَن في الممات. وقال شقيقٌ البلخي: العبادة حرفة حانوتها الخلوة وآلتها المجاعة. وقال لقمان لإبنه: يا بُني إذا إمتلأت المعدة نامت الفكرة وخرست الحكمة وقعدت الاعضاء عن العبادة. وكان الفضيل يقول لنفسه أي شيء تخافين؟ أتخافين أن تجوعي؟ لاتخافي أنت أهون على اللّه من ذلك وإنما يجوع محمد ﷺ واصحابه. وكان كهمسٍ يقول: إلهي أجعتني وأعريتني وفي ظلم الليالي أجلستني فبأيّ وسيلة بلغتني ما بلغتني. وكان فتح الموصلي إذا اشتد مرضه وجوعه يقول: إلهي إبتليتني بالمرض والجوع وكذلك تفعل باوليائك فبأيّ عمل أؤدي شكر ما انعمت عليّ. وكان سهل التستري يطوي نيفاً وعشرين ليلة لايأكل وكان يكفيه لطعامه في السنة درهم، وكان يعظّم الجوع ويبالغ فيه حتى قال لايوافي القيامة عمل برٍّ أفضل مِن ترك فضول الطعام إقتداءً بالنبي ﷺ في أكله وقال: لم يرَ الأكياس شيئاً أنفَعَ من الجوع في الدنيا والدين. وقال: لم أعلم شيئاً أضَرَّ على طلاب الآخرة من الأكل. وقال: ما عُبِدَ اللّه تعالى بشيء أفضل من مخالفة الهوى في الشبع. وقال: ما عُبدَ الله بشيء أفضل من مخالفة الهوى بترك الحلال. وقال:ما صار الأبدالُ أبدالاً إلاّ بإخماص البطون والصمت والسهر والخلوة. وقال: رأس كلُ برٍّ نزل من السماء الى الارض الجوع رأس كل فجور بينهما الشبع. وقال: من جَوَّعَ نفسه إنقطعت عنه الوساوس. وقال: إقبال اللّه عزّوجل على العبد بالجوع والسقم والبلاء إلاّ مَن شاء اللّه. وقال: إعلموا إن هذا زمان لاينال احد فيه النجاة إلاّ بذبح نفسه وقتلها بالجوع والسهر والجهد. وقال: ما على وجه الارض احد يشرب من هذا الماء حتى يروي فيسلم من المعصية وإن شكر اللّه تعالى، فكيف الشبع من الطعام.

وسُئِلَ حكيم بأي قيد تُقيّدُ النفس؟ فقال: قيّدها بالجوع والعطش، وذلِّلها بإخماد الذكر وترك العز، وصغِّرها بوضعها تحت أرجل ابناء الآخرة، واكسرها بترك زي الاغنياء، وانجُ من آفاتها بدوام سوء الظن بها، واصحبها بخلاف هواها. وكان عبدالرحمن ابن زيد يقسم باللّه تعالى ما صافى اللّه تعالى أحداً إلاّ بالجوع، ولا مَشوا على الهوى ولا طُويت لهم الارض إلاّ بالجوع، ولا والاهم اللّه تعالى إلاّ بالجوع. وروي

ان عيسى عليه السلام مكث يناجي ربه ستين صباحاً لم ياكل، فخطر بباله الخبز فإنقطع عن المناجاة فإذا الرغيف موضوع بين يديه، فجلس يبكي على فقد المناجاة واذا بشيخ قد اظله فقال له عيسى: بارك اللّه فيك يا ولي اللّه ادعُ اللّه لي فإني كنت في حالة فخطر ببالي الخبز فإنقطت عني، فقال الشيخ: اللّهم إن كنت تعلم ان الخبز خطر ببالي منذ عرفتك فلا تغفر لي.

(فإن قلت) هذا الفضل العظيم للجوع من اين هو وما هو سببه وليس فيه إلاّ إيلام المعدة ومقاساة الأذى فإن كان كذلك فينبغي أن يعظم الآجر في كل ما يتأذى به الإنسان من ضرّه لنفسه وقطعه للحمه وتناوله الاشياء المكروهة وما يجري مجراه؟ فاعلم في الجواب أن هذا يضاهي قول مَن شرب دواءً فانتفع به وظن ان منفعته لمرارة الدواء كراهته فأخذ يتناول كلما يكرهه من المذاق وهو غلط، بل نفعه في خاصته من الدواء وليس لكونه مرّا وإنما يقف على تلك الخاصية الاطباء. فكذلك لايقف على علة نفع الجوع إلاّ سماسرة العلماء ومَن جوَّعَ نفسه مصدِّقا لما جاء في الشرع من مدح الجوع انتفع به وان لم يعرف علة المنفعة كما إن مَن شرب الدواء انتفع به وإن لم يعلم وجه كونه نافعاً، ولكننا نشرح لك ذلك إن أردتَ أن ترتقي من درجة الإيمان الى درجة العلم، قال اللّه تعالى (**يرفع اللّه الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات**). فنقول في الجوع عشر فوائد:

(الأُولى صفاء القلب) وإيقاد القريحة وإنفاذ البصيرة فإن الشبع يورث البلادة ويُعمي القلب ويُكثِر البخار في الدماغ تشبه السكر حتى يحتوي على معادن الفكر فيثقل القلب بسببه عن الجريان في الافكار وعن سرعة الإدراك، بل الصبي إذا أكثرَ الأكل بطُلَ حفظهُ وفسدَ ذهنه وصار بطيء الفهم والإدراك. قال أبو سليمان الداراني: عليك بالجوع فإنه مَذَلّةٌ للنفس ورقّةٌ للقلب، وهو يورث العلم السماوي. وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "**أحيوا قلوبكم بقلة الضحك وقلة الشبع وطهِّروها بالجوع تصفو وترقّ**". ويقال مَثلُ الجوع مَثلُ الرعد ومَثلُ القناعة مَثلُ السحاب والحكمة كالمطر. وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "**مَن أجاع بطنه عظمت فكرته وفطِن قلبه**".

وقال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "**مَن شبِعَ ونام قسى قلبه**" ثم قال: "**لكل شيء زكاة وزكاة البدن الجوع**". وقال الشبلي: ما جعتُ لله يوماً إلاّ رأيت في قلبي باباً مفتوحاً

من الحكمة والعبرة ما رايته قط. وليس يخفى أن غاية المقصود من العبادات الفكر الموصل الى المعرفة والإستبصار بحقائق الحق والشبع يمنع منه والجوع يفتح بابه، والمعرفة باب من ابواب الجنة فبالحَريّ أن تكون مُلازَمةُ الجوع قرعاً لباب الجنة، ولهذا قال لقمان لابنه: يا بني إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة وخرست الحكمة وقعدت الاعضاء عن العبادة. وقال النبي ﷺ: **"نور الحكمة الجوع والتباعد من اللّه تعالى الشبع والقربة الى اللّه عزَّ وجلّ حبُّ المساكين والدنوّ منهم"**.

(الفائدة الثانية) رِقّةُ القلب وصفائه الذي به يتهيأ لإدراك لذة المناجاة والتأثر بالذِكر، فكم من ذِكر يجري على اللسان مع حضور القلب ولكن القلب لايلتذُّ به ولايتأثر حتى كان بينه وبينه حجاباً من قساوة القلب. وقد يرِقُّ في بعض الاحيان فيعظم تأثره بالذِكر وتلذُّذه بالمناجاة وخلوِّ المعدة هو السبب الأظهر فيه. وقال أبو سليمان: أحلى ما يكون لي العبادة إذا التصق ظهري ببطني. وقال الجُنيد: يجعل أحدهم بينه وبين صدره مِخلاة من الطعام ويريد ان يجد حلاوة المناجاة. وقال أبو سليمان: إذا جاع القلب وعطش صفا ورَقَّ، واذا اشبع عميَ وغلُظ، فإذا تأثر القلب بلذة المناجاة امر وراء تيسير الفكر واقتناص المعرفة فهي فائدة ثانية.

(الفائدة الثالثة) الإنكسار والذل وزوال البطر والفرح والإشر الذي هو مبدأ الطغيان والغفلة عن اللّه تعالى. فلا تنكسر النفس ولاتَذِلُّ بشيء كما تَذِلُّ بالجوع، فعنده تسكن لربها وتخشع له وتقف على عجزها وذلِّها. فسعادة الإنسان في ان يكون دائماً مشاهداً نفسه بعين الذل والعجز ومولاه بعين العزِّ والقدرة والقهر. فليكن دائماً جائعاً مضطراً الى مولاه مشاهداً للإضطرار بالذوق ولأجل ذلك لما عُرضت الدنيا وخزائنها على النبي ﷺ فاعرض وقال: لا بل اجوع يوماً واشبع يوماً فإذا جعت صبرت وتضرعت واذا شبعت شكرت. أو كما قال. فالبطن والفَرج باب من ابواب النار واصله الشبع. والذل والانكسار باب من ابواب الجنة واصله الجوع، ومَن اغلق باباً من ابواب النار فقد فتح باباً من ابواب الجنة بالضرورة لأنهما متقابلان كالمشرق والمغرب، فالقرب من احدهما بُعدٌ من الآخر.

(الفائدة الرابعة) أن لاينسى بلاء اللّه وعذابه ولاينسى أهل البلاء فإن الشبعان ينسى الجائع وينسى الجوع،والعبد الفَطِن لايشاهد بلاءً من غيره إلاّ ويتذكر بلاء الآخرة، فذِكر

من عطشه عطشَ الخَلق في عرصات القيامة، ومن جوعه جوع أهل النار حتى إنهم ليجوعون فيُطعمون الزقّوم الضريع ويُسقون الغسّاق والمُهل. فلا ينبغي ان يغيب عن العبد عذاب الآخرة وآلامها فإنه الذي يهيج الخوف، فمَن لم يكن في ذلة ولا علة ولا قلّة ولا بلاء نسيَ عذاب الآخرة ولم يتمثّل في نفسه ولم يغلب على قلبه. فينبغي ان يكون العبد في مقاساة بلاء أو مشاهدة بلاء، واولى ما يقاسيه من البلاء الجوع فإن فيه فوائد جمة سوى تذكُّر عذاب الآخرة، وهذا احد الأسباب الذي اقتضاه اختصاص البلاء بالأنبياء والاولياء والأمثل فالأمثل.

(الفائدة الخامسة) وهي من اكبر الفوائد كسرُ شهوات المعاصي كلُّها والاستيلاء على النفس الأمّارة بالسوء، فإن منشأ المعاصي كلّها الشهوات والقِوى ومادة القِوى والشهوات لا محالة الأطعمة فتقليلها يضعف كل شهوة وقوة، وإن السعادة كلها في أن الرجل يملك نفسه، وكما انك لاتملك الدابة الجموح إلاّ بضعف الجوع فإذا شبِعَتْ قويت وشردت وجمحت، فكذلك النفس ولهذا قال ذو النون: ما شبعت قط إلاّ عصيت أو هممت بمعصية. وقالت عائشة رضي اللّه عنها أول بدعة أُحدثت بعد رسول اللّه ﷺ الشَبع إن القوم لما شبعت بطونهم جمعت بهم نفوسهم الى الدنيا، وهذه ليست فائدة واحدة بل خزانة الفوائد ولذلك قيل الجوع خزانة من خزائن اللّه تعالى واول ما يندفع بالجوع شهوة الفَرج وشهوة الكلام، فإذا شبع الرجل لم يملك فرجه وإن منعه التقوى فلا يملك عينه فالعين تزني كما ان الفَرج يزني، وان ملك عينه بغض الطرف فلا يملك فكره فيخطر له من الافكار الرديئة وحديث النفس بأسباب الشهوة ما تشوش به مناجاته وربما عرض له ذلك في اثناء صلاته. قال حكيمٌ: كل مريد صبر على السياسة فصبر على الخبز البحت سنة لايخلط به شيئاً من الشهوات ويأكل في نصف نصف بطنه رفع اللّه عنه مؤونة النساء.

(الفائدة السادسة) تيسير المواظبة على العبادة فإن الأكل يمنع من كثرة العبادات لأنه يحتاج الى زمان يشتغل فيه بالأكل وربما يحتاج الى زمان في شراء الطعام وطبخه ثم يحتاج الى غسل اليد والخِلال ثم يكثر تردداه الى بيت الماء لكثرة شربه والأوقات المصروفه الى هذا لو صرفها الى الذكر والمناجاة وسائر العبادات لكثر ربحه. قال السَري: رأيت لعلي الجرجاني سويقاً يستف منه فقلت: وما دعاك الى هذا؟ فقال: اني

حسبت ما بين المضغ الى الاستفاف سبعين تسبيحة فما مضغت الخبز أربعين سنة.

(الفائدة السابعة) يستفيد من قلة الأكل صحة البدن ودفع الامراض فإن سببها كثرة الأكل وحصول فضلة الأخلاط في المعدة والعروق، ثم المرض يمنع من العبادات ويشوش القلب ويمنع من الذكر والفكر وينغص العيش ويحوج الى الفصد والحجامة والدواء والطبيب، وكل ذلك يحتاج الى مؤن ونفقات لايخلُ الإنسان منها بعد التعب عن انواع من المعاصي وإقتحام الشهوات وفي الجوع ما يمنع عنه ذلك.

(الفائدة الثامنة) خفة المؤونة فإن من تعوّد قلة الأكل كفاه من المال قدر يسير، والذي تعوّد بالشبع صار بطنه غريماً ملازما له آخذ بمخنقه في كل يوم فيقول ماذا آكل اليوم، فيحتاج الى أن يدخل المداخل فيكتسب من الحرام فيعصي، أو من الحلال فيذلّ وربما احتاج ان يمد عين الطمع الى الناس وهو غاية الذلّ والقماءة والمؤمن خفيف المؤونة.

(الفائدة التاسعة) أن يتمكن من الإيثار والصدقة بما فضل من الاطمعة على اليتامى والمساكين فيكون يوم القيامة في ظل صدقته كما ورد الخبر به، ومايأكله فخزانته الكنيف وما يتصدق به فخزانته فضل اللّه تعالى.

(الفائدة العاشرة) دفع النوم ودوام السهر فإن مَن شبع شرب كثيراً ومن كثر شربه كثر نومه ولأجل ذلك كان بعض الشيوخ يقول عند حضور الطعام معاشر المريدين لاتاكلوا كثيراً فتشربوا كثيراً فتخسروا كثيراً. وأجمع رأي سبعين صدّيقاً على أن كثرة النوم من كثرة الشرب المسببة عن كثرة الأكل، ولهذا اعقب الشيخ رضي اللّه عنه الحضّ على الجوع بالنهي عن كثرة النوم عاطفاً قوله:

وإيّاك وكثرة الهجوع. على ما تقدم عطف مسبب على سببه ولازم على ملزومه والهجوع النوم، قال تعالى (**كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون**) والسهر احد أركان الطريقة الاربعة التي تصير بها الأبدال ألا وهي السهر، والجوع، والصمت، والعزلة. وقد إستوفاها الشيخ رضي اللّه عنه على هذا النسق والترتيب المذكور.والنوم حالة طبيعية يتعطل منها القوى بسبب ترقّي البخارات الى الدماغ. آه.

وقال الشعراني قدَّس اللّه سره في (ميزان الذرية): وأعلم ان حقيقة النوم أنه برزخ بين الحياة والموت فالنائم لا حي ولا ميت، وله وجه للموت ووجه للحياة فهو أخو الموت

من وجه واحد لا من الوجهين. قال اللّه تعالى (**وجعلنا نومكم سُباتاً**) يعني راحةً لكم ولتألفوا حالكم في البرزخ، فإن حالكم فيه كالنوم في الصورة. قال شيخنا رضي اللّه عنه: ومحل النوم ما تحت فلك الكواكب فلك القمر خاصة، فالملك لا رؤيا له لأن نشأته غير عنصريته هذا حكم الدنيا، وأما في الآخرة فمكان الرؤيا ما تحت مقعر فلك الكواكب الثابتة، ولذلك كان أهل النار ينامون في بعض الأوقات نسأل اللّه العافية آه. وفي الحديث النوم أخو الموت ولايموت أهل الجنة. وفيه اشارة الى ذم كثرة مفاسده الآخروية بل والدنيوية فإنه يورث الغفلة والنسيان وفساد المزاج الطبيعي والنفساني ويُكثِر البلغم والسوداء ويضعف المعدة وينتن الفم ويولد دود القرح، ويُضعف البصر والباه حتى لايكون له داعية للجماع، ويفسد الماء ويورث الأمراض المزمنة في الولد المتخلق من تلك النطفة حال تكوينه، ويضعف الجسد هذا في النوم في غير وقت العصر والصبح، أما فيهما فأعظم ضرراً لأنه يفيد كيموس صحة حكم عين المزاج المأوى والصورى لايمكن إستقصاء مفاسده في العقل والنفس والروح ومنها: أنه يورث ضعف الحال بحكم الخاصية وعدم الايمان بالبعث والنشور. وقال بعضهم إيّاكم وكثرة النوم تبعاً لماترونه من بعض العارفين فإن لهم احكاماً خلافكم فإن بعضهم يخلعُ اللّهُ تعالى عليه القوة على خلع نفسه عنه متى شاء وسراحها الى اي وجه من غير ارتباط بعالم الخيال.

واعلم ان نوم العارفين من جملة اورادهم وعندهم كل نوم لايصحبه الوحي لايُعول عليه، وهذا الملتقي خيال والنازل كذلك والوحي كذلك، وثم من الوحي ما يكون خيالاً في حسّ على غير ذي حسّ ومنه ماهو بمعنى يجده المُوحى اليه في نفسه من غير تعلّق حس ولاّ خيال لمن نزل به. وقد يكون كناية ويقع كثيراً من الاولياء كما جرى لأبي مدين الغوث لما حضر له فراق زوجته وجد ثوبه مكتوباً أمسك عليك زوجك. وبعضهم لايجده إلاّ بعد القيام من النوم مكتوباً في ورقة وهو اضعف الجماعة وله ضروب أُخَرْ غير هذه وطرائق شتى، والمراد منه الإلهام المختص بالاولياء. ويُطلق في عرف اللغة الوحي عليه كما في قوله تعالى (**وأوحى ربك الى النحل**).

واذا نام العارف طاهر القلب من حب الدنيا ودنس الحقد والاوصاف الذميمة طاهر الظاهر تائباً من كل ذنب فإنه لايدري أتعود روحه الى هذا العالم أم تُمسك على الهيئة المسنونة المستأنسة، فإن اللّه يكرمه غالباً ويفيده علوماً لم تكن عنده. وأما الأكابر فإن

مناماتهم لاتكاد تصح لئلا يقف عندهم رحمة من اللّه بهم، والبعض من ارباب التحقيق ممن علم اللّه منهم عدم الوقوف والشفوف لايختلف عليهم رؤياهم واذا أُكرِموا فيها بكشف عن امر جاء كفلق الصبح وإفادة علم بإخفاء كل قبح، ولذا قال أبو الحسن على الشاذلي قدَّس اللّه سره الملي: لاتوقظوني من ورِدي. فلهم في نومهم علوم يستفيدونها من ربهم واسرار يشاهدونها، وقد انشد الحاتمي قدَّس اللّه سره في أول باب تسع وتسعين في معرفة النوم وأسراره:

النوم جامع امرٍ ليس يجمعه غير المنام فـفكر فيه واعتبر

إنّ الخيال له حكم وسلطنة على الوجودَين مِن معنى ومن صور

وليس يُدرك في غير المنام ولا تبدو له صورة في حضرة الصور

تختص بالصاد لا بالسين حضرته فهو المحيط بما في الكون من صور

ومن لايكيف يأتي النوم يحصره بالكيف والكم بالتحديد للغير

ثم قال: النوم حالة تنقل العبد من مشاهدة عالم الحِسّ الى عالم البرزخ وهو اكمل العوالم لا أكمل منه، هو اصل مصدر العالم والوجود الحقيقي والتحكم في الامور كلها بتجسد المعاني ويرد ما ليس قائماً بنفسه وما لا صورة له يجعل له صورة ويرد المحال ممكناً ويتصرف في الوجود كيف شاء، فإذا كان له هذا الإطلاق وهو خلق مخلوق لله تعالى، فما ظنك بالخالق سبحانه وتعالى الذي خلقه وأعطاه هذه القوة؟ فكيف تريد ان تحكم على اللّه تعالى بالتقييد وتقول ان اللّه تعالى غير قادر على المحال وتشهد من نفسك قدرة الخيال على المحال؟ والخيال خَلق من خَلق اللّه ولاتشُك فيما تراه من المعاني التي جسّدها لك وأراكَ إيّاها أشخاصاً قائمة. فكذلك يأتي اللّه باعمال بني آدام مع كونها اعراضاً صوراً قائمة توضع في الموازين لإقامة القسط، ويأتي بالموت وهو نسبة لا عرض له بَيِّن بل هو إقتراب على وجه مخصوص بين إثنين جسم وروح فيأتي به في صورة كبش أملح أو أبيض يريد أنه في غاية الوضوح، فيعرف جميع الناس أنه الموت فهذا محال مقدور، فأين حكم اللّه على العقل وفساد تأويله؟ وكذلك في نعيم الجنان في فواكه لا مقطوعة ولا ممنوعة، فيتناول مَن لا علم له يحمله على فصول السنة أن الفاكهة تنقضي بانقضاء زمانه ثم تعود في السنة الأخرى. وفاكهة الجنة دائمة التكوين لاتنقطع، هذا مبلغ علم في هذه المسئلة وهي عندنا كما قال تعالى (لا مقطوعة ولا

ممنوعة) فإن اللّه تعالى جاعلٌ لنا فيها رزقاً يسمي قطفا وتناولاً كما جعل لعالم الجن في العظام رزقاً وما نرى ينقص من العظم شيء، ونحن بلا شك نأكل من فاكهة الجنة قطوفاً دانية مع كون الثمرة في مواضعها من الشجرة مازال عينها لانها دار بقاء لما يتكون فيها فهي دار تكوين، وكذلك َسوقُ الجنة تدخل في أي صورة منها مع كوننا على صورتنا لاينكرنا احد من أهلها ولا من معارفها ونحن نعلم أنّا قد لبسنا صورة جديدة تكوينية مع بقائنا على صورتنا عند معارفنا وعند نفوسنا، فأين العقول والمعقول هنا؟

لايعرف اللّه الا اللّه فاعتبروا   ما عقلُ عينٍ كعقلٍ قلّدَ الفِكرا

ولما نزّه الحقُّ تعالى نفسه عن صفة النوم فقال (لا تأخذُه سِنةٌ ولا نوم) اي ما يغيب البرزخ عن شهود العالم الحِسّي من شهود المعاني الخارجة من المواد في حال عدم حصولها في البرزخ. وقد يمنح اللّه بعض عباده هذا الادراك مع كونه لايتصف بأنه لاينام -أعني في حالة الدنيا- ونشأتها. وأمّا في الآخرة فإنه لاينام أهل الجنة في الجنة ولايغيب عليهم شيء من العالم، بل كل العالم في مرتبته مشهود لهم مع كونهم غير متصفين بالنوم. آه.

كذا في شرح ورد السحر الكبير لشيخ شيخنا العارف باللّه تعالى سيدي مصطفى الصديق وقال في الكتاب المذكور نقلاً عن حلية الأبدال للشيخ الاكبر: والسهر سهران سهرُ العين وسهرُ القلب، فسهرُ القلب انتباهة من نومات الغفلات طلباً للمشاهدات، وسهرُ العين رغبةٌ في بقاء المشاهدة في القلب لطلب المسامرة، فإن العين إذا نامت بَطُل عمل القلب فإن كان القلب غير نائم مع نوم العين فغايته مشاهدة سهره المتقدم لا غير واما أن يلحظ غير ذلك فلا، فغايةُ السهر إستمرار عمل القلب وارتقاء المنازل العلية المخزونة عند اللّه تعالى، وحال السهر تعمير الوقت خاصة للسالك والمحقِّق غير أنّ المحقِّق في حاله زيادة تخلّق رباني لايعرفه السالك واما مقامه فمقام القيّومية، ثم نازع مَن قال بعدم التخلُّق فيها وحقَّق بأنّ الإنسان الكَامل لايبقى له في الحضرة الإلهية إسم إلاّ وهو حامل له آه. وعنه ﷺ: "تنامُ عيناي ولاينامُ قلبي" قال المناوي رحمه اللّه تعالى: لأن النفوس الكاملة القدسية لايضعف إدراكُها بنوم العين وإستراحة البدن ومن ثَم كان إذا نام لم يوقَظ لأنه لايدري ما هو فيه ولاينافيه نومه بالوادي عن الصبح لأن

رؤيتها وظيفة بصرية آه. ولهذا كان ينام حتى ينفخ ثم يقوم فيصلي ولايتوضأ إذ من خصائصه ﷺ أن وضوءه لاينقض بالنوم، وعنه ﷺ: **"أخشى ما خشيت على أمّتي كُبرُ البَطن ومداومة النوم والكسل وضعف اليقين"**. واعلم أنّ من السادة من لايتطلب إستيقاظاً ولا مناماً لأنه يشاهد فعل ربّه به فإن أنامه نام وإن أقامهُ قام، وبعضهم مَن تدعوه بعض العوالم النورانية للمنام ليدخل معها في عالمها حال تجرّده عن هذا العالم فلا يمكنه عدم إجابتها، وربما إذا دعوه وقصد السهر جاءه وارِد منام فأستولى عليه وله قهر، وربما تطلب بعض العوالم مضاجعته في فراشه ويبتغي ذلك لأجل حظه وانتعاشه، وبعضهم مَن يضرب الماء الكثير ولاينام لحرارة الفؤاد بالذِكر والهيام، وحكى مثل هذا السيد محمد مراد النقشبندي عن الملا عبدالرحمن الكابلي المقدام فقال: إنّ الملا عبدالرحمن يشرب الماء فوق العادة ولاينام وبعضهم مَن يتناوم وما به من نوم لأنه شاهد مطلوب فؤاده في خير ليلة أو يوم وأنشد:

رأيت سرور قلبي في منامي | فاحببتُ التناعُس والمناما

وبعضهم إذا نام ليلة عن خربة عوقب بسلب قلبه وربما رأى أثر ذلك في منامه ليتفرغ لصلاته وقيامه، كما حكى اليافعي في (**رياض الصالحين**) عن الشيخ ابي بكر الصديق رضي اللّه عنه قال: كان في جواري شاب حسن الوجه يصوم النهار ولايفطر ويقوم الليل ولاينام فجاءني يوماً وقال يا أستاذي إني نِمتُ عن وِردي الليلة فرأيت كأنّ محرابي قد إنشقَّ وكأنّي بجَوارٍ وقد خرجن من المحراب لم أر أحسن وجهاً منهنّ واذا فيهنّ واحدة شوهاء لم أرَ أقبح منها منظراً فقلت لمن أنتنّ ولمن هذه؟ فقلن نحن لياليك اللاتي مضين وهذه ليلة يومك ولو مُتَّ في ليلتك لكانت هذه حظك، ثم انشأت الشوهاء تقول:

أسال لمولاي يرددني إلى حالي | فأنت قبّحتني من بين أشكالي
لا تَرقُدَنَّ الليالي ما حييت فإن | نِمتَ الليالي فهنّ الدهر أمثالي
نحن السرور لمن نال السرور بنا | جوف الظلام بسكنى المنزل العالي
وقد أُريت بخير إذ وعظت بنا | فأبشِر فأنت من المولى على بال

قال فأجابتها جارية من الحسان تقول:

أبشرْ بخير فقد نلت الغنى أبداً | في جنة الخلد في روضات جنات
نحنَ الليالي اللواتي كنت تسهرنا | تتلو القرآن بترجيع ورَنّات

نحن الحسان اللواتي كنت تخطبنا   جوف الظلام بلَوعات وزفـــرات
أبشرْ فقد نلتَ ما ترجوه من مَلِكٍ   بَرٍّ يجود بأوصال وفرحـــــات
غـدَاً تراه تجلّى غـيـر مـحـتـجب   تدنو إليـه وتحظى بالتـحـيـات

قال: ثم شهق شهقةً خرَّ ميتاً رحمه اللّه ورضي عنا به. وحُكي في الكتاب المذكور أيضاً عن بعض العارفين قال: نمت عن خربي فرأيت جارية في المنام حسناء لم أرَ احسن منها وجهاً ولا أطيب منها ريحاً فناولتني رقعة في يدها وقالت إقرأ ما فيها، فقرأته فإذا هو شعر:

لذذت بنومـة من غـيـر عـيش   مع الولدان في غـرف الجنـــان
تعـيش مـخلَّداً لا مـوت فـيـهـا   وتبقى في الحِسـان مع الحِسـان
تيــقّظ من منامك فــأنَّ خـيــراً   من النوم التــهـجُّـد بالقـــرآن

قال: فاستيقظت مرعوباً فواللّه ماذكرتها قط بعد ذلك إلاّ طار نومي رضي اللّه عنه وأرضاه ونفعنا به. (فإن قلتَ) كم يكفي الإنسان من النوم في اليوم والليلة بحيث انه إذا تعدى ذلك يكون مضيعاً لوقته ومن جملة أهل السَرَف المؤدي الى التلف؟ (قلتُ) سمعت شيخنا المصنف رضي اللّه عنه يقول: راحة العين -يعني أن الإنسان يكفيه أن ينام في اليوم والليلة - سبعين درجة وهي أربع ساعات وثلثا ساعة فما زاد على ذلك فهو من حكم التوسع والفضول. قلت ولعل ذلك لغير أرباب الكدّ والتعب وأما أهل الكد والتعب فيكفيهم كما قال الغزالي ثلث اليوم ثمان ساعات في اليوم والليلة فما زاد على ذلك يعد سرفاً وتضييعاً للعمر في غير منفعة، وهو المذموم المنهي عنه وهو الذي اشار اليه المصنف رضي اللّه عنه بقوله وإيّاك وكثرة الهجوع، فإنه إنما حذّر من الكثرة. أمّا اصل النوم فإنه مما تقتضيه الطبيعة البشرية والجِبِلّة الإنسانية سيما إذا صحبته النيّة على سهر الليل فإنه يكون من جملة العبادات كما تقدم عن العارف باللّه ابي الحسن الشاذلي رضي اللّه عنه كان يقول لأصحابه: إذا نمت لاتوقظوني من وِردي آه.

واعلم أنه مما ينبغي إجتنابه النوم في نهار الشتاء لأن نوم النهار ما شُرِّع إلاّ للإستراحة والإستعانة على سهر الليلة الآتية وطول ليل الشتاء يغني عن ذلك بخلاف الصيف فإن ليله قصير ونهاره طويل فشُرّع النوم في نهاره للإستعانة على الليلة الآتية

والإستراحة من سهر الماضية. ومن كلام سيدي عبد العزيز الديريني رحمه اللّه تعالى: النوم قبل الزوال دواء للسهر الماضي وبعد الزوال دواء للسهر الآتي.

(**تنبيه**) قال سيدي عليّ الخوّاص رضي اللّه عنه: إيّاكم والنوم في الأوقات المنهي عن النوم فيها كنوم الإنسان من بعد صلاة الصبح الى طلوع الشمس وبعد صلاة العصر الى غروب الشمس، فمن فعل ذلك فقد عرض نفسه للهلاك إذ النوم في هذين الوقتين يؤثر بالخاصية في كل نائم الفساد سواء كان صحيح المزاج أو غير صحيحه. وقال سيدي أفضل الدين: النوم من بعد صلاة الصبح الى طلوع الشمس ومن بعد صلاة العصر الى غروب الشمس لا أقدرَ على وصف مفاسده في العقل والصفات الانسانية الروحانية أقلّها أنه يورث ضعف الحال بحكم الخاصية وعدم الايمان بالبعث والنشور وما يقارب ذلك من غير تعقّل لما يدفع عنه ذلك.

(**تنبيه**) آخر قال سيدي أفضل الدين: النوم الكثير في النهار يورث الغفلة والنسيان وفساد حكم المزاج الطبيعي والنفساني ويكثر البلغم والسوداء وينتن الفم ويولد دود القرح ويربي الغشاوة على العين ويضعف المعدة والباه على الفور حتى يصيّرهُ لايشتهي الجماع ويفسد المَني ويورث الامراض المزمنة في الولد المتخلّق من ذلك المَني حال تكوينه ويميت القلب من تعاطي أسباب الدنيا فضلاً عن اسباب الآخرة. قال أيضاً: ربما إستحكم في الإنسان كثرة النوم حتى يصير نومه مخالفاً لحكم نوم الطبيعة الذي جعله اللّه راحة للجسد ونشاطاً للنفس فيفسد على العبد صحة مزاجه الاصلي الذي خُلق عليه ويضعف نفسه الروحانية لكثرة إرتباطها بعالم الخيال وقلّة إرتباطها بجسدها المأمورة بمساعدته على ما لابد للعبد منه لاسيما إن كان الجسد مظلماً كثيفاً بالاعمال الخارجة عن السُنّة المحمدية فإنه يتركب من ذلك الارتباط فساد القوة الخيالية المصوِّرة للاشياء في مرآة العقل، فيصير لايشهد امراً إلاّ مقيداً مرتبطاً منعقداً.فإعلم أن النوم بالنهار مضر جداً إلا أن يكون في مثل ايام الصيف وقت القيلولة للإستعانة على قيام الليل كما ورد.

(**تنبيه**) آخر قال بعضهم: كثرة النوم من أكل الحرام فمن أكل الحلال قلّ نومه ومَن أكل الحرام كثر نومه. واعلم أن السهر إنما يُحمد شرعاً إذا كان منوطاً بالعبادة كتلاوة القرآن وذِكر اللّه تعالى والصلاة ونحو ذلك من انواع العبادات. أمّا إذا كان مصحوباً

بلغو الكلام وهذيان العوام كما هو متعارف في هذه الأعوام من اجتماع الناس في السهرات وتكلمهم بما دَبَّ ودرج من انواع الخرافات سيما إذا إشتمل على الغيبة والنميمة والبُهتان فذلك من اقبح القبائح. والنوم حسن بالنسبة اليه كما قيل نوم الظالم رحمة - أي للمظلومين - فإن الظالم إذا نام إستراحت الناس من شرّه حال نومه. فإن آفات الكلام لاتُعدُّ بعد ولاتدخل تحت حصر ولا حدّ، فإذا لم يشتغل في سهره بوظائف أوراد فليكن منوطاً بالصمت الذي فيه السلامة من حسرة يوم القيامة، فلذا اعقب المصنف رضي اللّه عنه ذلك بقوله:

الصمت من صفات الاصفياء. وإعلم ان الصمت بمعنى السكوت عما لايعني احد الأركان الأربعة التي يصير بها الأبدال أبدالاً، قال اللّه تعالى (يا أيُّها الذين آمنوا إتّقوا اللّه وقولوا قولاً سَديداً) وقال تعالى (وإذا مَرّوا باللَّغو مَرّوا كراما) وقال تعالى (ومِنهُم مَن يشتري لَهوَ الحديث). واعلم أن اللغو من الحديث يطفيء النور الحاصل من التوحيد وإنما كان الصمت من صفات الأصفياء - أي الذين إصطفاهم اللّه لحضرته - لأنه باب السلامة من كل خطر كما روي في الخبر: مَن سَرَّهُ أن يَسلَم فليلزمِ الصمت. وقال ﷺ: "البَلاء موكَلٌ بالمَنطق" وقال عليه الصلاة والسلام: "إن أكثر خطأ بني آدم في لسانه" وفي حديث آخر: "مَن كَثُرَ كلامه كَثُرَ سَقطُهُ، ومن كَثُرَ سَقطُهُ كَثُرَت ذنوبه، ومَن كَثُرَت ذنوبه كانت النار أولى به" وقال ﷺ: "ليس شيء من الجسد الا وهو يشكو حدة اللسان" وقال عليه الصلاة والسلام: "مَن كان يؤمن باللّه واليوم الآخر فليقُل خيراً أو ليصمت" وقال عليه الصلاة والسلام: "رَحِمَ اللّه إمرأً سكت فسَلِم أو قال خيراً فغَنِمْ" وقال عليه الصلاة والسلام: "مَن صمتَ نجا" وقيل لرسول الله ﷺ: ما النجاة؟ فقال: "إحفظْ عليكَ لسانَك وليَسَعكَ بيتُك وابكِ على خطيئتك". وقال أهل الحقيقة: الصمت سلامة وهو الأصل والنطق عارض. وإختلف الناس في تفضيل احدهما على الآخر والأصحُّ ان كل واحد منهما أفضل من الآخر في بعض المواضع، لكن الموفَّق مَن يعرف موضع الصمت فيصمت وموضع النُطق فينطق، فإن السكوت عن الحق حرام ولذا قال أبو على الدَقّاق: مَن سكت عن الحق فهو شيطان أخرس. وقال بِشر الحافي: إذا أعجبك الكلام فاسكت وإذا أعجبك السكوت فتكلم. وقال لقمان لإبنه: لو كان النطق فضة لكان السكوت ذهباً ولقد ندمت على الكلام مراراً ولم أندم على السكوت

مرة واحدة.

واعلم أنّ الصمت على نوعين: صمت العوام وهو إمساك اللسان كفّاً عن الكذب والغيبة، وصمت الخواص وهو إمساك اللسان لإستلاء سلطان الهيبة، وذلك الصمت هو من آداب الحضرة وينقسم أيضاً قسمين آخرين: صمت العوام وهو كفٌ باللسان وحده وصمت الخواص هو كَفٌ باللسان والقلب. فالمتوكل صمتَ قلبهُ عن طلب الرزق والراضي صمتَ قلبهُ عن حركة الإعتراض. وسُئل أبو بكر الفارسي عن صمت القلب فقال: تَركُ الفكر في الماضي والمستقبل وقد آثر الأصفياء السكوت لما رأوا في الكلام من الآفات وحظُّ النفس وإظهار صفة المدح وميلُ الإنسان بالطبع الى ان يتميّز بين أقرانه واشكاله. وروي عن داود الطائي أن سبب توبته أنه كان يجالس أبا حنيفة رضي اللّه عنه فقال له أبو حنيفة يوماً: يا أبا سليمان أما الاداة فقد أحكمناها، فقال له داود: أيُّ شيء بقي؟ فقال: العمل بها، قال داود: فنازعتني نفسي الى العزلة فقلت لا أعتزل حتى أجالسهم سنة ولا أتكلم في مسألة. فجالسهم سنة ولم يتكلم في مسألة، قال: وكانت المسألة تمرُّ بي وأنا إلى الكلام فيها أشد شوقاً من العطشان الى الماء ولا أتكلم.

وكان عمر بن عبدالعزيز إذا كتب كتاباً وأعجبه لفظه مزّقه وكتب غيره. وقيل إذا نطق العبد فيما يعنيه وفيما لا بد له منه فهو صامت. وقيل أن أبا بكر الصديق رضي اللّه عنه كان يضع في فيه حجراً كذا سنة ليقل كلامه. وقال إبن مسعود: ما من شيء بطول السجن أحق من اللسان. وقيل لذي النون المصري: مَن أصوَنُ الناس لنفسه؟ فقال: أمكَنَهُم للسانه. وقال علي بن بكار: جعل اللّه لكل شيء بابين وجعل للسانِ أربعة ابواب فالشفتان مصراعان والأسنان مصراعان. وقيل أن أبا حمزة البغدادي كان حسن الكلام فهتف به هاتف: تكلمت فأحسنت بقي أن تسكت، فتحسن فما تكلم بعد ذلك حتى مات، ومات قريباً من هذه الحالة على رأس أسبوع أو أقلّ أو كثر. قال في(الرسالة القشيرية): والصمت من آداب الحضرة قال اللّه تعالى (واذا قُرِيء القرآن فإستمعوا له وأنصتوا) وقال مخبراً عن الجن بحضرة الرسول ﷺ فلمّا حضروه قالوا أنصِتوا وقال تعالى (وخشعَتِ الأصواتُ للرحمنِ فلا تسمعُ إلاّ همساً). وكم بين عبد يسكت تصاوناً عن الكذبِ والغيبة وبين عبد يسكت لإستيلاء سلطان الهيبة عليه وفي معناه أنشَدوا:

افكر ما اقول إذا افترقنا — واحكم دائباً حجج المقال

فأنساها إذا نحن إلتقينا — وأنطق حين أنطق بالمحال

وأنشَدوا:

فياليل كم من حاجة لي مهمة — إذا جئتكم بالليل لم أدرِ ماهيا

وربما يقع السكوت على المتكلم تأديباً له لانه أساء أدبه في شيء. كان الشبلي إذا قعد في حلقته ولايسألونه يقول: ووقعَ القولُ عليهم بما ظلموا الآية... وربما يقع السكوت على المتكلم لأن في القوم مَن هو أولى منه بالكلام، سمعت ابن السماك يقول في بغداد: كان بين شاه الكرماني ويحيى بن معاذ صداقة فجمعهما بلد فكان شاه لايحضر مجلسه، فقيل له ذلك فقال: الصواب هذا، فما زالوا به حتى حضر يوماً مجلسه وقعد ناحيةً لايشعر به يحيى بن معاذ، فلما اخذ يحيى بالكلام سكت ثم قال: هنا مَن هو أولى بالكلام مني فإرتجَّ عليه فقال شاه: قلتُ لكم الصواب أن لا أحضر مجلسه.

وربما يقع السكوت على المتكلم لمعنى في الحاضرين وهو انه يكون هناك مَن ليس بأهل السماع لذلك الكلام فيصون اللّه لسان ذلك المتكلم غيرة وصيانة لذلك الكلام عن غير أهله. وربما كان سبب السكوت الذي على المتكلم أنّ بعض الحاضرين كان معلوم اللّه تعالى من حاله أن يستمع ذلك الكلام فيكون فتنة له إما لتوهمه أنه وقته فلا يكون أو لأنه يُحمِّل نفسه ما لاتطيق فيرحمه اللّه عزّوجل بأن يحفظ سمعه عن ذلك الكلام إما صيانةً له أو عصمة عن غلطه. وقال مشايخ هذه الطريقة ربما يكون السبب فيه حضور مَن ليس بأهل لسماعه من الجن إذ لاتخلو مجالس القوم من حضور جماعة من الجن، سمعت الاستاذ أبا عليٍّ الدقّاق يقول: إعتللت مرة بمرو فإشتقت ان أرجع الى نيسابور فرأيت في المنام كأنّ قائلاً يقول لي: لايمكنك أن تخرج من هذا البلد فإن جماعة من الجن إستَحلَوا كلامك ويحضرون مجلسك فلأجلهم تجلس ههنا.

وقال بعض الحكماء: إنما خُلق للإنسان لسان واحد وعينان وأذنان ليسمع ويبصر أكثر مما يقول. ودُعي ابراهيم بن أدهم الى دعوة فلما جلس أخذوا في الغيبة فقال: عندنا يؤكل اللحم بعد الخبز وانتم إبتدأتم بأكل اللحم وأشار الى قوله تعالى (أيُحبُّ أحدُكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً). وقال بعضهم: الصمت لسان الحكم: وقال بعضهم: تعلَّم الصمت كما تتعلم الكلام، فإنْ كان الكلام يهديك فإن الصمت يَقيك. وقيل: عَفّةُ

اللسان صمته، وقيل: مَثَلُ اللسان مَثَلُ السَبع إن لم توثقه عدا عليك. وسُئِلَ أبو حفص أيُّ الحالين للولي أفضل الصمت أو النطق؟ فقال: لو علم الناطق ما آفة النطق لَصَمَت إن إستطاع عُمرَ نوح، ولو علم الصامِت ما آفة الصمت لسأل اللّه عزَّ وجلّ ضعفي عُمرَ نوحٍ حتى ينطق. وقيل: لسان الجاهل مفتاح حتفه، وقيل: المُحِبُّ إذا سكت هَلَك والعارف إذا سكت مَلك. سمعتُ محمد بن الحسين يقول: سمعت عبداللّه بن محمد الرازي يقول سمعت محمد بن نصر الصائغ يقول: مَن عَدَّ كلامه من عمله قلَّ كلامه إلاّ فيما يعنيه.

(**تنبيه**) من أعظم مما يحذر عنه الكلام عند الأذان فإن الكلام عنده يورث المقت والعياذ باللّه تعالى. قال بعض العارفين: مَن ترك الكلام حال الأذان لأجل اللّه تعالى عظّمه اللّه بين الناس ويَسَّرَ حسابه. وماتت إمرأة من الباغيات فرُؤيت في هيئة حسنة فقيل لها كيف ذلك؟ فقالت: أذَّن المؤذن مرّة وكنا فيما لاينبغي من رفع الصوت فأمرت رفقتي بالسكوت حتى فرغ المؤذن فغفر اللّه لنا بذلك. بل ينبغي أن يكون الإنسان مصغياً لما يقول المؤذن قائلاً مثل ما يقول ثم بعد ذلك يدعو اللّه تعالى بما شاء وأحبّ وبعده أن يقول الدعاء المأثور اللّهم ربّ هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته. وأكثِر من الدعاء بين الأذان والإقامة لقوله ﷺ: "**الدعاء بين الأذانين لايُرَدّ**".

ومن اقبح انواع الكلام الذي يطلب السكوت عند المراء والجدال فإنهما يوغران الصدور ويوحشان القلوب ويولدان العداوة والبغضاء، ولهذا قال رضي اللّه عنه (والجدال حرفة الاغبياء) أي الجاهلين أرباب النفوس الذين هم لايدخلون حضرة القدوس. والجدال المحاجة وطلب القهر والغلبة وهو المِراء المراد من الحديث الذي رواه الترمذي مَن ترك المراء وهو مبطل بنى اللّه له بيتاً في ربض الجنة، ومَن تركه وهو محق بنى له في وسطها، ومَن حَسُن خُلُقه بنى له في اعلاها. وروي أيضاً كفى بك إثما أن لاتزال مخاصماً. وروي أيضاً إن ابغض الرجال الى اللّه الألدّ الخَصِم والالدُّ بتشديد الدال المهملة هو الشديد الخصومة والخصِم بكسر الصاد المهملة هو الذي يحج من يخاصمه. قال السهروردي في (**عوارف المعارف**): ومن اخلاق الصوفية ترك المِراء والمجادلة والغضب إلاّ بحق واعتماد الرفق والحلم وذلك ان النفوس تثب وتظهر في المُمارين،

والصوفي كلما رأى نفسه ظاهرة عليه قابلها بالقلب وإذا قوبلت النفس بالقلب ذهبت الوحشة وإنطلقت الفتنة قال اللّه تعالى تعليماً لعباده (**إدفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنّه وليٌّ حميم**). ولاينزع المِراء إلاّ من نفوس زكية انتزع منها الغِلّ ووجود الغِلّ في النفوس هو مِراء الباطن ذهب من الظاهر أيضاً، وقد يكون الغِلّ في النفس مع من تشاكله وتماثله لوجود المنافسة ومن إستقصى بتذويب النفس بنار الزُهّاد في الدنيا ينمحي الغِلّ من باطنه ولايبقى عند منافسة دنيوية في حظوظ عاجلة من جاه، وما قال اللّه تعالى في وصف أهل الجنة (**ونزعنا ما في صدورهم من غِلّ**).

واعلم أن مَن لم تكن سجيته التي جُبِلَ عليها مكارم الاخلاق وحسن الصبر على معاشرة الناس التي لاتنفك غالباً عن المِراء والمجادلة فلا بد له من العزلة عنهم ظاهراً وباطناً ولاينوي بعزلته عنهم كفَّ ضَرِّهم عنه وتوقّي شرِّهم بل ينوي كفَّ أذاه عن غيره وسلامة. فلهذا قال رضي اللّه عنه:

(العزلة للمبتدي سلامةٌ لدينه) وهي عند عامة أهل الطريق عبارة عن هجر الخلائق وملازمة البيوت طلباً لسلامة المعتزل من الناس وسلامة الناس منه، فإن إرتقى الى طور أعلى من هذا وصار من الخاصة جعل عزلته رياضة وتقدمة بين يدي خلوته لتألف النفس قطع المألوفات من الأُنس بالخَلق، فإن الأُنس بهم من العلائق الحائلة بينه وبين مطلوبه من الانس باللّه تعالى والإنفراد به. فإذا انتقل من العزلة بعد احكامه شرائطها سَهُل عليه امر الخلوة.

واعلم أن العزلة والخلوة مطلوبتان شرعاً وهما صفتا أهل الوصلة والصفوة قال اللّه تعالى حكاية عن ابراهيم عليه الصلاة والسلام (**وأعتزلكم وما تَدعون من دون اللّه... الى قوله وكُلاًّ جعلنا نبيا**)، وقال تعالى (**وكفى بربِّك هادياً ونصيراً**)، وقال النبي ﷺ: "**إنّ مِن خير معائش الناس لهم رَجُل أخذ بعنان فرسه في سبيل اللّه ان يسمع فزعة أو هيعة كان على متن فرسه يبتغي الموت أو القتل في مكانه، أو رَجُل في غنيمة له في رأس شعفة من هذه الشعاف أو بطن واد من هذه الأودية يُقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويعبد ربه حتى يأتيه اليقين وليس من الناس إلاّ في خير**" وقال ﷺ: "**أحَبُّ الناس إلى اللّه تعالى الفرّارون بدِينهم يبعثهم اللّه تعالى مع عيسى بن مريم عليه السلام يوم القيامة**". ومن حق العبد إذا اعتزل ان يعتقد بإعتزاله عن الخَلق سلامة الناس من شرِّه

ولايقصد سلامته من شرِّ الخلق كما قدمناه. فإن الاول من القسمين نتيجة إستصغار نفسه والثاني شهود مزيَته على الخَلق. ومَن إستصغَرَ نفسه فهو متواضع ومن رأى لنفسه مزيه على أحد فهو متكبر. رؤي بعض الرهبان فقيل له: إنّك راهب، فقال: لا أنا حارس كلب عقور إنّ نفسي كلب يعقر الخلق أخرجتها من بينهم ليسلموا منها. ومَرَّ إنسان ببعض الصالحين فجمع ثيابه منه فقال الرجل لذلك الصالح: لِمَ تجمع ثيابك عني وليست ثيابي بنجسة؟ فقال الشيخ: وهمتَ في ظنك ثيابي هي النجسة جمعتها عنك لكيلا تُنجِّس ثيابَك ثيابي. ومن آداب العزلة ان يصحح من العلوم مايصح به عقد توحيده لكيلا يستهويه الشيطان بوسواسه ثم يحصل من علوم الشرع ما يؤدي به فرضه ليكون قد بنى امره على اساس محكم.

والعزلة في الحقيقة إعتزال الخصال المذمومة وإيثار تبديل الصفات لا التنائي عن الأوطان، فإن العزلة نوعان: للعوام وهي مفارقة الناس بالجسد طلباً للسلامة، وعزلة للخواص وهي موافقة الصفات البشرية الى الصفات الملكية وان كان مخالطاً للناس ومجاوراً لهم، ولهذا قالوا للعارف كائن بائن ومعناه كائن مع الناس بظاهره بائن بباطنه وسرِه. وقال أبو علي الدقّاق: إلبس مع الناس ما يلبسون وكل معهم ما يأكلون وإنفرد عنهم بسرِّك. وفي العزلة فوائد جليلة منها: السلامة من الغيبة والرياء والنفاق والإشتغال بزينة الدنيا ولهوها، والأمان من مَلل الأصدقاء، وستر الفاقة عن العدو والشامت والصديق المتوجع، والتفرغ للنظر في العلم وإستنباط الحكمة ومَن أراد العزلة ينبغي ان يكون في عزلته خالياً عن ذكر كل شيء سوى ذكر ربه ومِن إرادة كل شيء بعزلته سوى إرادة ربِّه، ثم يأخذ نفسه في عزلته بتأديبها وتهذيبها بمكارم الاخلاق ومحاسن العادات.

والحاصل إنّ العزلة الحقيقة عند القوم اعتزال الصفات المذمومة ومفارقتها. قال أبو يزيد: رأيت ربّي تبارك وتعالى في المنام فقلت له كيف أصلُ اليك؟ فقال تعالى فارق نفسك وتعال. وقال يحيى بن معاذ: مَن كان أُنسُه بالخلوة ذهبَ أُنسهُ إذا فارقها، ومَن كان أُنسه باللّه في الخلوة إستوت عنده الأماكن كلّها. وقال أبو بكر الورّاق: وجدت خَيرَي الدنيا والآخرة في العزلة والخلوة وشرَّهما في الخلطة. وقال الشبلي: علامة الإفلاس الإستئناس. وقيل: إذا اراد اللّه ان ينقل العبد من ذلّ المعصية الى عزِّ الطاعة

آنسه بالـوحدة وأغناه بالقناعـة وبصَّرَهُ عيـوب نفسـه، فمَن أُعطيَ ذلك فـقد أُعطيَ خَيرَى الدنيا والآخرة.

واعلم بأن التـوفـيق للعزلة دليـل سعـادة الأبد لأن مَن خـالط الناس داراهم ومن داراهم رآهم ومَن رآهـم نافـقـهم ومَـن نافـقـهـم إسـتـحق الدرك الأسـفـل من النـار بنص الكتـاب العزيز. فـعليك أيُّها العـاقل بمحو إسمك مـن صحـائف القلوب وصـحـائف الألسن، فـإن العـرفـان بلاء والمعـروف ناقص والخـامل كـامل وطالب الإسـم والرسم ظاهره عـامـر وباطنه خراب وطالب الحق والحقـيقة باطنه فيـه الرحمة وظاهره من قِبَله العذاب، فمن آثر العزلة حصل العزله. قال ذا النون المصري: لم أرَ شيـئاً ابعثُ على الإخلاص من الخلوة. قال أبو القـاسم الجُنيـد في زمنه يقـول: مَن اراد أن يـسلَمَ له دينه ويسـتـريح بدنه وقلبـه فليـعـتـزل الناس فإن هذا زمـان وحشة والعاقل مَن اختـار فيه الوحدة. فـأنظر يا أخي هذا في زمان الجنيد فكيف في هذا الزمان الذي واللّه لاتخلو مجالس خاصة من الغيبة والنميمة ولهو الحديث فضلاً عن عوامه فلا حول ولا قوة إلاّ باللّه العلي العظيم.

قـال سيدي عـبدالوهاب الشعـراني رضي اللّه عنه في كـتـابه (تنبـيـه المُغـترّين): ومِن اخلاقـهم كـثـرة عزلـتهم عـن الناس وقلة مـخـالطتـهم إلاّ لحـاجة، وعـلى ذلك درج السلف الصـالح فـفي كل يوم لايجـتـمع بهم أحد فـيـه يَعـدُّونه يوم عـيـد ومن أكـثـرَ من مـخـالطة الناس خرج عن طريق سلفـه وفـاته النفع من الناس وبالعكس، وذلك لأن كـل مَن كَثُـرَت رؤية الناس له هـان في عـيـونهم وكـثـرَ سقطه عـندهم ورأوه كـأحدهم فـي دنا ءة الأخـلاق والغـفـلة عن اللّه عـزوجل. (قُلت) ومـا أتذكـر أنني زرت أحداً مـن مـشـايخ هذا الزمـان وسَلِمَ مـجلسي معـه من الغـيـبـة إلاّ قليـلاً، فلذلك أقللت من زيارتهم خوفـاً على ديني ودينهم لاتساهلاً في حقهم. فإذا كان هذا حكم مجالس الاشياخ فكيف بغيرهم. فإحفظ نفسك كل الحـفظ إذا زرت أحداً في هذا الزمان ولاتتـهاون بذلك. وكان عـمر بن الخطاب رضي اللّه عنه يقـول: خذوا حظّكم من العـزلة. وكان طلحـة ابن عبـيداللّه يقـول: مَن أراد ان يُقلَّ من معـرفـة الناس ويتـبصّر بعـيوبه فليجلس في بيـتـه، فإنَّ مَن خـالَطَ الناس سُلِبَ دينه وهو لايشعر.

وكان حذيفة بن اليمـاني يقـول: لم يجلس الربيع بن خيـثم في مجلس قومه طول عـمره إلاّ مرةً واحدة جلس على باب داره فسقط عليه حجر فشَجَّ رأسه لايدري مَن رماه فقال:

لقد وُعظتَ يا ربيع، فما خرج من بيته إلاّ لضرورة حتى مات. وكان يقول: مَن جلس على الطَريق فليؤدِّ حقه وذلك برد السلام ونُصرة المظلوم والشهادة على الظالم ومعاونة كل مَن كان في ضرورة. قال إبن سيرين: العزلة عبادة. وقال فضيل: كفي باللّه مُحبّاً وبالقرآن مؤنساً وبالموت واعظاً، إتخذ اللّه صاحباً ودع الناس جانباً. وقال أبو ربيع الزاهد لداود الطائي: عِظني. قال: صُم عن الدنيا واجعل فطرك الآخرة وفرَّ من الناس فِرارك من الأسد. وقال الحسن رضي اللّه عنه كلمات أحفظهن من التوراة: قَنعَ ابن آدم فإستغنى وإعتزل الناس فسَلِم وترك الشهوات فصار حراً وترك الحسد فظهرت مروءته وصبر قليلاً فتمتع طويلاً. وقال وهيب بلغنا انَّ الحكمة عشرة اجزاء، تسعة منها في الصمت والعاشرة في عزلة الناس. وقال يوسف بن مسلم لعلي ابن بكار: ما أصبركَ على الوحدة؟ - وقد كان لزم البيت - فقال: كنت وأنا شاب اصبر على اشدَّ من هذا كنت اجالس الناس ولا أكلمهم. وقال سفيان الثوري: هذا وقت السكوت وملازمة البيوت. وقال بعضهم: كنت في سفينة ومعنا شاب من العَلَوية فمكث سبعاً لا نسمع له كلاماً، فقلنا له: ياهذا قد جمعنا اللّه منذ سبع ولا نراك تخالطنا ولاتكلمنا. فأنشأ يقول:

قليل الهم لا ولدٌ يموت ... ولا أمر يحاذره يفوت
قضى وطر الصبا وأفاد علماً ... فغايته التفكُّر والسكوت

وقيل كان مالك بن انس يشهد الجنائز ويعود المرضى ويعطي الاخوان حقوقهم، فترك ذلك واحداً واحداً حتى تركها كلها وكان يقول: لايتهيأ للمرء أن يخبر بكل عذر. وقال الفضيل: إني لأجد للرجل عندي يداً إذا لقيني أن لايسلِّم عليّ واذا مرضت أن لايعودَني. وقال أبو سفيان الداراني: بينما الربيع بن خيثم جالساً على باب داره اذ جاءه حجر فصكَّ وجهة فشجَّهُ فجعل يمسح الدم ويقول: لقد وُعظتَ يا ربيع فدخل داره فما خرج حتى أُخرجت جنازته. وقال يوسف بن اسباط: واللّه الذي لا إله إلاّ هو لقد حلّت العزلة ودخل بعض الامراء على حاتم الأصم فقال: ألك حاجة؟ قال نعم. قال: ماهي؟ قال: ألاّ تراني ولا أراك. وقال رجل لسهل: أريد أن اصحبك. فقال: إذا مات احدنا فمن يصحبه الى الآخرة فليصحبه الآن. وقل بعض الحكماء: الى أي شيء افضى بهم الزُهد والخلوة؟ فقال: الى الأُنس باللّه عزوجل. وقال سفيان بن عيينة: لقيت ابراهيم

بن ادهم في بلاد الشام فقلت له: يا إبراهيم تركت خراسان؟ فقال: ماتهنّأت بالعيش إلاّ ههنا افرُّ بديني من شاهق الى شاهق فمَن يراني يقول موسوس وجمال أو ملاح.

وقيل بينما أُويس القرني جالس اذ أتاه هرم بن حيان فقال له أويس: ما جاء بك؟ قال: جئت لآنَسَ بك. فقال أُويس: ما كنت اعرف ان احداً يعرف ربّه فيأنس بغيره. وقال فضيل: إذا رأيتُ الليل مقبلاً فرحت به وقلت أخلوا بربي واذا رآيت الصبح أدركني إسترجعت كراهةً للقاء الناس وأن يجيئني مَن يشغلني عن ربي. وقال عبداللّه بن زيد: طوبى لمن عاش في الدنيا وعاش في الآخرة. قيل له: وكيف ذلك؟ قال: يناجي اللّه في الدنيا ويجاوره في الآخرة. وقال ذو النون المصري رضي اللّه عنه: سرور المؤمن ولذّته في الخلوة بمناجاة ربه. وقال مالك بن دينار: مَن لم يأنس بمحادثة اللّه عزَّ وجلّ عن محادثة المخلوقين فقد قلَّ عمله وعمى قلبه وضيَّع عمره. وقال ابن المبارك: ما أحسنَ مَن انقطع الى اللّه عزَّ وجلّ من تلك الجبال. وروي عن بعض الصالحين قال: بينما أنا أسير في بعض بلاد الشام إذا أنا بعبدٍ خارج من تلك الجبال فلما نظر إليَّ تنحّى الى أصل شجرة وتستّر بها فقلت: سبحان اللّه تبخل عليّ بالنظر إليك. فقال: يا هذا إني اقمت في هذا الجبل دهراً طويلاً اعالج قلبي في الصبر عن الدنيا وأهلها فطال في ذلك تعبي وفَنِيَ عمري فيه فسألت اللّه عزَّ وجلّ ان لايجعل حظّي من أيامي في مجاهدة قلبي فسكّنه اللّه تعالى عن الاضطراب وآنَسَ الوحدة والإنفراد فلما نظرت اليك خِفتُ ان أُوقعَ في الامر الأول فإليك عني. ثم نفض يديه وقال: إليكِ عني يا دنيا لغيري تزيّني ولأهلك فغرّي. ثم قال: سبحان مَن اذاق قلوب العارفين باللذّة الحلوة وحلاوة الإنقطاع ما ألهى قلوبهم عن ذكر الجِنان وعن الحور الحِسان وجمع همَّهم في ذِكره فلا شيء ألذَّ عندهم من مناجاته. ثم مضى وهو يقول: قدوس قدوس. وفيه قيل:

واني لأستغشي وما بي غَشوة لعل خيالاً منك يلقى خياليا
وأخرُج من بين الجلوس لعلّني أحدِّث عنك النفس بالسرِّ خاليا

ولذلك قال بعض الحكماء: إنما استوحش الإنسان عن نفسه بخلو ذاته عن الفضيلة فيكثر حينئذ ملاقاة الناس ويطرد الوحشة عن نفسه ومن يتيسر له بدوام الذِكر الأُنس باللّه أو بدوام الفكر التحقق في معرفة اللّه فالتجرُّد له أفضل من كل مايتعلق بالمخالطة، فإن عناية العبادات وثمرة المعاملات أن يموت الإنسان محباً للّه عارفاً باللّه،

فلا محبه إلاّ بالأُنس الحاصل بدوام الذكر، ولا معرفة إلاّ بدوام الفكر، وفراغ القلب شرطٌ في كل واحد منهما. ولا فراغ مع المَخالطة. وفي العزلة أيضاً فائدة وهي التخلص عن المعاصي التي يتعرض الإنسان لها غالباً بالمخالطة ويسلم منها في الخلوة وهي أربعة: الغيبة، والرياء، والسكوت عن الامر بالعروف والنهي عن المنكر، ومسارقة الطبع من الأخلاق الردئية والاعمال الخبيثة التي يوجبها الحرص على الدنيا. وقد روي عن عبداللّه بن مسعود أنه عليه الصلاة والسلام قال: "سيأتي على الناس زمان لايسلم لذي دين دينه إلاّ مَن فرَّ بدِينه من قرية الى قرية ومن شاهق الى شاهق ومن حجر الى حجر كالثعلب الذي يروغ. قيل: ومتى ذلك يارسول اللّه؟ قال: إذا لم تنل المعيشة إلاّ بمعاصي اللّه فإذا كان ذلك الزمان حلت العزوبة. قالوا: وكيف ذلك يارسول اللّه وقد امرتنا بالتزويج؟ قال: إذا كان ذلك كان هلاك الرجل على يد أبويه فإن لم يكن له أبوان فعلى يد زوجته وولده فإن لم يكن له فعلى يد قرابته. قالوا: وكيف ذلك يارسول اللّه؟ قال: يعيِّرونه بضيق اليد فيتكلف ما لايطيق حتى يُورَد موارد الهلكة" وهذا الحديث وان كان في العزوبة فالعزلة مفهومة منها إذ لايستغني المتأهل عن المعيشة والمخالطة ثم لاتُنال المعيشة إلاّ بمعصية اللّه. قال الغزالي في الإحياء: ولست أقول هذا أوان ذلك الزمان فلقد كان هذا بأمصار قبل هذا العصر ولأجله قال سفيان الثوري: واللّه لقد حَلَتِ العزلة. وقال سفيان بن عيينة: قال لي سفيان الثوري في اليقظة في حياته وفي المَنام بعد وفاته: أقلِل من معرفة الناس فإن التخلص منهم شديد ولا أحسب أني رأيت ما أكره إلاّ ممن عرفت. وقيل لبعضهم: ما حَمَلكَ على أن تعتزل الناس؟ قال: خشيت ان أُسلَب ديني ولا أشعر. وهذا إشارة الى مسارقة الطبع من أخلاق القرين السوء.

وقال أبو الدرداء إتَّقوا اللّه واحذروا الناس فإنهم ما ركبوا ظهر بعير إلاّ دَبروه ولا ظهر جواد إلاّ عقروه ولا قلب مؤمن إلاّ خرّبوه. وقال بعضهم: اَقلِل المعارف فإنه اسلَمُ لدينك وقلبك واَخفُّ لسقوط الحقوق عليك لأنه كلما كثرت المعارف كثرت الحقوق وعَسُر القيام بالجمع. وقال بعضهم: اَنكِر مَن تعرف ولاتتعرف إلى مَن لاتعرف. حُكي عن بعضهم قال: كنا بالمدينة نتكلم في بعض الاوقات في آيات اللّه المنعم بها على اوليائه وكان رجل ضرير بالقرب منا يسمع ما نقول، فتقدم وقال: اَنِست بكلامكم إعلموا أنه

كان لي عيال وأطفال فخرجت الى البقيع احتطب فرأيت شاباً عليه قميص كتان ونعله في إصبعيه فتوهمت أنه تائه فقصدت أن اسلُبه ثوبه، فقلت له:إنزع ما عليك. فقال: مُر في حفظ الله. فقلت له: الثانية والثالثة. فقال: ولابد. فأشار بأصبعه الى عينيّ فسقطتا. فقلت: باللّه عليك مَن أنت؟ قال: أنا ابراهيم الخوّاص. ومناسبة هذه الحكاية أن الإنسان إذا اعتزل الناس وصدق في عزلته اكرمه الله في مثل هذه الكرامة.

قال عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه: ما ساحَ السُوّاح وخلّوا دورهم واولادهم إلاّ بمِثل ما نزل بنا حين رأوا الشر قد ظهر والخير قد اندرس ورأوا انه لايقبل ممن تكلم ورأوا الفتن ولم يأمنوا ان يعتريهم وان ينزل العذاب بأولئك الاقوام فلا يسلمون منه، فرأوا ان مجاورة السباع واكل البقول خير من مجاورة هؤلاء في نعيمهم وقرأ (ففِرّوا إلى اللّه إّني لكم منه نذيرٌ مبين)، قال: ففَرَّ قومٌ فلولا ما جعل اللّه في النبوة من السر لقلنا ما هم بافضل من هؤلاء فيما بلغنا أنّ الملائكة عليهم السلام لتلقاهم وتصافحهم والسحاب والسباع يمر بأحدهم فيناديها فتجيبه ويسألها أين أموت فتخبره وليس بنبي.
وقال ابن مسعود رضي اللّه عنه: كان أهل قرية يعملون بالمعاصي وكان فيهم اربعة نفرٍ ينكرون ما يعملون فقام احدهم فقال: إنكم تعملون كذا وكذا فجعل ينهاهم ويخبرهم بقبيح ما يصنعون، فجعلوا يردون عليه ولايرتدعون عن اعمالهم، فسبَّهم فسَبّوه وقاتلهم فغلبوه فإعتزل ثم قال: اللّهم إني نهيتهم فلم يطيعوني وسببتهم فسَبّوني وقاتلتهم فقاتلوني. ثم ذهب ثم قام الآخر فنهاهم فلم يطيعوه فسبَهم فسبّوه فإعتزل ثم قال اللّهم إني قد نهيتهم فلم يطيعوني فسببتهم فسبّوني ولو قاتلتهم لقاتلوني. ثم قام الثالث فنهاهم فلم يطيعوه فإعتزل ثم قال اللّهم اني نهيتهم فلم يطيعوني ولو سببتهم لسبّوني ولو قاتلتهم غلبوني ثم ذهب. ثم قام الرابع فقال: اللّهم إني لو نهيتهم عصوني ولو سببتهم لسبّوني ولو قاتلتهم غلبوني، قال ابن مسعود: كان الرابع أدناهم منزلة وقليل فيكم مثله.

وحُكي عن الشيخ ابي الحسن الشاذلي رضي اللّه تعالى عنه قال: وقع لي تردد في بدايتي بين الانقطاع في البراري والقفار والرجوع الى العمران والديار ومحبة العلماء فوُصِف لي وليٌّ في رأس جبل فقصدته فوصلت اليه بعد ما أمسيت فقلت ما أدخل عليه في هذا الليل الى الصبح فبِتُّ على باب المغارة فسمتعه يقول من داخل: اللّهم إن

اناساً من عبادك سألوك ان تسخر لهم خلقك فسخرتهم لهم فرَضَوا منك بذلك وإني أسالك ان تنفِّرَ عني خَلقك حتى لايكون إلي ملجأ إلاّ إليك. فقلت إسمعي يا نفس من أي بحر يغترف هذا الشيخ، فلما أصبحت دخلت عليه فسلّمت عليه ومُلئت منه رعباً وقلت له: سيدي كيف حالك؟ فقال: أشكو الى الله تعالى من بَرد القضاء والتسليم كما تشكو أنت من حَرِّ التدبير والإختيار. فقلت له: يا سيدي أما حَرُّ التدبير والإختيار فأنا أعرفه وأنا فيه الآن فما بَرُد القضاء التسليم ولِمَ تشكو ذلك؟ فقال: أخاف ان تشغلني حلاوتهما عنه. فقلت: يا سيدي سمعتك تقول اللّهم إن اناسا من عبادك سألوك وذكر ماتقدم. فتبسَّم وقال: يا بُنيَّ عوض ماتقول سخر لي قُلْ كُنْ لي أترى مَن كان له لايحتاج الى شيء آخر. فما هذه الجناية رضي عنهما ونفعنا بهما آمين.

فانظر يا أخي فوائد العزلة وثمراتها وكيف كلام الأخيار فيها والحثُّ عليها. واعلم أن العزلة إذا لم تكن مصحوبة بأنواع الطاعات والقربات فقد خابت عزلته، كما قال مالك بن دينار: مَن لم يجالس النبي ﷺ وابي بكر وعمر فقد خابت عزلته. فقيل له: كيف يجالسهم؟ فقال: يدرس القرآن بتدبُّر وينظر في أفعال رسول اللّه ﷺ وأفعال اصحابه وأقوالهم فمَن فعل ذلك فقد حادث اللّه تعالى وحادث رسوله ﷺ واصحابه رضي اللّه عنهم. ولما إعتزل داود الطائي لامَهُ اصحابه في ذلك فقال: إنما إعتزلت حين رأيت الصغير لايوقر الكبير ورأيت الكبير يحصي عليَّ عيوبي ليهجوني بها حال سُخطه عليّ فكان بُعدي عنه أولى.

ومن جملة العزلة الجميلة إنك إذا خرجت لحاجة أن تضع على رأسك شيئاً تلفَّع به مثل الشال أو الطيلسان حتى لايقع بصرك على منكر لاتقدر على تغييره ولا على شيء يشغل قلبك عن ربك كالنظر الى ما لايحل النظر اليه من وجه صبيح من أمرد أو إمرأة اجنبية فتخسر مع الخاسرين. وكذلك تقصَّد المشي في المواضع القليلة الناس حتى ترجع. وكان لعمر بن عبدالعزيز ولد اسمه عبداللّه لايخرج من السرداب الذي يجلس فيه إلاّ في أوقات الصلاة، قالوا ولعله القبر الذي كان والده حفره له أيام ولايته كان ينزله من بعد العشاء فلا يزال يصلي ويبكي الى الصباح. وكان الفضيل ابن عياض يقول: انما طلبوا العزلة والوحدة لأنها تورث الانتباه من رقدة الغفلة وتورث كثرة مراقبة اللّه بالغيب. وكان يقول: إذا استطعت ان تمشي للناس ولايمشوا اليك وتسألهم ولايسألونك

فإفعل. وكان يقول: ما أَحَبَّ عبدٌ ربَّهُ إلاّ أحَبَّ ان لايشعر أحدٌ به.

قال ابن عطاء اللّه في الحكم: ما نفَعَ القلب مثل عزلة يدخل فيها ميدان فكره. وفي شرحها للمناوي أوحى اللّه تعالى الى موسى يا ابن عمران كُن يقظاناً وارتضي لنفسك إخواناً وكل اخ أو صاحب لايؤازرك على مسرتي فهو لك عدو. وقال الجُنيد: قال لي المصطفى ﷺ في النوم إن إستطعت أن لاتَعرف ولاتُعرَف فافعل. وقال ابن العربي: قال شيخي سِد الباب وإقطع الأسباب وجالِس الوَهَّاب ليكلمك بغير حجاب.

(**تنبيه**) قال بعض الكاملين: الخلوة أخصُّ من العزلة وهي بوجوهها وصورها نوع من الإعتكاف لكن لا بالمسجد وربما كانت به وأكثرها عند القوم لا حَدَّ له لكن السُنّة تشير للأربعين كمواعيد موسى. وفي الحديث "**مَن أخلصَ لله أربعين يوماً تفجّرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه**" والقصد في الحقيقة الى الثلاثين اذ هي أصل المواعيد. وجاور المصطفى ﷺ بحراً شهراً كما في مسلم وغيره للكامل زيادة في حاله ولغيره ترقية ولا بد من اصل يرجع اليه، والقصد بها تطهير القلب من ادناس المخالفة وإفراد القلب بذِكر واحد وحقيقة واحدة لكنها بلا شيخ خطرة ولها فتوح عظيم وقد لاتصلح لقوم فليعتبر كل احد بها.

قال الحضرمي: مِن الناس قسم إذا عمل الخلوة لايصلح له شيء واذا ترك نفسه مع ما هو به فتح له مع ذلك من قوة الباطن، وذلك لأن نفس العارف تأخذ من كل شيء بحسبه فإذا أوقفت على شيء واحد تقيّدت. قال التونسي: وكل قلبٍ اشتغل بحالة من الحالات أو مقام من المقامات فهو محجوب عن الرُقي سواء وقف السالك أو سار أو هرول أو طار مالم يحط رجل راحلته بباب الفناء المبلغ كنه المنى. واعلم أن العارف إذا فنى في اللّه حتى صار الحق له سمعاً وبصراً ويداً ورجلاً كما أُشير إليه بقوله ﷺ: "**لايزال عبدي يتقرّب إليَّ بالنوافل حتى أُحبَّه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به**... الحديث. فإن هذه الخلطة خيرٌ له من العزلة لانه ملك دواعي نفسه واستغرقه اللّه في حضرة قدسه فلسانه ترجمان الحضرة الإلهية لاينطق إلاّ بالفتوحات الربانية فهذا الذي نظره كسير وهو في خلطة على خير كثير، وهو الذي اشار اليه الشيخ رضي اللّه عنه بقوله:

(والخلطة للمنتهي زيادة في يقينه) لأنه يستمد من سائر الكائنات، فكل ذرة من

ذرات الوجود يشاهد فيها الواحد المعبود، وفي كل شيء له آية تدلُّ على أنه الواحد، على ان الخلطة إذا سلمت من الآفات كان في طيها سديد الخيرات فإن الإنسان بالخلطة يتأتى له عيادة المرضى وتشييع الجنائز وصِلة الأرحام ومواساة ذي الاعدام وإغاثة اللهفان وزيارة الإخوان وصحبة الأخيار وإرشاد الخَلق الذي هو منصب النبوة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام.

قال بعض العارفين: والحق انه لابد للناس من الناس فربما أنقذ مهجة من التلف فحصل له من اللّه عما فاته في وحدته الخلف سيما إذا كان عالما عارفا باللّه تعالى وبصفاته سالكاً للطريق على يد عارف مسلك فإن هذا خلطته خير له من عزلته لأن النفع المتعدى أفضل من النفع القاصر فلأن يهدي اللّه على يديه احداً خير له من حُمرِ النعم. والحاصل ان القوم اختلفوا هل العزلة والتخلي للعبادة والطاعة أفضل أو الخلطة أفضل، فالذي ذهب اليه جمهور الصوفية كإبراهيم ابن ادهم وفضيل بن عياض واود الطائي وسليمان الخوّاص ومن ذكرناهم سابقاً في فضل العزلة ترجيح العزلة على الاختلاط وأنكروا الصحبة والإئتلاف كما ذكرنا، واستدلّوا على ذلك بما ذكرناه ولما في العزلة من خمول النفس والإعراض عن الدنيا وهو أول طريق الصدق والإخلاص. ويهيج من حب الخلوة الأُنس باللّه تعالى، وقلّة الخلف في المواعيد، وكثرة القوة في كظم الغيظ، والقنوع والتوكُّل، والرضا بالكفاف، وسقوط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والخلاص عن مداهنة الناس ومراياتهم وغير ذلك مما ذكرناه.

وذهب جماعة الى ترجيح الصحبة والخلطة على العزلة ورغّبوا في الخلطة والأُخوّة في اللّه تعالى ورأوا أنّ اللّه تعالى مَنَّ على أهل الإيمان حيث جعلهم إخواناً فقال سبحانه (فأصبحتم بنعمته إخواناً) وقال تعالى (هو الذي أيَّدَك بنصره وبالمؤمنين وأَلَّف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما أَلَّفتَ بين قلوبهم ولكن اللّه أَلَّف بينهم). وورد في الخبر ان احبكم الى اللّه تعالى الذين يألفون ويؤلفون. وقال أبو يعقوب السوسى: الإنفراد لايقوى عليه إلاّ الأقوياء ولأمثالنا الاجتماع أنفع يعمل بعضهم على رؤية بعضهم على رؤية بعض. وقال أبو عثمان المغربي: الخَلوة والسَماع لايصلحان إلاّ لعالم ربّاني. وممن إختار الصُحبة والأُخوة في اللّه سعيد بن المُسَيَّب وعبداللّه بن المبارك وغيرهما من أكابر السلف. قالوا: ومن فوائد الصحبة أنها تفتح مسام الباطن ويكسب

الإنسان منها علم الحوادث والعوارض ويتصلب الباطن برزين العلم ويتمكن الصدق بطروق هبوب الآفات ثم التخلص منها بالإيمان، ويقع بالخلطة التعاضد والتعاون ويتقوى جنود القلب وتستريح الأرواح بالالتئام وتتفق في التوجه الى الرفيق الاعلى ويصير مِثالُها في الشاهد كالأصوات إذا اجتمعت خرقت الأحرام، واذا انفردت قصرُت عن بلوغَ المرام الى آخر ما ذكر في كتب القوم.

وقد وفق الشيخ المصنِّف رضي اللّه عنه بينهما بأن العزلة المحمودة في الشريعة محمودة على حال المبتديء فإنها اسلم وانفع واعظم تأثيراً، والخلطة التي وردت الآيات والاخبار في مدحها أولى بالمنتهي كما ذكرنا، لكن الخلطة مع الخلق وإن كان نفعها عظيم وبِرُّها جسيم تحتاج الى آداب كثيرة. فلهذا قال رضي اللّه عنه:

الأدب مع الخَلق راجعٌ الى الحق، لأن اللّه تعالى أمرَنا بالأدب معهم سيما إذا كان الباعث على الأدب معهم نسبتهم الى حضرة الحق سبحانه وتعالى بالعبودية والملكية، فإن ذلك أدب معه تعالى. وحقيقة الأدب اجتماع خصال الخير ومنه المأدُبة لإجتماع أنواع الطعام عليها. والأدب ينقسم باعتبار طبقات الناس الى ثلاثة اقسام: أدب أهل الدنيا، وأدب أهل الدين، وأدب أهل الخصوص. فأما أهل الدنيا فأكثر آدابهم في الفصاحة والبلاغة وحفظ العلوم وآثار الملوك وأشعار العرب ونحو ذلك. وأما أدب أهل الدين فأكثره في رياضة النفوس وتأديب الجوارح وحفظ الحدود وترك الشهوات. واما أهل الخصوص فاكثر آدابهم في طهارة القلوب ومراعاة الاسرار والوفاء بالعهود وحفظ الوقت وقلة الإلتفات الى الخواطر وحسن الأدب في مواقف الطلب واوقات الحضور ومقامات القرب وهذا ادبهم مع اللّه تعالى، وكمال الأدب لايوصف إلاّ للانبياء والصديقين كما قال اللّه تعالى (مازاغَ البصرُ وماطغى) قيل معناه حفظ آدب الحضرة. وأمّا الأدب مع الخَلق فعبارة عن معاشرتهم بالنصح لهم كافّة، وأن يوقِّرَ كبيرهم ويَرحَمَ صغيرهم ويُحبَ لهم ما يحبُّ لنفسه من الخير ويميطُ الأذى عن ظاهرهم وأعمالهم بالموعظة والزجر ولايذكُرَ احداً بما يكره، فإنَّ لله ملكاً وُكِّل بالعبد يردُّ عليه ما يقول لصاحبه، ولايستبشِر بمكروه أحد من الناس كائناً من كان، قال ﷺ: **"مَثَلُ المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثلِ الجسد إذا اشتكى بعضه تداعى سائره بالسهرِ والحُمّى"**. وليتودَّد الى الناس بالإحسان الى بَرِّهم وفاجرهم، والى مَن هو أهل والى مَن ليس بأهلٍ

له. ومِن الأدب معهم ان يتحمّل الأذى منهم ويجعل مَن شتمه أو جفاه أو آذاه في حِلٍّ منه، ولايطمع في السلامة ممن آذاهم فإن اللّه تعالى لم يقطع لسان الخَلق عن نفسه فأنى يسلمُ خلق من مخلوق مثله فقد (روي أنَّ موسى عليه السلام قال: إلهي أسألك أن لايُقال لي ما ليس فيَّ، فأوحى اللّه تعالى إليه ما فعلت ذلك لنفسي فكيف افعل لك)، ويتحمل ثقل الناس ومؤنهم طوعاً واختياراً شكراً لنعم اللّه تعالى عليه، ويسعى في قضاء حوائجهم ففي الحديث "مَن سعى في حاجةٍ لأخيه المسلم للّه تعالى فيه رضاه وله فيها صلاح، فكأنّما خدمَ الله تعالى ألف سنةٍ لم يقع في معصيةِ طرفةِ عين".

ومن الأدب معهم ان يُيَسِّرَ على مُعسرِهم وينفِّس على مكروبهم، فإن اللّه تعالى في عون العبد مادام العبد في عون أخيه المسلم. وفي الحديث ان من موجبات المغفرة إدخال السرور على قلب أخيك المسلم. ويتشفع للجاني الى المجني عليه، ويسعى في إصلاح ذات البين ولو بزيادة كلمة فإنه من أفضل الصدقة، قال عليه الصلاة والسلام: "أفضل الصدقة إصلاح ذات البين"، وقال عليه الصلاة والسلام: "إتقوا اللّه واصحلوا ذات بينِكم فإن اللّه تعالى يُصلح بين المؤمنين يوم القيامة"، وقد قال عليه السلام: "ليس بكذّاب مَن اصلح بين إثنين فقال خيراً".

وكذلك من جملة الأدب معهم ان يذُبَّ عن اعراض المسلمين وينصرهم بظاهر الغيب حيث ينتهك حرماتهم لقوله عليه الصلاة والسلام: "ما مِن إمريء مسلم يردُّ عن عرضِ أخيه المسلم إلاّ كان حقاً على اللّه ان يردَّ عنه نار جهنم يوم القيامة". ومن الأدب معهم أن يعفو عَمَّن ظلمه قال تعالى (والكاظمين الغيظَ والعافين عنِ الناس)، ويحسن لمن أساء اليه ويصل مَن قطعه ويعطي مَن حرَمه ويحسن الظن به فإن الظنَ أكذَبُ الحديث. ولايحسد احداً على ما آتاه اللّه تعالى فيتمنى زواله ويحتال لزواله، ويتجافى عن ذنب السخي وعن عقوبة ذوي المروءة ما لم يكن حدّاً من حدود اللّه تعالى. وينجز الوعد إذا وعد فإن العدة احدى العطيتين وهي عند أهل اللّه دَين وإنَّ خَلَفَ الوعد من النفاق، ولايتبع عورة أحد بل يسترها، ولايعيّر احداً بما يعلم منه فربما يُبتلى بمثله. ويطلب لزلّة أخيه سبعين عذراً فإن لم يجد إتهمَ نفسه، ويحمل المسلمين على الأمر الرشيد عنده وأمثال ذلك كثيرة والكتب في الأدب شهيرة. ومن أحل ما ألف في كتب الأدب بقسميه رسالة العارف باللّه سيدي علي المصري رضي اللّه عنه التي يقول في أولها:

عليكم بالأدب فإنه اشرف مكتسب، ومنه الفرار من الإعوجاج في التوبة الى آخر ما ذكره وهي عديمة المثيل في هذا الباب.

ومن جملة الأدب الجامع لقسميه الأدب مع الخلق والأدب مع الحقّ: تركُ الطمع فيما في أيدي الناس، فلهذا قال المصنِّف رضي اللّه عنه:

والطمعُ في الخلق شكٌّ في الخالق. الطمع عبارة عن إنبعاث النفس لما في أيدي الناس، وإنما كان شكا لأن الإنسان لو اعتمد على ضمان اللّه لرزقه لما طمع في مخلوق، فطمعهُ دليلٌ على عدم وثوقه باللّه، فهو شبيه بالشك من حيث تعلُّق النفس وإضطرابها وعدم قرارِها على شيء تعتمد عليه. وهذا هو الطمع المذموم. أما المحمود فهو الطمع في عفو اللّه ونيل القُرب منه الموجِبُ ذلك للذل والإنكسار والإفتقار إليه تعالى. فإذا علق العبد أطماعه بما عند اللّه تعالى وقطعها عما سواه، فهو القانع صاحب الحياة الطيبة المرادة في آية (**فلَنُحيينَّه حياةً طيبة**) عند بعض المفسرين.

وقد ورد في المذموم منه عدة احاديث منها قوله ﷺ: "**إيّاكم والطمع فإنَّه الفقر الحاضر**". وعنه ﷺ: "**عليكَ بالأَياسِ مما في أيدي الناس، وإيّاك والطمع فإنه الفقر الحاضر وصل صلاتك وانت مودِّع، وإيّاك وما يُعتذر منه**"، وعنه ﷺ: "**الطمعُ يُذهبُ الحِكمة مِن قلوبِ الحكماء**". قال المناوي في كبيره: ولهذا قال كعب الأحبار بحضرة عمر رضي اللّه: ما يُذهبُ العلم من قلوب العلماء بعد أن حفظوه وعقلوه؟ قال الطمع وشَرَهُ النفس وطلبُ الحاجة الى الناس. وقال الورَّاق: لو قيل للطمعِ مَن ابوك؟ لقال الشكُّ في المقدور، ولو قيل ما حِرفتُك؟ لقال إكتساب الذُلّ، ولو قيل ما غايتك؟ لقال الحرمان.

وقال بعضهم: الطمع حروفه مجوفة، فلذا كان صاحبه لايشبع. وقد إستعاذ ﷺ من نفسٍ لاتشبع، وقال ﷺ: "**مَنهومان لايشبعان، مَنهومٌ في العلم لايشبع ومَنهوم في الدنيا لايشبع**". فنَهمة صاحب العلم محمودة، وكذا طمعه في الإستكثار منه، ونَهمة الثاني مذمومة لأنها تشغله عن اللّه تعالى. وقال ﷺ: "**الصفاء الزَلاّل الذي لاتثبت عليه أقدام العلماء**" الطمَعُ والصفا بالقصر الحجارة الملسة جمع صفاة (كحصا وحصاة) ويطلق أيضاً على المفرد، والزَلاّل بفتح الزاي وتشديد اللام الاولى وإنما لم تثبت اقدام العلماء على الطمع لأنه يُذهب الحكمة من قلوبهم إذ الشيطان رصّاد لهم فيدعوهم

للطمع حتى يشتغلوا عن اللّه تعالى بالكدورات وطول الغموم في التدبيرات الى إنقضاء اعمالهم على تلك الحال، فيكون علمهم عليهم لا لهم.

قال الشافعي رضي اللّه عنه: كتب حكيم الى حكيم قد اوتيت علماً فلا تدنّس علمك بظلمة الذنوب والطمع، فتبقى في الظلمة يوم يسعى أهل العلم بنور علمهم. وقال الراغب العالم: طبيب الدين والدنيا داء الدين فإذا جرَّ الطبيب الداء الى نفسه فكيف يداوي غيره؟ وقال بعضهم: الطمع هو الذي يذلّ الرقاب ويسوِّد الوجوه ويُميت القلب، وعلاجه سلوكه طريق القناعة ويحصل بسدٍّ باب التوسعات والإقتصار على ما لابد منه مأكلاً وملبساً ومسكناً وغير ذلك.

وقال أبو جعفر البغدادي: ستُ خصال لاتحسنَّ بستِّ رجال؛ لايحسن الطمع في العلماء، ولا العجلة في الأمراء، ولا الشحُّ في الأغنياء ولا الكِبَرُ في الفقراء، ولا السُفهُ في المشايخ، ولا اللؤم في ذوي الإحسان. واعلم أنَّ الطمعَ من آفات النفوس وصاحبه ابداً في عُكوس، قال ابن عطاء اللّه في حكمه: ما بسقت أغصانُ ذُلٍّ إلاّ عن بذر طمع، فالطمع يكسف نور الايمان، وبالطمع تنكشف قدر همّة الإنسان وغاية أمره الحرمان والذُلّ والهَوان، فالعاقل مَن أفردَ ربّه بالطلب واعرضَ عن الخلق وعن كل سبب، هذا هو الحازم على التحقيق الفائز بحظه من التوفيق، هذا ومن الناس مَن يستطيب ركوب الأخطار ولحوق العار والشَنار لأجل الطمع في الدرهم والدينار، ويستلذُّ سَفَّ الرماد وطيَّ البلاد، ويصبر على نحت الجبال طمعاً في شهوة المبال، وربما بدَّل الإيمان بالكفر، وحفر الجبال بالظفر طمعاً في الدنانير الصُفر، وولج ماضغي الأُسود للدراهم البيض والسود. وسُئِلَ الحسن البصري ما فساد الدين؟ فقال: الطمع. قيل وما صلاحه؟ قال: الورع. وقال ابن عطاء اللّه: أنت حرّ ممن أنت عنه آيس وعبدٌ لما أنت له طامع. وعليه قيل:

العبد حرٌّ ما قنَع، والحُرُّ عبد ما طمع

ولا يرضى بالعبودية لمخلوق إلاّ اَرذلُ العالَم. وقيل: السلامة في الدين بترك الطمع في المخلوقين. فمن تفرغ قلبه من الاشياء فقد تحرّر، ومن طمَعَ فيها فهو في رقِّها تقرَّر. فبالطمع سقط من علو عزة العُقاب وتشبّك في حبائل العذاب لأجل قطعة لحم يأخذها بمخلبه فيصيده صبي يلعب به. وقيل: لو تطهّر الطامع في الخلق بسبعة أبحر ما

طهّره إلاّ اليأس منهم. فعليك برفع الهمّة عنهم، فقد سبقت قسمته وجودك، وما قدر لماضغَيك ان يمضغاه، فلابد منه فكلُهُ بعزٍّ ولاتأكله بذُلّ. قيل: مرَّ بعض أعوان السلطان على بعض الحكماء يلتقط ما سقط من البقل ليتقوّت به، فقال له: لو خدمتَ السلطان لم تحتج لهذا، فقال الحكيم: وأنت لو قنَعتَ بهذا لم تحتج الى السلطان.

وقد وضع تعالى خمسة أشياء في خمسة مواضعك الغِنى في القناعة، والعزّ في الطاعة، والذُلّ في المعصية، والحكمة في خلوِّ الباطن، والهيبة في قيام الليل. واعلم أنّ مِن لازم الطمع في الخلق محبة إطلاع الناس على كمالات الطامِع وعباداته ومجاهداته وهذا هو الشرِك الخفي الذي لايشعُر به إلاّ أرباب القلوب النَيِّرة. فلهذا حذّرَ المصنِّف منه عقب ذلك فقال:

واحذر مِن الشرِك الخفيّ ولو كنت في الخَلوة. إعلم أنّ الشرك على قسمين جليّ وخفي؛ فالأول هو الموجِب للخلود في النار والعياذ باللّه من ذلك واقسامه كثيرة وأعظمه ان يتخذ مع اللّه الها آخر. والثاني؛ وهو الشِرك الخفي يوجِب نقص الإيمان ولايضر في أصله وانما يحبِط العمل الذي قارنه فقط، وهذا الشرك لايكاد يسلم منه احد إلاّ مَن عصمه اللّه تعالى. فقد ورد في بعض الآثار: الشرِك في أمتي أخفى من دبيب النمل في الليلة الظلماء. وقد قال بعضهم في تفسير قوله تعالى (**وما يؤمنُ أكثرهم باللّه إلاّ وهم مشرِكون**) قال: يؤمنون بالإقرار أنّ اللّه وحده لا شريك له ويشركون في الإعتماد على الأسباب ورد الأفعال إليها وأنما يتحقق المريد الحذر من الشرك الخفي بالإخلاص في أفعاله كلِّها وأقواله وحركاته وسكناته، وهو كما قال الأستاذ أَبو القاسم القشيري: الإخلاص إفراد الحق سبحانه وتعالى في الطاعات بالقصد، وهو أن يريد بطاعته التقرّب الى اللّه تعالى دون شيء آخر من تصنّع لِمخلوق وإكتساب مَحمَدةٍ عند الناس أو محبة مدح الخلق أو معنى من المعاني سوى التقرّب الى اللّه تعالى.

ويصح ان يُقال الإخلاص تصفية العمل عن ملاحظة المخلوقين، قال تعالى (**وما أُمِروا إلاّ ليَعبدوا اللّهَ مخلصين لهُ الدين حُنفاء**). وقد ورد خبرٌ مُسند أن النبي ﷺ أخبر عن جبريل عن اللّه عزَّ وَجلّ أنه قال: الإخلاص سرٌّ من سرّي إستودعته قلب مَن أحببتُه من عبادي. والإخلاص في الإخلاص أن لايشاهدوا في إخلاصهم الإخلاص كما قال أبو بكر الدقّاق: نقصان كل مخلص في إخلاصه رؤية إخلاصه فإذا أراد اللّه تعالى أن يخلُصَ

إخلاصه أسقَطَ عن إخلاصه رؤيته لإخلاصه فيكون مخلصاً، ولهذا كان المخلصون على خطر عظيم. وعلامة الإخلاص كما قال ذوالنون المصري ثلاث: إستواء المدح والذم من العامة، ونسيان رؤية الأعمال في الأعمال، وإقتضاء ثواب العمل في الآخرة. وقال السري السقطي رضي اللّه تعالى عنه: مَن تزيّن للناس بما ليس فيه سقط من عين اللّه عزَّ وجلّ. وإنما قال الأستاذ في حكمته (ولو كنتُ في الخلوة) إشارة الى ان الشرك الخفي لايختص بأرباب الخلطة بل يعتري أهل الخلوة أيضاً لأن الشيطان له بالمرصاد. فأقلُّ مايكون شركُهُ محبته لإطلاع الناس على عبادته ومجاهدته في خلوته وذلك شرك خفي قطعاً. وهذا كما قال ابن عطاء اللّه في حكمه: ربما دخل الرياء عليك حيث لاينظر الناس إليك، فلابد له من المجاهدة والدأب على تصفية عمله من هذه الشائبة فإنها تحبط العمل بحسب مقام العارف. قال اللّه تعالى (**فَمَن كان يرجو لقاء ربهَّ فليعمل عملاً صالحا ولايشرك بعبادةِ ربّه أحداً**).

ومن جملة الشرك الخفي في الخلوة أن يختلي لإعتقاد الناس فيه وتعظيمهم له فإن ذلك محبط لعمله بحسب مقامه، وقال بعضهم: دخلت على سهل بن عبداللّه يوم جمعة قبل الصلاة فرأيت في البيت حيّة فجعلت أُقدِّم رِجلاً وأُؤخر أخرى فقال: ادخل لايبلغ أحدٌ حقيقة الإيمان وعلى وجه الأرض شيء يخافه. ثم قال: هل لك في صلاة الجمعة؟ فقلت بيننا وبين المسجد مسيرة يوم وليلة. فأخذ بيدي فما كان إلاّ قليل حتى رأيت المسجد فدخلناه وصلّينا ثم خرجنا فوقف ينظر الى الناس وهم يخرجون فقال: أهل لا إله إلاّ اللّه كثير والمخلصون منهم قليل. وللإخلاص سرٌ عظيم في تعمير الباطن والنطق بالحكمة، فقد ورد: مَن أخلَصَ للهِ أربعين صباحاً تفجّرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه. وقد ذكر صاحب الرسالة عن يوسف ابن الحسين انه كان يقول: أعزُّ شيء في الدنيا الإخلاص وكم أجتهدُ في إسقاط الرياء عن قلبي وهو كأنه ينبت فيه. وكان أبو سليمان يقول: إذا أخلص العبد إنقطع عنه الوساس والرياء.

ولما كان الإخلاص لايتأتّى إلاّ بإصلاح النيّة قال الشيخ رضي اللّه عنه: لأنه - أي الحال والشان - إذا ما خلُصت لك النيّة فذلك من أكبر المصائب والبلوة؛ يعني إذا لم تخلص نيّتك في عملك للّه بأن تجعله خالصاً لوجهه الكريم من سائر الشوائب والأكدار فانت في مصيبة وأيّ مصيبة وبلوة وخيبة، فما في قوله إذا ما نافيه على القاعدة

الأكثرية من أن (ما) بعد إذا زائدة. والنية في العمل هي الركن الأجَلّ إذ لا عمل إلاّ بنيّة. وقد ورد في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ انه قال: "**إنما الأعمال بالنيّات وإنما لكلِّ إمريءٍ ما نوى فمَن كانت هجرته الى اللّه ورسوله فهجرته الى اللّه ورسوله، ومَن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو إمرأة ينكحها فهجرته الى ما هاجر إليه**". وقال اللّه تعالى (**لن ينالَ اللّه لحومَها ولا دماؤها ولكن ينالُهُ التقوى منكم**) قال ابن عباس رضي اللّه تعالى عنهما: معناه ولكن ينالهُ النيآت منكم.

وقال تعالى (**ومَن يخرج من بيته مهاجراً الى اللّه ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على اللّه**)، وقال تعالى (**ربُّكُم أعلم بما في نفوسكم**). وقد ورد أحايث كثيرة في اصلاح النية اجلُّها واعظمها الحديث السابق وعليه مدار كثير من قواعد الفقه حتى قال الإمام الشافعي رضي اللّه عنه: يدخل هذا الحديث في سبعين باباً من الفقه. وقال الإمام احمد بن حنبل رضي اللّه عنه: فيه ثلثُ العلم. وقد ورد في الحديث الصحيح عن عائشة رضي اللّه عنها قالت: قال رسول اللّه ﷺ: "**يغزو جيش الكعبة حتى إذا كانوا ببيداءَ من الأرض يُخسَف بأولهِم وآخرِهم. قالت عائشة قلت: يارسول اللّه كيف يخسف بأولهم وآخرهم وفيهم أسواقهم ومن ليس منهم؟ قال: يُخسَف بأولهِم وآخرِهم ثم يبعثون على نيّاتهم**" يعني فيعامل كلٌّ بقصده ونيّته من الخير والشرّ. وعن عائشة رضي اللّه عنها قالت: قال النبي ﷺ: "**لا هجرة بعد الفتح ولكن جهادٌ ونيّة وإذا إستنفرتم فإنفروا**" يعني أن المفارقة عن الاوطان المسمّاة بالهجرة المطلقة إنقطعت لكن المفارقة بسبب الجهاد باقية مدى الدهر. وكذا المفارقة بسبب نية خالصة للّه تعالى كطلب العلم والفِرار بدينه ونحوه. وعن أبي عبداللّه جابر بن عبداللّه الأنصاري رضي اللّه عنهما قال: كنا مع رسول اللّه صلّى الله عليه وسلم في غزاة فقال: "**إن بالمدينة لرجالاً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلاّ وكانوا معكم حَبَسَهُم المرض**" وفي رواية إلاّ شاركوكم في الأجر.

والحاصل أن النيّة الحسنة عليها مدار العمل للعامل والقاصد والأمور بالمقاصد ولايتأتّى للمريد الصادق إخلاص العمل للّه من سائر الوجوه والتبرّي من الشرك الخفي إلاّ بقطع طمعه من الناس وعدم ملاحظتهم حتى كأنهم لديه أموات. ولايتاتّى له ذلك إلاّ إذا تردّى برداء القناعة وتسربل بسربالِ اليأس مما في أيدي الناس. فلهذا قال رضي

اللّه تعالى عنه:

اقنع بالقليل إن كنت عاقلاً. والقناعة في اللغة الرضاء بالقسم، وفي إصطلاح أهل الحقيقة هي السكوت عند عدم المألوفات. وقيل هي الإكتفاء بالقليل، وقيل هي الإستغناء بالموجود وترك التطلّع الى المفقود. وقال عكرمة وغيره من أئمة اللغة والتفسير في قوله تعالى (مَن عَمِلَ صالحاً من ذكر أو انثى وهو مؤمن فَلَنُحيّيَنّهُ حياةً طيبةً): أن المراد بالحياة الطيبة القناعة. وقيل في قوله تعالى (لَيَرزقَنَّهُم اللّه رزقاً حسناً) أنه القناعة. وقيل في قوله تعالى (إنما يريدُ اللّه ليُذهِبَ عنكُم الرِجسَ أهلَ البيت) أي البخل والطمع، وقوله (ويطهِّركم تطهيراً) أي بالسخاء والقناعة، وقيل بالسخاء والإيثار. وقيل في قوله تعالى (هَبْ لي مُلكاً لاينبغي لأحدٍ من بعدي) أنه اراد بالمُلك كمال الحال في القناعة. وقيل في قوله تعالى (إن الأبرارَ لفي نعيم) أنه القناعة في الدنيا (وإنَّ الفُجّارَ لفي جحيم) أنه الحرص في الدنيا. وقال النبي عليه الصلاة والسلام: "إرضَ بما قسَّم اللّهُ لك تَكُنْ أغنى الناس". وفي الزبور القانع غني وإن كان جائعاً. وقال رسول اللّه ﷺ: "القناعة كنزٌ لايفنى"، وقال ﷺ: "كُن ورعاً تكُن أعبدَ الناس، وكُن قَنعاً تكن أشكرَ الناس، وأحِبَّ للناس ما تحبُّ لنفسكَ تكُنْ مؤمناً، وأحسِن مجاورة مَن جاَورك تكُن مسلماً، وأقلّ الضحك فإن كثرة الضحك تُميتُ القلب".

وقيل الفقراء أموات إلاّ مَن أحياه اللّه بعزِّ القناعة. وقال بِشرٌ الحافي: القناعة ملك لايسكن الا في قلب مؤمن، وقال ابو سليمان الداراني رضي الله عنه: القناعة من الرضا بمنزلة الورع من الزُهد، هذا أول الرضاء وهذا أول الزُهد. وقيل القناعة ما قاله أبو بكر المراغي: العاقل مَن دَبَّرَ أمر الدنيا بالقناعة والتسويف. وقال وهب: إن العزَّ والغنى خرجا يجولان فلقيا القناعة فاستقرا. وقيل: مَن كانت قناعته سمينة طابت له كل مرقة. وعن النبي صلّي الله عليه وسلم قال: "ليس الغِنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس". وعن عبداللّه بن عمر رضي اللّه عنهما أن رسول اللّه ﷺ قال: "قد أفلح مَن أسلم ورُزِقَ كَفافاً وقنّعه اللّه بما أتاه" رواه مسلم.

واعلم أن القناعة في ذاتها شريفة ممدوحة في الكتاب والسُنّة وهي في العلماء أشرف كما ورد في بعض الأحاديث: الورع حسَنٌ وهو في العلماء أحسن. لأن بالقناعة

والتعفُّف عما في ايدي الناس يحصل لهم العِزُّ والشرف، وفي عِزِّهم وشرفهم عِزُّ العلم والإسلام وشرفهما. قال الفُضيل بن عياض: لو ان أهل العلم أكرموا انفسهم وشحّوا على دينهم واعزّوا العلم وصانوه وانزلوا العلم حيث انزله اللّه لخضعت لهم رقاب الجبابرة وانقادَ لهم الناس وكانوا لهم تبعاً وعَزَّ الإسلام أهله، ولكنهم أذلّوا أنفسهم ولم يبالوا بما نقص من دينهم إذ سلمت لهم دنياهم فبذلوا علمهم لأبناء الدنيا ليصيبوا بذلك مافي أيدي الناس فذَلّوا وهانوا على الناس، وللّه دَرُّ القائل:

يقولون لي فيك انقباضٌ وإنما — رأوا رجلاً عن موقفِ الذل أحجما
إذا قيل هذا موردِ قلت قد أرى — ولكن نفس الحرِّ تحتَملُ الظما
وما كلُّ برقٍ لاح لي يستفزُّني — وما كلُّ أهل الأرض أرضاه مُنعما
ولم أبتذل في خدمة العلم مهجتي — واخدم مَن لاقيت إلاّ لأخدما
أأغرسه عِزّاً وأجنيه ذلّةً — إذاً فاتّباعُ الجهلِ قد كان أسلما
ولو ان أهلَ العلم صانوه صانَهم — ولو عظموه في النفوس لعظما
ولكن اهانوه فهان ودنسوا — محياه بالاطماع حتى تجهما

وقال وهب بن منبّه لعطاء الخراساني: كان العلماء قبلنا قد إستغنوا بعلمهم عن دنياهم وكانوا لايلتفتون إلى دنيا غيرهم، وكان أهل الدنيا يبذلون لهم دنياهم رغبة في علمهم فأصبح أهل العلم فينا اليوم يبذلون لأهل الدنيا علمهم رغبة في دنياهم واصبح أهل الدنيا قد زهدوا في علمهم لما رأوا من سوء موضعه عندهم. قال ذو النون المصري: كان الرجل ينفق ماله على علمه ويكسب الرجل اليوم بعلمه مالاً، وكان يُرى على طالب العلم زيادة في باطنه وظاهره، فاليوم يُرى على كثير من أهل العلم فسادٌ في الظاهر والباطن.

فانظر رحمك اللّه ما ذكره هؤلاء الفضلاء تجده لازماً لطلبة هذا الزمان وليس الخير كالعَيان وما هذا إلاّ لعدم قناعتهم بالموجود وتطلبُّهم الى المفقود وانتظارهم لما في أيدي الناس فلا حول ولاقوة إلاّ باللّه العلي العظيم. ولقد صدق ابن المبارك حيث قال:

وهل أفسد الدين إلاّ الملوك — وأحبار سوءٍ ورُهبانها
وباعوا النفوس ولم يربحوا — ولم تغلِ في البيع أثمانُها
لقد رَتعَ القوم في جيفةٍ — يبين لذي العقل انتنانُها

وروي عن حذيفة بن اليَمان رضي اللّه عنه أنه أخذ حصاةً بيضاء فوضعها في كفه ثم قال: إن الدين قد إستضاء كإضاءة هذه، ثم أخذ كفاً من تراب فجعل يذره على الحصاة حتى واراها ثم قال: والذي نفسي بيده ليجيء أقوام يدفنون الدين هكذا كما دفنتُ هذه الحصاة ولتسلكُنَّ سبيل الذين كانوا من قبلكم حذو القدة بالقدة والنعل بالنعل.

قال بعض العارفين: ومنشأ وجود هذه المفاسد خراب بواطنهم وظلمة قلوبهم بسبب فَقد اليقين وإنكساف أنوار الإيمان فيها وإفلاسهم من حقائق ذلك وعدم احتظائهم بشيء منه، فصاروا بذلك مأسورين لأهوائهم منقادين لأغراضهم وآرائهم ففسدت بذلك نياتهم ومقاصدهم، والأعمال بالنيّات وإذا كانت النيّات صالحة كانت الأعمال صالحة وترتّب عليها آثار صالحة وانعطف من ذلك على القلوب مزيدُ إشراق وحميدُ أخلاق ويؤذِن ذلك وجود القُرب من اللّه تعالى وَنيلُ درجة الحبّ منه، وإذا كانت النيّات فاسدة كانت الأعمال فاسدة أيضاً وترتّب عليها آثار فاسدة وانعطف من ذلك على القلوب زيادةُ ظلمة ورَداءة همّة تقتضي البُعد من اللّه والمَقت منه نعوذ باللّه تعالى من شر أنفسنا والشيطان. وقيل: وضع اللّه خمسة اشياء في خمسة مواضع؛ العزّ في الطاعة والذلّ في المعصية والهيبة في قيام الليل والحكمة في البطن الخالي والغِنى في القناعة. وكان ابراهيم المارستاني يقول: انتقم من حرصك بالقناعة كما تنتقم من عدوك بالقصاص. وقال ذوالنون المصري: مَن قَنع استراح من أهل زمانه واستطال على أقرانه. وقيل: مَن قَنع استراح من الشغل واستطال على الكلّ. وقال الكتّاني: مَن باع الحرص بالقناعة ظفر بالعزّ والمروءة. وقيل: مَن تبعت عيناه ما في أيدي الناس طال حزنه وانشدوا:

وأحسن بالفتى من يوم عار ... ينال به الغنى كرم وجوع

وقيل: رأى رجل حكيماً يأكل ما يتساقط من البقل على رأس ماء، فقال: لو خدمت السلطان لم تحتج إلى أكل هذا، فقال الحكيم: وانت لو قنعت بهذا لم تحتج الى خدمة السلطان. وقيل لأبي يزيد البسطامي: بمَ وصلت؟ فقال: جمعت أسباب الدنيا فربطتها بحبل القناعة ووضعتها في منجنيق الصدق ورميت بها في بحر اليأس فاسترحت.

وحكي عن بعض اصحاب الجُنيد قال: كنتُ جالساً عند الجُنيد أيام الموسم وحوله جماعة كثيرة من العجم والمولدين فجاء انسان بخمسمائة دينار ووضعها بين يديه وقال: تفرّقها على هؤلاء؟ فقال ألكَ غيرُها؟ فقال: نعم لي دنانير كثيرة، فقال: تريدُ غير ما

تملك؟ فقال: نعم، فقال الجنيد: خذها فإنك أحوج إليها منا، ولم يقبل تلك الدنانير من الرجل. وورد في بعض الاحاديث: القناعة مالٌ لاينفد؛ أي لأنها تنشأ عن غنى القلب وقوة الإيمان. وقيل لبعض الحكماء: ما القناعة؟ فقال: قلّة تمنّيك ورضاك بما يكفيك. وقال بعضهم: وجدت أطول الناس غمّاً الحسود، وأهنأهم عيشاً القَنوع، وأصبَرَهُم على الأذى الحريص إذا طمع، وأخصبهم عيشاً أرفضهم للدنيا، وأعظمهم نَدَامة العالم المفرِّط آه. فمَن قنع أُمِدَّ بالبركة ظاهراً وباطناً لأن الإنفاق منها لاينقطع إذ صاحبها كلما تعذّر عليه شيء قَنِع بما دونه ورضيَ، فلا يزال غنياً عن الناس. ولذلك قال عثمان لإبنه: يا بُنيّ الدنيا بحر عميق غرق فيها أُناس كثير فاجعل سفينتك فيه القناعة.

واعلم أن القناعة انما تطلب في الامور الدنيوية، أما الامور الآخروية كمعرفة اللّه تعالى وفعل الطاعات فالمطلوب الإكثار من ذلك، قال اللّه تعالى (وقل ربِّ زدني علماً) وقوله (إن كنت عاقلاً) أي زاهداً في الدنيا مقبلاً على الآخرة، فإن العاقل الكامل مَن كان كذلك. ولهذا قال الامام الشافعي رضي اللّه تعالى عنه: لو أوصى إنسان بوصية للعقلاء انما تنصرف للزاهدين في الدنيا. وللعقل إطلاقات أحدُها الوصف المعنوي الذي يفارق به الإنسان سائر البهائم، وهو الذي استعد به لقبول العلوم النظرية وتدبير الصناعات الخفية الفكرية، وهو المراد بقول بعضهم غريزةٌ يتهيأ بها إدراك العلوم النظرية وكأنه نور يُقذف في القلب به يستعد لإدراك الأشياء. والثاني العلم بجواز الجائزات وإستحالة المستحيلات كالعلم بأن الإثنين أكثر من الواحد، وأن الواحد لايكون في مكانين وهو الذي عناه بعض المتكلمين بقوله في حد العقل أنه بعض العلوم الضرورية كالعلم بجواز الجائزات وإستحالة المستحيلات. والثالث علوم تُستفاد من التجارب بمجاري الاحوال، فإن مَن حَنّكتهُ التجارب وهذّبتهُ المذاهب يقال أنه عاقل في العادة، ومَن لايتصف بذلك يقال انه غبي غرّ جاهل. والرابع أن تنتهي قوة تلك الغريزة الى ان يعرف عواقب الامور ويقمع الشهوة الداعية الى اللذة العاجلة ويقهرها، فإذا حصلت هذه القوة سُمي صاحبها عاقلاً لأن إقدامه وإحجامه حينئذ يصيران بحسب ما يقتضيه النظر في العواقب لا بحكم الشهوة العاجلة؛ وهذا هو المراد في غالب الأحاديث كما في قوله ﷺ لأبي ذر: "ازدَد عقلاً تزدَد من ربّك قرباً، فقال: بأبي أنت وأمي وكيف لي بذلك؟ فقال: صلى اللّه عليه وسلم: اجتنب محارم اللّه تعالى وأدِّ فرائض

اللّه سبحانه تكُن عاقلاً واعمل بالصالحات من الأعمال تزدَد في عاجل الدنيا رِفعة وكرامة وتنل بها من ربك عزَّ وجلّ القرب والعِزّة".

وعن سعيد بن المسيب أن عمر وأُبَيّ بن كعب وابا هريرة رضي اللّه عنهم دخلوا على رسول اللّه ﷺ فقالوا: يا رسول الله من أعلم الناس فقال العاقل قالوا فمَن أعبَدُ الناس؟ فقال: العاقل، قالوا: فمَن أفضل الناس؟ فقال: العاقل، قالوا أليسَ العاقل مَن تمت مروءته وظهرت فصاحته وجادَت كفُّهُ وعظُمت منزلته؟ فقال صلى اللّه عليه وسلم: إن كل ذلك لمّا متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربِّك للمتقين إن العاقل هو المتّقي وإن كان في الدنيا خسيساً ذليلاً". وفي حديث آخر: "إن العاقل مَن آمن باللّه وصدَّقَ برسله وعمل بطاعته". وعن عمر عن النبي ﷺ قال: "أهلُ الجنّة بعد المرسَلين أفضلهم عقلاً وأفضل الناس اعقلُ الناس". وعن عمر عن النبي ﷺ: "الجنّة مائة درجة تسعة وتسعون لأهل العقل ودرجة لسائر الناس الذين دونهم". وعن جابر عن النبي صلّى الله عليه وسلم أنه قال: "بينما عابد في بني اسرائيل في صومعته إذ أشرف فنظر الى العشب فقال يا ربِّ لو كان لك حمار لكنت أعلفه من هذا العشب، فهَمَّ نبيٌّ من الأنبياء أن يقتله فأوحي اللّه تعالى إليه أن دعه فإني لستُ أُعطيه من الجنة إلاّ على قدر عقله". وعن عمار عن النبي ﷺ قال: "سألتُ جبريل ما السؤدد في الناس؟ قال: العقل".

وعن جابر عن النبي ﷺ قال: "قوام المرء عقله ولا دينَ لمن لا عقلَ له"، وعن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: "لكلِ شيء آلةٌ وعُدّة وان آلة المؤمن وعدته العقل". وعن الحسن: هجران الأحمق قُربان عند اللّه تعالى. وعن النبي ﷺ: "الصُحبةُ مع العاقل زيادة، والصُحبة مع الأحمقِ نُقصان في الدنيا وحسرةٌ وندامةٌ عند الموت وخسارةٌ في الآخرة". وعن ابي بكر الصديق رضي اللّه عنه عن النبي ﷺ أنه قال: "العقل لا غايةَ له ولكن من أحلَّ حلالَ اللّه وحرّم حرام الله سُمّي عاقلاً، فإن إجتهد بعد ذلك سُمي عابداً، فإن اجتهد بعد ذلك سُمّي جَواداً". وعن علي عن النبي ﷺ أنه قال: "يا علي إذا إكتسب الناس أنواع البرّ ليتقربوا بها الى اللّه تعالى فاكتسب أنت انواع العقل تسبقهم بالزَلف والقرب والدرجات في الدنيا والآخرة". وعن عائشة عن النبي ﷺ أنه قال:"أول ما خَلَقَ اللّهُ العقل قال له أقبِل فأقبلَ ثم قال أَدبِرْ فأدبَرَ ثم قال ما خلقت

شيئاً أحسنَ منك بكَ آخذ وبكَ أُعطي". قال بعض العارفين معنى قوله "أقبل فأقبَل ثم قال أدبر فأدبَر" كُن آلة وعُدة صالحة للمقبِل فيكتسب بكَ السعادة الأبدية فصار له آلةً صالحةَ وعُدة وعوناً له على شأنه، وكذلك في المُدبِر الذي كتب له الشقاوة فكان آلة صالحة له ولساناً أيضاً هادياً له الى سيئات الأعمال واقتراف المعاصي الى أن يوصله الى الدرك الأسفل من درجات الجحيم. فلهذا قال "بك آخذ وبك أُعطي" فافهم.

واعلم أن العقل أول ما يبدو إشراقة عند سنّ التمييز ثم لايزال ينمو ويزداد شيئاً فشيئاً على التدريج إلى أن يتكامل بقرب الأربعين سنة كنور الصبح، فإن أوائله يخفى حتى يشقّ ادراكه ثم يأخذ في الزيادة الى أن يكمل بطلوع الشمس، بل سُنّة اللّه في جميع خَلقه بالتدريج شيئاً فشيئاً فإن الشهوة لاتظهر في الصبي عند البلوغ بغتة بل على التدريج وكذلك جميع الصفات، وهو متفاوت في الناس تفاوتاً عظيماً حتى قيل ألف كألف وواحد كألف. ودليل تفاوته اختلافهم في فهم العلوم وإنقسامهم الى بليد لايفهم إلاّ بعد تعب، وذكي يفهم بأدنى اشارة، وكامل ينبعث في نفسه حقائق امور دون تعلم كالأنبياء عليهم الصلاة والسلام وبعض الاولياء.

وروي أن ابن سلام سأل رسول اللّه ﷺ في حديث طويل في آخره وصف عظم العقل وان الملائكة قالت: يارب هل خلقت شيئاً اعظم من العرش؟ قال: نعم العقل. قالوا: وما بلغ من قدره؟ قال: هيهات لايُحاط بعلمه، هل لكم علم بعدد الرمل؟ قالوا: لا. قال عزَّ وجلّ: فإني خلقت العقل اصنافاً شتى كعدد الرمل فمن الناس من أُعطي حبة، ومنهم من أُعطي حبتين، ومنهم من أُعطي الثلاث والأربع، ومنهم من اعطى فرقاً، ومنهم وسقاً، ومنهم اكثر من ذلك.

وأما العقل بمعنى استيلاء القوة على قمع الشهوات فلا يخفى تفاوت الناس فيه بل الشخص الواحد تتفاوت احواله. وهذا التفاوت تارة تكون لتفاوت الشهوة اذ قد يقدر العاقل على ترك بعض الشهوات دون بعض، فقد يعجز الشاب عن ترك الزنا فإذا كبر وتم عقله قدر عليه، وشهوة الرياء والرياسة تزداد قوة بالكبر لا ضعفاً. وقد يكون بتفاوت العلم المعرف لغائلة تلك الشهوة، ولهذا كان العالم اقدر على ترك المعاصي من العامي لقوة علمه بضررها. وقد يكون لتفاوت غريزة العقل فإنها إذا قويت كان قمعها للشهوة أشدُّ، وكذلك بالمعنى الثالث وهو علم التجارب فإن الناس يتفاوتون فيه بكثرة

الإصابة وسرعة الإدراك واللّه سبحانه وتعالى اعلم.

(ولا تَهِن نفسكَ إن كنت كاملاً) لأن اللّه تعالى قد تكفّل لك بالرزق وقام به عنك وطلب منك أن تتفرغ لعبادته، فاشتغالك بطلب الرزق مع ضمان اللّه تعالى إيّاه واهتمامك به وتكالبك عى تحصيله دليل على انطماس البصيرة وسعي في ضلال ووبال ومُوقِع للنفس في مهانة وإذلال. قال ابن عطاء اللّه الإسكندراني في حكمه: اَرِح نفسكَ من التدبير فما قام به غيرك عنك لاتقم به لنفسك، واجتهادك فيما ضُمنَ لك وتقصيرك فيما طُلب منك دليل على انطماس البصيرة منك، قال اللّه تعالى (وكأيٍّ من دابةٍ لاتحمل رزقها اللّه يرزقها وإيّاكم). وقد ورد في بعض الآثار عن اللّه عزَّ وجلّ انه قال: عبدي اطعِني فيما امرُتك ولاتُعلمني فيما يُصلحك. وقال ابراهيم الخوّاص رضي اللّه عنه: العلمَ كله في كلمتين لاتتكلف ما كُفيت ولاتضيّع ما استكفيت.

فعليك أيُّها المريد برفع الهمة عن الخلق ولاتذل لهم فقد سبقت قسمته وجودك وتقدم ثبوته ظهورك، واسمع ما قاله بعض المشايخ: أيُّها الرجل ما قُدِّر لماضغَيك ان يمضغاه فلابد أن يمضغاه فكله ويحك بعزٍّ ولاتأكله بذُلٍّ. وهذا معنى كلام الشيخ رضي اللّه عنه بقوله: ماقُسِّمَ لك فهو لك وما لم يكن لك ليس لك. هذا من الشيخ رضي اللّه تعالى عنه في قوة التعليل لما تقدم، فكأنه يقول اَرِح نفسك من الاهتمام بالمعيشة واقنع منها بالقليل واعتمد على ماقَسَمَ اللّه لك في الازل، فإن الرزق مقسوم والأجل محتوم وما قُسم لك لايتعدى لغيرك وما قُسم لغيرك لن يصل إليك منه شيء، ففوِّض الأمرَ كله للّه ولاتعتمد على سعيك وكدِّك وإجتهادك وجدِّك، قال اللّه تعالى (نحن قَسَمنا بينهم مَعيشتَهم في الحياة الدنيا) ومتى غفلت عن هذا الملحظ جهلت قدرك وكنت مدعياً ما ليس لك ونازعت ربك في حكمه، ولهذا قال رضي اللّه عنه:

إيّاك والدعاوى ولو كنت صادقاً؛ الدعاوى جمع دعوى كفتوى وفتاوى بكسر الواو وفتحها وهي: أن ينسب الإنسان الى نفسه أو غيره حكماً أو ينفيه عنه سواء كان صادقاً فيه أو كاذباً. وقد قال العارفون باللّه تعالى: إن الدعوى تطفيء نور المعرفة إذا كانت بحق وذلك أن فيها شائبة أنانية ورؤية نفس على غيره وذلك محض التكبُّر والترفُّع على الأقران وفيها خروج عن اصل العبودية ومنازعة لأوصاف الربوبية. وقَلَّ أن تظهر الدعاوى من أهل اللّه تعالى إلاّ مِن مقهور بالحال أو محدث بالنِعَم كما وقع

لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه حيث قال: الحمد لله الذي لم يجعل فوقي احداً.

وسُئِلَ سيدي إسماعيل السلمي جد سيدي عبدالرحمن السلمي رضي اللّه تعالى عنهما عن هذه الدعاوى من أين تتولد، فقال: من الإغترار وتشويش الاسرار. وكان يقول: الملامتي لاتكون له دعوى قط لأنه لايرى لنفسه شيئاً يدعي به. وكان سيدي أبو سعيد احمد بن عيسى الخرّاز رضي اللّه عنه يقول: أبعدُ الناسِ من اللّه عزَّ وجلّ مَن يدّعي المعرفة والقرب، وأكثرهم إشارة إليه - أي الى القرب - أمقَتَهُم عنده. ومن كلام ذى النون المصري رضي اللّه عنه: إيّاك أن تكون للمعرفة مدّعياً أو بالزُهد محترفاً أو بالعبادة متعلقاً وفِر مِن كل شيء الى ربك آه.

وكان سيدي ابراهيم الدسوقي قدَّس اللّه سره يقول: يا ولدي إحذَر أن تقول أنا فإن اللّه عزَّ وجلّ يُعجز المدعيين ولو كنت على عمل الثقلين هبطت أو صاحب منزلة سقطت. وكان يقول: إيّاكم والدعاوى الكاذبة فإنها تُسوِّدُ الوجه وتُعمي البصيرة، وإيّاكم ومؤاخاة النساء وإطلاق البصر في رؤيتهن، والمشي مع الأحداث في الطرقات فإن هذا كله نفوس وشهوات، ومَن أحدث في طريق القوم ما ليس فيها فليس هو مؤمناً. وكان رضي اللّه عنه يقول: عليكَ بالعمل، وإيّاك وشقشقة اللسان بالكلام في الطريق دون التخلّق بأخلاق أهلها. وقد كان ﷺ يجوع حتى يشد الحجر على بطنه الشريف وقام حتى تفطَّرت قدماه ثم تبعه أكابر الصحابة رضي اللّه تعالى عنهم على ذلك، فكان الصديق إذا تنهَّدَ يُشَمُّ لكبده رائحة الكبد المشوي وانفق في سبيل اللّه ماله كله، وكان عمر شديد العمل والكدّ حتى رقع دلقه بالجلود ولفَّ رأسه بقطعة حشيش، وكان سيدي عثمان يختم القرآن قائماً كل ليلة على اقدامه، وكان علي بن ابي طالب من زُهّاد الصحابة مع قربهم من رسول اللّه ﷺ، هذا كان علمهم وزهدهم وورعهم. فاحكموا الحقيقة والشريعة ولاتفرِّطوا إن اردتم أن تكونوا ممن يُقتدى بكم. وما سُميت الحقيقة حقيقة إلاّ لكونها تحقيق الامور بالاعمال وتنتج الحقائق من بحر الشريعة وكان يقول: مادام لسانك يذوق الحرام فلاتطمع ان تذوق شيئاً من الحِكم والمعارف. وكان رضي اللّه عنه يقول كيف يدّعي احدكم انه مريد لطريق اللّه وهو ينام وقت الغنائم ووقت فتح الخزائن ووقت نشر العلوم وإظهار الرقوم ووقت تجلي الحيّ القيّوم يا كذابون أما

تستحون من الدعاوي وهمَمُكُم راقدة وعزائمكم خامدة هكذا درج أهل الطريق فاللّه تعالى يُلهِم أولادي طريق الفلاح آمين آه.

وقال سيدي محي الدين رضي اللّه عنه في كتاب(العبادلة) لولا الدعاوى ما خُلقت المهاوي، فمن إدعى هوى فيها وإن كان صادقاً ألا تراه يطالب بالبرهان. وقال العارف باللّه سيدي مصطفى البكري الصديقي رضي اللّه عنه في حكمه: دعاويك دعاويك الى الاعجاب ودلوكُ شمسك بعد شروقها يؤذّن بالحجاب. وقال سيدي عبدالقادر الجيلاني رضي اللّه عنه في (فتوح الغيب): لاتدع حالة القوم يا صاحب الهوى وهم عبيد المولى أنت رغبت في الدنيا ورغب القوم في العقبى، أنت ترى الدنيا وهم يرون ربَّ الأرض والسماء، وأنت أُنسُكَ بالخلق وأُنس القوم بالملك الحق، أنت قلبك متعلق بمن في الارض وقلوب القوم متعلقة برب العرش، انت يصطادك مَن ترى وهم لايرون مَن ترى بل يرون خالق الاشياء وما ترى، فإن القوم حصلت لهم النجاة وبقيت انت مرتهناً بما تشتهي من الدنيا وتهوى من الهوى، فالقومَ فنوا عن الخلق والهدى والإرادات والمُنا فوصلوا الى الملك الاعلى فأوقفهم على غاية ما رامَ منهم من الطاعة والحمد والثنا ذلك فضل اللّه يؤتيه مَن يشاء، فلازموا ذلك ورابطوا بتوفيق منه وتيسير بلا عنا، فصارت الطاعة لهم روحا وغذا وصارت الدنيا إذ ذاك في حقهم نعمة وحذا فكانها لهم جنة المأوى الى آخر ما قاله رضي اللّه تعالى عنه.

وقال سيدي علي المصري رضي اللّه عنه في (كشف القناع) ومنه - أي من الأدب -الفرار من دعوى علم وذلك لأن دعواه لغير غرض شرعي لاتجوز شرعاً. ومن كلام سيدي على الخوّاص: إيّاك أن تُقرَّ النفس على دعوى العلم فمن أقرَّها على ذلك فقد أقرَّها على الرياء والفُجر، ولايخفى ما فيهما من المقت والطرد. ومن كلام سيدي أفضل الدين: مَن نظر في علوم السلف الصالح حكمَ على نفسه بالجهل ولم تحدّثه نفسه قط بأنه من العلماء. وقد نقل اصحاب الطبقات أن ابن شاهين صنّف ثلاثمائة وثلاثين مؤلفاً منها تفسيره للقرآن العظيم في ألف وستمائة مجلد وذكروا انه حاسب الحبّار في إستجراره منه الحبر للكتاب أواخر عمره فبلغ نحو ألفي رطل. ونقلوا أيضاً أن خزانة كتب المدرسة النظامية حُرقت في حياة نظام الملك فشقَّ عليه ذلك فقالوا له: لاتحزن فإن ابن الحداد يملي الكتبة جميع ما حُرق من حِفظه، فأرسلوا خلفه فأملى جميع ما حُرق في

مدة ثلاث سنين ما بين تفسير وحديث وفقه وأصول وغير ذلك. ونقلوا أيضاً أن الشيخ أبا الحسن الاشعري أَلَّفَ تفسيراً في ستمائة مجلد. وحُكي الشيخ تقي الدين السبكي أن محمد بن الانباري كان يحفظ في كل جمعة عشرة آلاف ورقة. وحُكي أيضاً أن الواحدي كان يحفظ من كتب العلم وقر مائة وعشرين بعيراً. قال وكان الليث بن سعد يقول: لو كتبت ما في صدري ما وسعه مركب. قال: ومن الغريب أن محمد بن سينا لامه انسان على عدم حفظه للقرآن الكريم فحفظه كله في ليلة ولم يكن سبق له قبل ذلك حفظ سورة منه غير الفاتحة وسورة الإخلاص والمعوذتين وكان لايسمع شيئاً إلاّ حفظه اول مرة. فانظر يا أخي الى عملك مع هذه العلوم التي أُوتيها غيرك من العلماء الذين ذكرناهم ومن لم نذكرهم تجده لايجيء قطرة من البحر المحيط وهناك تحكم على نفسك بالجهل. ثم قال:

ومن الأدب الفرار من دعوى مقام قبل بلوغه وبعد بلوغه، وذلك لأن دعواه قبل بلوغه يكون كذباً وبعد بلوغه ولم يؤذن لصاحبه في اظهاره يكون رياءً.

ومن أصول طريقهم انهم لاينطقون إلاّ بما شاهدوه ولايتكلمون ابداً عما لم يذوقوه. ومن كلام سيدي على الخوّاص: إيّاكم أن تبادروا لدعوى مقام لم تبلغوه فتقعوا في الكذب والرياء والنفاق وحرمان ذلك المقام بعد ذلك، وانظروا الى النبات لما عدِم روح التصريف بالحركة الحيوانية وطلب التشبُّه بالحيوان حين قام على ساقه طالباً للإنفصال عن رتبته كيف عوقب بالحصاد والدوس بحافر البهائم الى أن صار كالتراب تحت الأقدام فما ساوى صعوده هبوطه، وهكذا يكون سياط القدرة على اهل الدعاوي. قال سيدي عبدالوهاب الشعراني رضي اللّه عنه في كتابه (**الأنوار القدسية في آداب العبودية**): قال ومِن شأن العارف ان يحذر من الالفاظ التي ظاهرها الدعوى والتزكية للنفس كقوله نحن ما بقينا ناس إلاّ مِن حين اجتمعنا بالشيخ الفلاني، وكقوله الكشف إنما يقع للناقصين والكاملين لا كشف لهم موهماً للحاضرين أنه كامل حيث لم يقع له كشف على شيء أو كشف ولم يصادف الواقع كما يقع ذلك كثيراً للناقصين لأنهم يكشف لهم عن الامر فيتكلمون به فيقع بخلاف ذلك وهم صادقون فيما اخبروا به، ولكن المحو والإثبات واقع ليلاً ونهاراً والحق لايتقيد عليه فيما يفعل فهم يظنون الأمر باقٍ على ما شهدوه رضي اللّه عنهم اجمعين.

فلهذا كان من الأدب السكوت على ما يكشف لهم ولايبرزونه الى الوجود حتى يبرزه اللّه تعالى، فإن وافق كان وإلاّ كانوا قد لزموا الأدب مع اللّه تعالى. وبالجملة فأهل الكشف عزيز في الوجود لأن العارفين اجمعوا على أن مَن لم يكن مأكله حلالاً لايعرف الفرق بين الخواطر وهذا عزيز فكيف بالكشف آه. وقال رضي اللّه عنه في كتاب (المِنَن) ومما مَنَّ اللّه تعالى به على معرفتي بأهل الدعاوي الصادقة والكاذبة وذلك بعلامات يلهمها اللّه تعالى لي حتى تصير عندي كالعلم الضروري. وقد دخل شريف نحيف البدن بعمامة وله لثام فكلّمني في علوم لايعرفها إلاّ المهدي عليه السلام واخبرني أنه هو وأنه قرب ظهوره فلم احتفل بأمره، فقال لي: ما عندك تصديق؟ فقلت: لا، مع أنه شاب مهيب المنظر حسن السمت. فقلت له: صوتك ليس هو صوت شريف والمهدي شريف بيقين. فكشف اللثام عن وجهه وقال: صدقت وقد إمتحنت خلقاً كثيراً في المغرب فصدقوني أني المهدي الأكبر وصاروا يقولون قد خرج المهدي. فقلت له: فما حملك على ذلك؟ فقال: ليكون المهدي على بالهم فإنه قد قرب ظهوره ومُرادي بقولي أنا المهدي لأن اللّه تعالى قد هداني الى دين الإسلام آه.

وقد حكي الشيخ عبدالعزيز المتوفي رحمه اللّه تعالى أنه ورد في زمان الملك الكامل فقير جميل الصورة وله علوم ظاهرة وباطنة وهو شريف وكان له أحوال جليلة وصنّفَ كتاباً ذكر فيه أنه المهدي فوصل الى السلطان فقال له الملك الكامل: إن رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم أخبر أن المهدي يخرج من بين الصفا والمروة ويبايع الناس له عند الحجر الأسود. فقال للسلطان: انت جاهل إنما أراد صلى الله عليه وآله وسلم بالصفا والمروة العلماء والفقراء يخرج من بين هؤلاء رجل هو المهدي وأنا ذلك الرجل، وليس مراده بالصفا والمروة الطوب والحجارة. فلم يشوش عليه السلطان بل أمر بتجهيزه الى المغرب فجهّزوه. وقال الشيخ عبدالعزيز: فاستخبرت عنه بعض أهل المغرب فقال: رأينا رأسه معلقة على باب مراكش. قال الشيخ عبدالعزيز: وبلغني أن ابن تومرت لما إدّعى انه المهدي إهتدى على يديه خلق كثير وأنه مرَّ على قوم ينكرون دين الإسلام والبعث فعمل حيلة وأعطى جماعة مالاً جزيلاً وأنَّهُم يدخلون القبور ويسقفونها عليهم ففعلو،ا ثم صار يأتي بهؤلاء المُنكرين جماعةً بعد جماعة وينادي أهل تلك القبور أما وجدتم دين الإسلام حقاً، أما جاءكم مُنكر ونَكير؟ فيقولون: نعم وجدنا ذلك حقاً آه، وهذا الأمر لم يقع بأرض المغرب لكني

بحمد اللّه إجتمعت بالشيخ حسن العراقي المدفون فوق الكوم المطل على بركة الرطلي بمصر وذكر لي انه إجتمع بالامام المهدي الحقّ بعد مواظبته على سؤال ربّه أن يجمعه به سنة كاملة، وقال لي إن وجهه يشبه وجه جدّه ﷺ لكن وجه رسول اللّه ﷺ أحلى وأملح. وقال: سألته عن عمره، فقال لي: ستمائة سنة وشيء وإن له بعد مفارقته الى الآن مائة سنة وهو من ولد الحسن العسكري، هكذا اخبرني عنه واللّه اعلم بحقيّقة الحال فإني لم اجتمع به حتى أعرفه والحمدلله رب العالمين آه.

فعُلمَ مما تقرر شؤم الدعوى وما فيها من القبائح، فاللائق بمقام العبد حينئذ اظهار العجز والضعف في سائر احواله، ولهذا قال الشيخ رضي اللّه تعالى عنه:

عليك بإظهار العجز إن كنت صادقاً؛ مراده رضي اللّه عنه بالعجز التردي برداء العبودية، وعدم الترفُّع على الأقران، وترك التمييز والإلتحاق في المراسم والهيئة بالعوام، فإن ذاك أولى بالعبد بل هو الصدق المحض. وهذه هي طريقة الصحابة والتابعين، وهي طريقة سهلة نافعة لعامة المسلمين لأن كل الخلق لايخرجون عنها مِن اعلى وادنى لما فيها من الذلّ الذي هو وصفهم، ومَن خَرجَ عنها إنما هو دعوى لا حقيقة لها كمن إدّعى الألوهية من العبيد. واعلم أن سبب تعدي العبد عن حدوده كونه خُلق على الصورة وهو تعالى له العظمة والعزّ والكبرياء فسرت هذه الاحكام في العبد تحقيقاً للواقع، والكامل من العبيد هو الذي لايصرفه خلقه على الصورة عن الفقر والذلّة والعبودية لما يعرف من نفسه من العجز والضعف والإفتقار الى أدنى الاشياء والتأَلم من قرصة برغوث هذا يدركه كل انسان من نفسه ذوقاً، فليحذر العبد من رؤية نفسه على أحد من رعيته ولو عبده الذي في رِقِّه لأنه ربما يكون عند اللّه تعالى أحسن حالاً منه كما ورد في الحديث، وليَحذر من قوله له "تجعل رأسك برأسي أو مثلك بمثلي" أو غير ذلك، فإن هذا كله دليل على الجهل والغباوة والكِبَر واللّه لايحب المتكبرين.

واعلم أن هذه الطريقة لايحتاج سالكها الى مراجعة شيخ في الغالب لأنه لايقف مع كشف ولا منام ولا خاطر ولا غيرهما مما يحتاج اليها فقهاء الصوفية، فإن تشوَّقت نفس العارف الى اظهار ما منحه اللّه إيّاه من الاسرار فليفض على ابناء جنسه ما أُفيض على قلبه من الأنوار،

(فالسرُّ لايَخفى) في قوة التعليل لما سبق ولايخفى حسن موقعه، فإن من أسرَّ سريرة

حسنة ألبسَهُ اللّه رداءها كما في الحديث وظهر اللّه له من الثناء الحسن وحب الخلق واقبالهم عليه فوق ما عنده، وإن كتمَ ذلك غاية الكتمان فإن كل اناء بما فيه ينضح ولسان الحال أفصح من المقال وأوضح،

ونور الحق لايطفى، قال اللّه تعالى (**يريدونَ أن يطفئوا نور اللّه بأفواهم ويأبى اللّه إلاّ ان يُتِمَّ نورهُ ولَو كَرِهَ الكافرون**).

فصاحب السرّ إذا نطق سبق نوره كلامه ولاحت عليه لوائح العرفان وإكتسى كلامه اشراقاً من قلبه، فلا يحتاج الى ان ينطق عما في باطنه من الأنوار:

ومهما تكن عند امريء من خليقته وإن خالها تخفى على الناس تُعلَمُ

قال العارف باللّه سيدي ابن عطاء اللّه الاسكندراني رضي اللّه تعالى عنه في حكمه: تسبق انوار الحكماء اقوالهم فحيث صار التنوير وصل التعبير. وأنوار العارفين هي أنوار معرفتهم التي هي عبارة عن قوة يقينهم بأن الامور كلها بيد اللّه تعالى لا شريك له فيها، فإذا أرادوا إرشاد عباد اللّه تعالى ونصيحتهم بإذن اللّه تعالى سبقت انوار قلوبهم كلامهم فيتكلمون بكلام مُشرق له حُسن موقع في القلوب وحُسن تأثير. فلهذا قال رضي اللّه عنه: كل كلام يبرز وعليه كِسوة القلب الذي برز منه. وقال في موضع آخر: لاينبغي للسالك أن يعبّر عن وارداته فإن ذلك يقل عملها في قلبه ويمنعه وجود الصدق مع ربه آه. ولهذا قال رضي اللّه عنه:

واصدق في الطلب؛ أمر من صَدق يصدِق بفتح العين في الماضي وضمها في المضارع وبابه نصر والصادق الإسم اللازم من الصدق والصِدّيق المبالغة منه وهو كثير الصدق الذي الصِدق غالبه كالسِكّير والخِمّير وبابه.

وأقلُّ الصدقِ إستواء السِرّ والعلانية والصادق مَن صَدَقَ في اقواله، والصدّيق من صدق في جميع اقواله وافعاله واحواله. قال اللّه تعالى (**يا أيّها الذين آمنو اتّقوا اللّه وكونوا مع الصادقين**) وفي حديث ابن مسعود رضي عنه عن النبي ﷺ قال: "**لايزالُ العبدُ يصدقُ ويتحرى الصدق حتى يُكتب عند اللّه صدِيقا، ولايزال يكذبُ ويتحرى الكذب حتى يُكتب عند اللّه كذّابا**". وقال الاستاذ: الصدق عماد الأمر وبه تمامه وفيه نظامه وهو تالي درجة النبوة، قال تعالى (**فأولئك مع الذين أنعَمَ اللّه عليهم من النبيّين**

والصدّيقين...) الآية. وقال احمد بن حضرويه: مَن اراد أن يكون اللّه معه فليلزم الصدق فإن اللّه تعالى قال (إنَّ اللّه مع الصادقين) وقيل في تفسير الصدق: إنه النطق بالحق في مواطن الهَلكة. وقيل الصدق موافقة السرِّ النُطق. وقال بعضهم: الصدق منع الحرام من الشِدق. وقال عبدالواحد: الصدق الوفاء لله بالعمل. وقال القشيري في الرسالة بسنده الى سهل بن عبداللّه يقولَ: لايَشُمُّ رائحة الصدق عبدٌ داهن نفسه أو غيره. وقال أبو سعيد القرشي: الصادق الذي يتهيأ له أن يموت ولايستحي من سِره لو كُشف، قال تعالى(فتمنّوا الموتَ إن كنتُم صادِقين).

وقد استعمل الصوفية الصدق في الاقوال والافعال بمعنى استواء السر والعلانية والظاهر والباطن بأن لاتكذِّب أحوال العبد اعماله ولا أعماله أحواله، وجعلوا الإخلاص لازماً أعمّ، فقالوا كل صادق مخلص وليس كل مخلص صادقاً. وفي شرح رسالة القشيري للشيخ زكريا سُئل الجُنيد أهُما واحد أم بينهما فرق؟ فقال: بينهما فرق، الصدق أصل والاخلاص فرع، والصدق اصل كل شيء والاخلاص لايكون إلاّ بعد الدخول في الأعمال، والاعمال لاتكون مقبولة إلاّ بهما آه. وفي الحديث عن عبداللّه بن مسعود رضي اللّه عنه عن النبي ﷺ قال: "إن الصدق يهدي الى البِرّ وإن البِرّ يهدي الى الجنة، وإن الرجل ليصدُق حتى يُكتب عند اللّه صديقاً، وإن الكذب يهدي الى الفجور وإن الفجور يهدي الى النار وإن الرجل ليكذِب حتى يُكتب عند اللّه كذّاباً" متفق عليه. وعن ابي محمد الحسن ابن علي بن ابي طالب رضي اللّه عنهما قال: حفظت من رسول اللّه ﷺ "دع ما يُربيك الى ما لايريبُك، فإن الصدق طمأنينة وإن الكذب رِيبة". وعن ابي سفيان صخر بن حرب رضي اللّه عنه في حديثه الطويل في قصة هِرَقل قال: قال هرقل فماذا يأمركم؟ يعني النبي ﷺ قال أبو سفيان: قلت يقول اعبدوا اللّه وحده لاتشركوا به شيئاً واتركوا ما يقول آباؤكم ويأمُرنا بالصلاة والصدق والصِلة. وعن خالد بن حزام رضي اللّه عنه قال: قال رسول اللّه عليه وسلم: "البيعان بالخَيار مالم يتفرقا فإن صدقا وبَيَّنا بورك لهما في بيعهما، وان كتما وكذبا مُحِقَت بركة بيعهما" متفق عليه.

وقال في الرسالة: سمعت الاستاذ أبا على الدقّاق يقول: كان أبو علي الثقفي يتكلم يوما فقال له عبداللّه بن المبارك: يا أبا علي استعد للموت فلا بد منه. فقال أبو علي:

وانت يا عبداللّه استعد للموت فلا بد منه. فتوسد عبداللّه ذراعه ووضع رأسه وقال قد مِتُّ، فإنقطع أبو علي لأنه لايمكنه ان يقابله بما فعل لأنه كان لأبي علي علاقات وكان عبداللّه مجرد الاشغل له. سمعت الشيخ ابا العباس السلمي يقول: كان أبو عباس الدينوري يتكلم فصاحت عجوزة في المجلس صيحة فقال أبو العباس: موتي فقامت وخطت خطوات ثم إلتفتت اليه وقالت: قد مِتُّ، ووقعت ميتة. وقال الواسطى: الصدق صحة التوحيد مع القصد. وقيل نظر عبدالواحد بن زيد الى غلام من اصحابه وقد نحِل بدنه فقال: يا غلام أتديمُ الصوم؟ فقال ولا أُديمُ الإفطار. فقال: تديمُ القيام بالليل؟ فقال" ولا أُديم النوم. فقال فما الذي أنحَلَك؟ فقال هوايَ دائم وكتماني دائم عليه. فقال عبدالواحد: اسكت ما اجرأك. فقام الغلام وخطى خطوتين وقال: إلهي إن كنت صادقاً فخذني اليك فخرَّ ميتاً.

وحكي عن ابي عمر والزجّاجي انه قال: ماتت امي فورثت داراً فبعتها بخمسين دنياراً وخرجت الى الحج فلما بلغت بابل حتى استقبلني واحد من القيافنة فقال: إيش معك؟ فقلت في نفسي الصدق خير ثم قلت: خمسون ديناراً، فقال: ناولنيها. فناولته الصرّة فعدّها فإذا هي خمسون ديناراً، فقال لي: خذها فلقد آخذني صدقك، ثم نزل عن الدابة فقال اركبها، فقلت: لا اريد. فقال لابدّ، وألحّ فركبتها. فقال: وأنا على إثرك. فلما كان العام المستقبل لحق بي ولازمني حتى مات. وسمعت محمد بن الحسين يقول: سمعت ابراهيم الخوّاص يقول: الصادق لاتراه إلاّ في فرض يؤديه أو فضل يعمل فيه، وسمعته يقول سمعت ابا الحسن بن مقسم يقول سمعت جعفر الخوّاص يقول سمعت الجُنيد يقول: حقيقة الصدق ان تصدق في موطن لاينجيك منه إلاّ الكذب. وقيل ثلاثة لاتخطيء الصادق؛ الهيبة والحَلاوة والمَلاحة.

وقيل أُوحي اللّه الى داود عليه السلام يا داود مَن صَدقني في سريرته صَدقته عند المخلوقين في علانيته. وقيل دخل ابراهيم بن دوحة مع ابراهيم بن ستنبة البادية فقال ابراهيم: اطرح ما معك. قال فطرحت كل شيء الا ديناراً. فقال إبراهيم: اطرح ما معك من العلائق. فتذكرت أن معي شتوعاً للنعل فطرحتها فما إحتجت في الطريق الى شتع وجدته بين يدي. فقال إبن ستنبة: هكذا مَن عامل الله تعالى بالصدق.

وقال ذو النون: الصدق سيف اللّه ما وُضع على شيء إلاّ قطعه. وقال سهل بن

عبدالله: أول خيانة الصدّيقين حديثهم مع أنفسهم. وسُئل الفتح الموصلي عن الصدق، فأدخل يده في كير الحداد وأخرج الحديدة المحمّاة ووضعها على كفه وقال: هذا هو الصدق. وقال يوسف بن الأسباط: لإن أبيتُ ليلة أعامل اللّه بالصدق أحبُّ إليَّ من أن أضرب بسيفي في سبيل الله. وسمعت الأستاذ أبا علي يقول: الصدق أن تكون كما ترى من نفسك أو ترى من نفسك كما تكون. وسُئِلَ الحارث المحاسي عن علامة الصدق فقال: هو الذي لايبالي ولو خرج كل قدر له في قلوب الخلق من اجل إصلاح قلبه، ولايحب إطّلاع الناس على مثاقيل الذرِّ من حُسن عمله، ولايكره أن يطّلع الناس على السيءِ من عمله، فإن كراهته لذلك دليل على انه يحب الزيادة عندهم وليس هذا من اخلاق والصديقين.

وقال بعضهم: مَن لم يؤدِّ الفرض الدائم لم يُقبل منه الفرض المؤقت. قيل فما الفرض الدائم؟ قال: الصدق. وقيل: إذا طلبت الله عزَّ وجلّ بالصدق أعطاك مرآة تبصر بها كلّ شيء من عجائب الدنيا والآخرة. وقيل: عليك بالصدق بحيث تخاف انه يضرك فإنه ينفعك، ودع الكذب حيث ترى أنه ينفعك فإنه يضرك. وقيل: كل شيء شيء ومصادقة الكذّاب لاشيء. وقيل: علامة الكذّاب جُودُه باليمين لغير مستحلف. وقال ابن سيرين: الكلام اوسع من ان يكذب ظريف. وروى ابن عباس رضي اللّه تعالى عنهما انه ﷺ سُئل عن الكمال فقال: "قولَ الحق والعمل بالصدق". واوحى اللّه تعالى الى موسى عليه السلام إني إذا احببت عبداً إبتليته ببلاء لايقوم الجبال لأنظُرَ كيف صدقه، فإن وجدته صابراً اتخذته ولياً وحبيباً، وان وجدته جزوعاً يشكوني الى خلقي خذلته ولم أبال آه.

فكتمان المصائب من علامات الصدق، وكذلك الصبر على تحمل اذاء الخلق والتجاوز عن جهلهم إذا جهلوا عليك. ولهذا قال رضي اللّه عنه:

ولاتصغ الى ألسُنِ العباد فما نجا منها أحد حتى سيد الأسياد؛ يعني الحق سبحانه وتعالى فقد نسبوا له الولد والشريك والصاحبة والنظير، أو الرسول ﷺ فقد نسبوه ﷺ الى السحر والشعر ورموه بالجنون ونوع القول في حقه ﷺ الى أنواع وفنون. وقد قتل بنوا اسرائيل كثيراً من انبياهم كما قال تعالى (ويقتلون الأنبياء بغير حق) وما جاء نبيّ من الأنبياء ولا رسول من الرسل الى قوم بشَرع إلا وقوبل بالأذى والضرر، فصبروا على ما أُوذوا فكانت لهم العاقبة.

وقد قال ﷺ: "اشدُّكم بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل". ومنشأ ذلك كله الحسد فإن حسد الحاسدين بقدر نعمة اللّه على عبيده، وكلما كثرت نعمة اللّه على العباد سلط اللّه عليهم الألسنة الحِداد، فإن مَن ابرز تاليفاً مثلاً واطلع غيره عليه من أهل عصره ورأى انه لايمكنه الإتيان بمثله إشتعلت فيه نار الحسد فلم يجد له سبيلاً إلاّ التصدى للطعن فيه وذمّه وتنقيصه لينفِّر الناس حتى لايتميز عليه بذلك، وحتى لايتميز على غيره وهم عن الآخرة غافلون وعن عقاب اللّه معرضون (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون)، وما يضيع اللّه حقاً لأحد أما علموا ان المصطفى عليه الصلاة والسلام قال: "إن اللّه تعالى عند لسان كل قائل فليتقِّ اللّه عبد ولينظر ما يقول (ما يلفظ من قول إلاّ لديه رقيب عتيد)، لكن هذه سُنّة اللّه في الذين خلوا من قبل، ألا ترى إن حجة الاسلام الغزالي لما ابرز كتاب (الإحياء) ثاروا عليه وبالغوا في ايذائه حتى بالغ بعض المخذولين وافتى بوجوب إحراقه وجمع سلطان الغرب يوسف بن تاشفين ما في بلاده من نسخه وحرقها. وقال ابن الجوازي: هذا رجل طوى بساط الشريعة. ولما أَلَّفَ الحريري المقامات حسدوه وقالوا للسلطان انه سرقها، فأحضرها وقال له: هذه خمسون مقامه فإن كانت من انشائك فزدها واحدة وإلا عاقبتك. وحبسه ومنع كل احد من الدخول عليه فزادها واحدة في ليلته. ولما أَلَّفَ التاج السبكي (جمع الجوامع) وكان بالشام، فحسدوه ووشى به أهل مصر ورموه عند السلطان بعدة كبائر حتى أحضره على البريد في القيد والزَند فبرأه اللّه مما قالوا وأطلقه وألبسه خلعة. ولما أَلَّفَ الحافظ بن مغلطاي حسدوه وقالوا للسلطان هذا كله خطأ، فنادى في سوقِ الكُتبيين إن مَن اشترى الكتاب أو باعه شُنق. ولما أَلَّفَ الامام الرازي (التفسير) قال حاسدوه فيه كل شيء إلاّ التفسير. ولما أَلَّفَ البقاعي (المناسبات) ثاروا عليه ورموه بالكفر وقالوا هو ينقل من التوراة والإنجيل وذلك لايجوز وافتى جماعة بوجوب إعدامه وأمر السلطان بإحراقه وضرب مؤلفه ونفيه، فكتب شيخ الاسلام قاضي القضاة شرف الدين يحيى المناوي عليه بحسن صنيعه وبالغ في تعظيمه فكفّوا عنه. ولما أَلَّفَ الجلال السيوطي ما أَلَّف قال السخاوي: ما الذي فعله جلال؟ الذي فعله جلال الدين إحتوى على المدرسة المحمودية وغير منها مابين ديباجه وورقة ونسبها لنفسه. ولما أَلَّفَ رسالة (إسبالِ الكساء على النساء) ووقف عليها الشمس الجوهري قال: قد غلط جلال الدين ثلاث غلطات في هذه

الثلاث ورقات. وقال الشيخ الرملي عن ابيه لما إدّعى الشيخ جلال الدين تلك الدعوى العريضة وابرز مؤلفاته قام عليه معاصروه وآذوه فكانت تاليفه يطاف بها للبيع بسعر الورق الأبيض فلا يرغب فيها أحد ولايشتريها ، وكان الداوودي يميل للشيخ ويعتقد كماله ويكتب مؤلفاته سراً، فاطلع عليه المجاورون فضربوه واخرجوه من الجامع... الى هنا كلام الشيخ.

وما الحامل على ذلك كله إلاّ الحسد. ومازال الناس هكذا من قديم وقد اقتضت الحكمة الإلهية ان يسلط اللّه على خواص خلقه الاعداء والحّساد حتى لاتركن قلوبهم لغير اللّه تعالى وليدوم افتقارهم وضراعتهم إليه ولايشغلهم القدح بما اتوا عن ذلك. وللصوفية من هذا البلاء الحظ الاوفر، فلما اختصر ابن حمزة البخاري وشرحه وعرض فيه انه يرى المصطفى ﷺ يقظه قاموا عليه وعقدوا له مجلساً وأُلزم بالجلوس في بيته فلزمه، فلم يخرج إلاّ للجمعة حتى مات. ولما ألَّفَ الحكيم الترمذي نوادر الاصول وختم الاولياء وعلل الشريعة ثاروا عليه ورموه بالعظائم وبطشوا به فجمع كتبه كلها وألقاها في البحر فاستمرت فيه سنين ثم لفظها على حالها فانتفع الناس بها. وثاروا على البوشنجي ونفوه من بلده فسكن نيسابور الى ان مات. وأفتوا بتكفير ابي الحسن الخرّاز بمواضع التقطوها من كتبه ونفوه من بلده. وشهدوا على الشبلي بالكفر مراراً مع كمال علمه وكثرة مجاهداته وزُهده وإتّباعه للسُنّة، وشهد عليه آخرون بالجنون وأُدخل البيمارستان ثم نفوه الى ان مات. وقام أهل المغرب على الامام ابي بكر النابلسي مع علمه وزهده وورعه وتمسّكه بالسُنّة وامره بالمعروف ونَهيهِ عن المنكر، فأخرجوه من بلاد المغرب بالقَيد والزَند الى مصر وشهدوا عليه عند السلطانَ بكلمات من كلام القوم فأقرَّ بها واصرَّ بها ، فأمر بسلخهِ حياً منكوساً ففُعل بذلك، فصار وهو كذلك يقرأ القرآن. وانكروا على ابي القاسم النصراباذى مع علمه وصلاحه وزهده واستقامة طريقه واتّباعه للسنة ونفوه الى مكة، فلم يزل بها حتى مات.

وقاموا على ابي عبداللّه السجزي صاحب (الفوائد الحديثية) واخرجوه ونفوه. وقاموا على ابن سمعون الواعظ وآذوه وضربوه ومنعوه من الجلوس للوعظ فى الجامع، فإنقطع في بيته حتى مات فمنعوا الناس من حضور جنازته مع كماله وجلالته. وطعنوا على ابي القاسم بن جميل ورموه بالعظائم فلم يتزلزل عما هو فيه من الإشتغال بالفقه

والحديث وصيام الدهر والتزهد والتعبد حتى مات. وآذوا الامام العارف شيخ الجماعة ابا الحسن الشاذلي واخرجوه من بلاد المغرب بأتباعه، ثم كاتبوا نائب اسكندريه بانه زنديق فاحذروا منه على انفسكم وأهل بلدتكم، ووشوا به الى السلطان، فحجَّ في جماعته وكان الحج قد انقطع لكثرة القطاع فما رأوا إلاّ خيراً فاعتقده الناس وعظموه واجمعوا عليه حيئذ. وقتلوا الحلاّج والامام ابا القاسم بن قسي صاحب كتاب (خلع النعلين) وابن برجان صاحب التفسير المشهور والجرجاني مع كونهم ائمة يقتدى بهم، ولما قام عليهم الحاسدون عجزوا عن ان يثبتوا عليهم مايوجب القتل فعملوا الحيلة وقالوا للسلطان انه خطب لإبن برجان من نحو مائة وثلاثين بلداً فأمر بقتلهم. وقاموا على العفيف التلمساني صاحب التآليف المشهورة وقالوا هو لحم خزير في صحن صيني وضربوه ونفوه. وعقدوا للشيخ عزالدين عبدالسلام عدة مجالس بسبب كلمة قالها في العقائد ولطف اللّه به وظفره. وغيروا السلطان بيبرس على قاضي القضاة ابن بنت الأعز بعدما كان بينهما من كمال المودة حتى أمر بشقه ثم أمدّهُ بلطفهِ في حكاية طويلة.

وكان الشيخ عمارة اليمني متضلعاً من الفقه والحديث وغيرهما فأغروا به السلطان صلاح الدين وقالوا انه هجاك بقصيدة فلم يتغير السلطان لما كان عليه من مزيد الحلم حتى قالوا انه ينتقص النبي ﷺ في شعره، ولم يثبت عليه ذلك بل أنكر ان تلك القصيدة التي ذكر ذلك فيها من نظمه، فحسن له القاضي الفاضل قتله فقتله. وحسدوا شيخ الاسلام ابن ابي شريف وانتهزوا الفرصة باغراء السلطان عليه حتى تشوّش منه بسبب افتائه بعدم جواز قتل امرأة ورجل اجنبيين وجدوا في خلوة، فهَمَّ بالبطش به ثم شنق الرجل والمرأة على بابه وامره بالخروج من البلد الى بلده بيت المقدس، فوافق ذلك قدوم الخبر بان السلطان سليم قدم الى حلب يريد غزوه فاشتغل بنفسه الى غير ذلك من الوقائع التي لايمكن حصرها ، وما يضيع اللّه حقاً لأحد، ولايظلم ربك احداً، ولا حول ولا قوة إلاّ باللّه العلي العظيم.

ولما كان من اكبر الصدق في طلب الحق محاسبة النفس ومناقشتها والتنقير عن عيوبها ومساويها أتبعَ ذلك بقوله رضي اللّه عنه:

عد لنفسك الحساب حتى في الانفاس فبالاولى المطعم والملبس والمنكم والاساس.

اعلم أن محاسبة النفس اصل عظيم من اصول الطريق، فما لابد منه في سلوك الطريق محاسبة النفس في سائر احوالها وتقلباتها واطوارها، ومراعاة الخواطر مع الاوقات بإستشعار الحياء من اللّه تعالى وملاحظته انه مطلع عليك، فبمحاسبة النفس إراحة الملائكة من التعب إذ (**ما يلفظ من قول إلاّ لديه رقيب عتيد**). فينبغي لكل مؤمن أن يحاسب نفسه على كل فعل قبل القدوم عليه حتى لايلتبس به إلاّ بعد معرفة حكم اللّه فيه، لأن مَن حاسب نفسه بالدنيا هان عليه حساب الآخرة. وهذا معنى معرفة حكم ﷺ: "**حاسِبوا انفسكم قبل ان تُحاسَبوا**"، فقد كان عمر بن الخطاب يكتب عمل الاسبوع في صحيفة ويعرضها على نفسه يوم الجمعة، فإذا بلغ شيئاً لم يجد فيه رضاء اللّه ضرب نفسه بالدُرّة وقال فعلتِ هذا، فلما مات وأُريد غسله وجد جنبه وظهره مسوداً من كثرة الضرب.

قال العارف باللّه تعالى سيدي الشيخ محي الدين العربي رضي اللّه عنه: ولقد كان لنا شيخ يقيد حركاته في نهاره في كتاب فإذا أمسى جعل صحيفته بين يديه وحاسب نفسه على ما فيها فما كان من خير حمدَ اللّه وشكره وما كان بخلاف ذلك ندِم واستغفر، ولم ينم إلاّ على توبة، قال رضي اللّه عنه: وزدت انا عليه بتقييد الخواطر وقوله حتى في الأنفاس أي فلا تخرجها إلاّ ملتبسة بطاعة من ذِكر أو فكر أو عبادة ما مع مراقبة المولى وحضور القلب معه، فكل نفس من الانفاس خَرج من غير عبادة فهو عليك لا لك. وقوله فبالأولى المطعم والملبس يعني إذا كانت المحاسبة مطلوبة في الأنفاس الخارجة والصاعدة، فمن باب أولى محاسبة النفس على ما تتناوله من المطاعم التي بها قوام البدن ولايتناول شيئاً يدخل جوفه إلاّ بعد أن يكون من الحلال الصافي، وإلاّ وقع في الحرام ولا بدّ فإن كلّ إناء بالذي فيه ينضح. ولهذا قال أهل التحقيق: إن كمال التوفيق بين الماء والدقيق.

ومن كلام القطب الغوث سيدي عبدالقادر الجيلي رضي اللّه عنه: كل مؤمن مكلف بالتوقف والتفتيش عند حضور ما قُسم له، فلا يتناوله حتى يشهد له الحكم بالاباحة، وكلما إرتفع الفقير درجة وجب عليه التفتيش أكثر وقد كان السلف الصالح لايأكلون طعاماً حتى يفتشوه الى عاشر يدٍ تتداول بالحِلِّ، فإن لم يجدوا الأيدي العشرة تداولت عليه بالحِلّ امتنعوا من أكله وطووا حتى يحصل لهم الأضرار. وكان ذوالنون المصري

يقول: مَن لم يفتش على الرغيفين من الحلال لايفلح في طريق اللّه عزَّ وجلّ. ومذهب القوم إذا قُدِّم لهم شيء وشكّوا في حِلِّه كان تركه واجباً. وكذلك ينبغي الاحتياط في الملبس بأن يستخلصه من الحلال المحض، فلا يوشك ان ترد اعماله كما ورد في معنى ذلك الاحاديث.

ومن جملة المحاسبة في المأكل والملبس عدم الاعتناء بهما والتغالي في اثمانهما. قال العارف باللّه سيدي عبدالوهاب الشعراني رضي اللّه عنه في منّنه: ومما منَّ اللّه عَليَّ به عدم اهتمامي بشيء من ملابس الدنيا فلا اذهب قط الى سوق الجوخ أو الصوف ولا اجلس في دكان لأجل ذلك، وكذلك لا أدّعي قط الى الذهاب الى السوق في مثل يوم الخميس ويوم الاثنين مثلاً بقصد وقوع قطعة رخيصة بل ارسل وكيلي الى السوق أي وقت كان واعزم عليه ان لايأتيني بالقماش قط ليعرضه عَليَّ، بل اقول له كل شيء انشرح صدرك له فاشتره لي، فإن رجع الوكيل الى السوق ثانياً ليشاورني اثقل عَليَّ من وزن ذلك هروباً من ثقل المِنَّة عليَّ لاسيما إن كان ماشياً صائماً في الحر. وفي كلام القوم: الفقير لباسه ما وجد. وقالوا: إذا رأيتم الفقير في زية لبِق فاعلموا انه عن الاستقامة زَلِق. وفي الحديث إن اللّه يحب المؤمن المتبذّل الذي لايبالي ما لبس. وفي كلام السيد عيسى عليه الصلاة والسلام: واللّه إن لبس المسوح وسفَّ الرماد والنوم على المزابل لكثير على من يموت. وكانت ثياب الشعبي رحمه اللّه تعالى لونها لون التراب وكانوا إذا قالوا له إن ثوبك قد اتسخ يقول: ليت قلبي في القلوب كلون ثوبي في الثياب آه.

وقوله: والمَنكَح مصدر ميمي بمعنى النكاح الذي هو الوطء ومحاسبة النفس فيه إيقاعه بنيّة صالحة من قصد إعفاف النفس والزوجة والولد الصالح الذي يدعو له، وفيه تكثير للأمة المحمدية والحياء من اللّه تعالى حال الجماع كما وقع للنبي ﷺ فإنه كان يضع خرقة على رأسه حياء من اللّه تعالى أن يراه في هذه الحال.

وقوله: والاساس؛ يحتمل ان يكون بالسين وعليه تحصل الموافقة في السجع بمعنى الاصل يعني المال الذي يُتحصّل به هذه الاشياء والمحاسبة فيه ظاهرة بأن لايكسبه إلاّ من حِلٍّ أو ما قلّت شبهته، ويحتمل ان يُقرأ بالثاء بمعنى أمتعة البيت ولكن تفوت نكته التسجيع. وقوله:

لاتقس نفسك بالكمل من الرجال؛ أي في ترك المجاهدة بل ينبغي لك المداومة عليها بشرط ان تكون تلك المجاهدة على يد شيخ عارف ناصح، فإن معرفة اللّه تعالى لاتحصل غالباً إلاّ بذلك. وقد تحصل بالجذب ولكن السالك اكمل لأنه سالك ومجذوب فهو اعرف بالطريق وذلك مجذوب فقط. وقد مدح اللّه العالمين في آيات كثيرة. قال اللّه تعالى (وقالوا الحمد للّه الذي صَدَقَنا وعدَه واورثَنا الارض نَتبوّأُ من الجنة حيث نشاء فنِعمَ أجرُ العاملين) ونحو ذلك من الآيات الواردة في مدح العمل، فإن اللّه تعالى ما اثنى على احد من عباده في كتابه ولا على لسان نبيه في حديثه إلاّ ان كان سبب الثناء عمل من اعمال. فلم يمدحهم إلا بأعمالهم مع توليه لهم فيها، وهذه عادة الكريم الجواد ان يعطيك ويثني عليك. كما قال بعض العارفين: إذا اراد ان يظهر فضله عليك خلق ونسب اليك.

(ولا بالمجاذيب) أي ولاتَقِسْ نفسك بالمجاذيب أيضاً في ترك المجاهدة وكذا يقال فيما سيأتي. والمجاذيب جمع مجذوب وهو من صادفته جذبة إلهية، وهي كما قال بعضهم تقريب العبد بمقتضى العناية الإلهية مهيأ له كل ما يحتاج اليه في وطء المسافة، اي الحق بلا كلفة وسع آه. فكل جذبة من جذبات الحق توازي عمل الثقلين ولها علامات قلبية يعاينها السارق بطريق الوجدان، ويتأيد ذلك بان يرى نفسه طائراً أو في السماء أو غير ذلك. وأهل الجذب على اقسام كما ان أهل السلوك كذلك. فمنهم مجذوب سالك، ومنهم مجذوب دائم له الجذب، ومنهم مجذوب وقف بعد سيره. والاول هو الذي يصلح للإرشاد لمعاينة منازل السائرين في حلول سلوكه بخلاف غيره. وبعضهم يُكشف له في لمحة واحدة عن ميادين السلوك فيعرف حقائقها، وهذا عبد اعتق اللّه تعالى به ليقيمه داعياً عباده اليه. قال في (عيون المعارف): وحقيقة الجذبة هي الخطفة من اللّه تعالى لمن يشاء من عباده يخطفه اليه ويبلغه الى اعلى المقامات من عليين. ثم للمجذوبين عند اللّه مقامات متفاوتة تفاوتاً بعيداً كتفاوت مقامات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وكلهم مجذوبون. قال تعالى (ولقد فَضّلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبوراً)، واعلى مقاماتهم ان يعلوا عن عالم الصفات الى عوالم الذوات وهو الحصن الذي عرف في قوله تعالى: المعرفة حصني والتوحيد حصاري.

واعلم ان المشايخ متفقون على كينونة الجذبة وهي اجتباء اللّه تعالى مَن يشاء مِن

عباده اليه وخطفه له بلحظة الى اعلى المقامات جوداً وافضالاً لا جزاء وعملاً. قال الجنيدي رحمه اللّه تعالى: مَن نال عند اللّه تعالى ما نال إلاّ ببذل المجهود وليس من عرف اللّه تعالى ببذل المجهود كمن عرفه ببذل الجود، ثم المعرفة بغير بذل المجهود ليس إلاّ ما قالوا من الجذبة. وبذلك تبين ان ذرة من القبول من اللّه تعالى خير من اعمال الثقلين. ودلت النصوص على ذلك، قال اللّه تعالى (يجتبي إليه مَن يشاء ويهدي اليه من يُنيب). والأبدال جمع بدل وهو مَن له قدرة على ان يقيم غير مقامه بدلا عنه إذا اراد مفارقة محله مثلاً. وقد ورد عن النبي ﷺ قال: "دعائم أمتي عصائب بساحل اليمن وأربعون رجلاً من الأبدال بالشام كلما مات رجل منهم أبدل اللّه مكانه آخر مع أنهم لم يبلغوا ذلك بكثرة صيام ولا صلاة ولكن بسخاوة النفس وسلامة الصدر والنصيحة للمسلمين". وعن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: "البُدَلاءُ اربعون إثنان وعشرون بالشام وثمانية عشر بالعراق كلما مات واحد منهم بدل اللّه مكانة آخر، فإذا جاء الأمر قُبض كلهم". وعن ابي عبيد الخولاني عن النبي عليه الصلاة والسلام انه قال: "الخضر في البحر وإلياس في البرّ يجتمعان كل ليلة عند الردم الذي بناه ذو القرنين بين الناس وبين يأجوج ومأجوج، ويحجّان في كل سنة ويشربان من زمزم شرباً يكفيهما الى قابل طعامها ذلك". وعن النبي عليه الصلاة والسلام انه قال: "إن للّه عباداً في الارض قلوبهم أنور من الشمس وفعلهم فعل الأنبياء وهم عند اللّه أفضل من الشهداء ليس لهم من الدنيا قليل ولا كثير وهم راضون بقسم اللّه واللّه عنهم راض بما هم فيه. قال عمر صف لنا امرهم يارسول اللّه قال: الزاهدون في الدنيا الراغبون في الآخرة الراضون بقضاء اللّه وقدره".

وعن معاذ بن جبل عن النبي عليه الصلاة والسلام قال: "ثلاثٌ مَن كُنَّ فيه فهو من الأبدال الذين هم قوام الدين؛ الرضاء بقضاء اللّه، والصبر على محارم اللّه، والغضب في ذات اللّه". وعن عبداللّه بن عمر عن النبي عليه الصلاة والسلام انه قال: "خِيار أمتي في كل قرن خمسمائة والأبدال أربعون، فلا الخمسائة ينقصون ولا الأربعون كلما مات رجل من الاربعين أُبدل من خمسمائة مكانه وابدل من الاربعين مكانه، يعفون عمن ظلمهم ويحسنون الى مَن اساء اليهم ويتواسون فيما آتاهم اللّه تعالى". وعن عبادة بن الصامت عن النبي عليه الصلاة والسلام قال: "لا يزال في امتي ثلاثون رجلاً

كلهم في الفضل مثل ابراهيم خليل الرحمن كلما مات رجل اَبدَلَ اللّه مكانه آخر".
وعن انس عن النبي ﷺ قال: "الأبدال اربعون رجلاً واربعون امرأة كلما مات رجل ابدل اللّه مكانه رجلاً وكلما ماتت امرأة ابدل اللّه مكانها امرأة". وعن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: "إن لله تعالى في الارض ثلاثمائة قلوبهم على قلب آدم، وله اربعون قلوبهم على قلب موسى، وله سبعة قلوبهم على قلب ابراهيم، وله خمسة قلوبهم على قلب جبرائيل، وله ثلاثة قلوبهم على قلب ميكائيل، وله واحد قلبه على قلب اسرافيل، فيهم يُحيي ويُميت ويُمطر ويُنبت ويَدفع بهم البلاء". وعن انس عن النبي ﷺ قال: "إن بُدَلاء امتي لم يدخلوا الجنة بصوم ولا صلاة ولكن بسلامة الصدور وسخاوة النفس ونصيحة المسلمين". وتقدم وجه لتسميتهم أبدالاً ان احدهم إذا فارق موضعاً وأراد ان يخلف به رجلاً آخر بدلاً منه لأمر يريده فيه مصلحة وقربة كان له القدرة على ذلك فيترك شخصاً على صورته لايشك كل من رآه انه عين ذلك الرجل وليس كذلك بل هو شخص روحاني اقامه مقامه، فكل مَن له هذه القوة فهو من الأبدال. اما من يقم اللّه بدله شخصاً لأمر ما ولا علم له به فليس منهم. ومعنى قولهم فلان على قدم فلان انه مثله في علومه ومعارفه التي ترد على قلبه، فإن المعارف الإلهية انما ترد على القلوب، وكل علم يرد على قلب الشخص الكبير من ملك أو رسول فإنه يرد على قلب مَن ورثه في مقامه. وقد يقولون فلان على قلب فلان ومعناه ما ذُكر أي ينقلب في علومه ومعارفه.

وقد تُطلق الأبدال على اربعين رجلاً يسمون أيضاً الرجبيين وهم رجال لهم القيام بعظمة اللّه تعالى وهم الافراد وارباب القول الثقيل المذكور في قوله تعالى (**إنا سنُلقي عليكَ قولاً ثقيلاً**). سُمّو رجبيين لأن حالهم لايكون لهم إلاّ في شهر رجب من أوله الى انفصاله، ثم يفقدون ذلك الحال من انفسهم الى دخول رجب من السنة الآتية. ولما كان لاتتم تلك الاحوال السَنية والمقامات العلية ويبلغ تلك المجاهدة إلا بالخمول وعدم الشهرة اشار رضي اللّه تعالى عنه الى ذلك بقوله:

وإيّاك وحب الشهرة والإظهار كم فُتن بهما سادةٌ أخيار؛ أي احذر أيها الطالب للطريق السالك في بيداء التحقيق من حب الظهور فإنه يقصم الظهور، وإيّاك والشهرة فإنها توجب الندامة والحسرة، فإنه لا شيء اضرُّ على المريد من حب الشهرة وانتشار الصيت،

لأن ذلك من أعظم حظوظ النفس القاتلة وفيها مناقضة للعبودية المُطالَب بها العبد. وقد قالوا: مَن طلب الشهرة بين الناس. فمن لازمه ان يرضيهم بما يسخط اللّه عزَّ وجلّ. وقالوا: مَن اقبل على الخلق قبل الكمال سقط من عين اللّه تعالى. قال ابراهيم بن ادهم: ما صدق اللّه تعالى مَن احب الشهرة. وقال بعضهم: طريقنا هذا لايصلح إلاّ لأقوام كُنست بأرواحهم المزابل. وقال ايوب السختياني: واللّه ما صدق اللّه عبده إلاّ سرّه ألاّ يشعر بمكانه. وقال رجل لبشر بن الحارث: أوصني، فقال: اخمل ذكرك واطب مطعمك. وقال بشر رضي اللّه عنه: ما اعرف رجلاً احبَّ ان يُعرف إلاّ ذهب دينه وافتضح. وقال أيضاً: لايجد حلاوة الآخرة رجل يحب ان يعرفه الناس. وقال الفضيل: بلغني ان اللّه تعالى يقول في بعض ما يمن به على عبده ألم انعِم عليك، ألم استرك، ألم اخمل ذِكرك. ثم ان محبة الاشتهار مما يُقدح في اخلاص العبد، لأنه بذلك لاينفك عن الاغراض التي تبعثه على استمالة قلوب الخلق، فتدعوه نفسه الى ذلك دعاء خفياً فيصبغ عمله بالرياء انصباغاً لايتفطن له. فلهذا قال رضي اللّه عنه: كم فُتن بهما سادةٌ أخيار.

في الظهور والشهرة من هذه الحيثية فتنة للعبد عظيمة ومحن جسيمة إلاّ مَن رحم اللّه. فإذا اخمل العبد نفسه وألزمها التواضع والمذلة واستمر على ذلك حتى صار لها خُلُقاً وجبِلّة بحيث لايجد لضعته ألماً ولا لمذلّته طمعاً، فحينئذ تتزكى نفسه ويستنير بنور الإخلاص قلبه وينال من اللّه اعلى درجات الخصوصية ويحصل على اوفر نصيب من المحبة الحقيقية. قال أبو طالب: ومتى ذلّ في نفسه واتضع عند نفسه فلم يجد لذلته طمعاً ولا لضعته حسّاً فقد صار الذل والتواضع كونه، فهذا لايكره الذم من الخلق لوجود النقص في نفسه، ولايحب المدح منهم لفقد القدر والمنزلة في نفسه، فصارت الذلّة والضعة صفة لاتفارقه لازمة لزوم الزبالة للزبّال والكساحة للكسّاح هما صنعتان له كسائر الصنائع وربما فخروا بهما لعدم النظر الى نقصهما، فهذه ولاية عظيمة له من ربه قد ولاّه على نفسه وملّكه عليها فقهرها بعزه، فهذا مقام محبوب وبعده المكاشفات بسرائر الغيوب. ثم قال: ومَن كان حاله مع اللّه تعالى الذلّ طلبه واستحلاه كما يطلب المستكبر العزّ ويستحليه إذا وجده، فإن فارق ذلك الذلّ ساعة تغير قلبه لفراق حاله كما ان المتعزز إذا فارق العزِ ساعة تكدّر عليه عيشه لأن ذلك عيش نفسه. فإذاً لابد للمريد

من اسقاط جاهه واخماد ذكره وفراره عن مواضع اشتهاره وتعاطيه اموراً مباحة تسقطه من اعين الناس، كقصة السائح الذي سمع به ملك زمانه فجاء اليه فلما سمع ذلك السائح استدعى بقلاً وجعل يأكل اكلاً عنيفاً بمرآى من الملك فلما رآه على تلك الحالة إستحقره وإستصغره وإنصرف عنه ذامّاً له.

وقد بالغ بعض أئمة الصوفية رضي اللّه عنهم في مداواة علّة الجاه الذي علق بالقلوب حتى استعملوا في ذلك اشياء منكرة في ظاهر الشرع ورأوا ذلك جائزاً لهم ان يفعلوه ويأمروا به، وذلك مثل قصة الرجل الذي دخل الحمام ولبس من فاخر ثياب الناس تحت ثيابه بحيث تظهر ومشى بذلك ممهلاً بحيث يُرى ويُظن به السرقة، فلما رآه الناس اخذوه وصفعوه ونزعو الثياب عنه وإشتهر عندهم بالسرقة حتى كان يعرف بلص الحمام، فحينئذ وجد قلبه. ومثل ما يُروى عن ابي يزيد رضي اللّه عنه في قصة الشاهد الذي امره بحلق رأسه ولحيته وتعليق مخلاة الجوز في عنقه واعطائه في ذلك لمن يصفعه من الصبيان وطوافه على تلك الحالة في المحافل والمحاضر. والحكايتان مشهورتان ذكرهما الامام أبو حامد الغزالي. قال بعض المصنفين: واذ جاز لمن غَصَّ بلقمة من طعام حلال ان يسيغها بجرعة من الخمر إذا لم يجد غيره مع إن تحريمه مقطوع به ولايفوته إلاّ حياة فانية، فلأن يجوز مثل هذا إذا تعين أولى اذ يفوته بذلك الحياة الباقية والقرب من اللّه تعالى. فإذا إلتزم العبد هذه الطرق من الرياضيات ماتت نفسه وحييَ قلبه وقرب من حضرة ربّه واجتنى ثمرة غرسه على غاية الكمال والتمام، وتلك الثمرة اخلاق الايمان التي تكيّفت بها نفسه وصارت كصفات ذاتية له، وهي نتيجة الحكمة التي اثبتها اللّه في قلوب عباده المتواضعين (ومَن يؤتَ الحكمة فقد أُوتي خيراً كثيراً).

قال عيسى عليه السلام لأصحابه: أين تنبت الحبة؟ قالوا في الارض. فقال: كذلك الحكمة لاتنبت إلاّ في قلب مثل الارض. قلت وقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله في مدح الخمول وذم الشهرة أحاديث كثيرة منها ما روى أبو امامة عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: "يقول اللّه عزَّ وجلّ إن اغبط اوليائي عندي لمؤمنٌ خفيف الحاذ له حظٌّ من الصلاة، أحسنَ عبادة ربه واطاعهُ في السرّ، وكان غامضاً في الناس لايُشار اليه بالأصابع، وكان رزقه كفافاً فصبر على ذلك، ثم نفض يده فقال: عجلت منيته قلَّت بواكيه قلَّ تراثه". وفي حديث ابي هريرة قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله: "رُبَّ اشعثَ اغبرَ ذي طمرين تنبو عنه أعينُ الناس لو

أقسمَ على اللّه لأبَرَّه." وروى معاذ بن جبل عن النبي ﷺ أنه قال: "إن يسيراً من الرياء شرك وإن مَن عادى اولياء اللّه فقد بادىء اللّه بالمحاربة وإن اللّه يحب الأخفياء الأتقياء الذين إذا غابوا لم يُفتقدوا واذا حضروا لم يُدعوا ولم يُعرفوا، قلوبهم مصابيح الهدى، يخرجون من كل غبراء مظلمة".

وروي أبو هريرة عن النبي ﷺ في حديثه الذي نوّه فيه باسم أويس القرني واشار بذكره ونبّه على عظيم امره انه قال: بينما نحن جلوس عند النبي ﷺ في حلقة من اصحابه اذ قال ليصلين معكم غدا رجل من أهل الجنة. قال أبو هريرة فطمعت ان أكون ذلك الرجل فغدوت فصليت خلف النبي ﷺ فاقمت في المسجد حتى انصرف الناس وبقيت انا وهو، فبينما نحن كذلك اذ أقبل رجل اسود متزر بخرقة مرتد برقعة فجاء حتى وضع يده في يد رسول اللّه ﷺ ثم قال: يا نبي اللّه ادع اللّه لي بالشهادة. فدعا النبي ﷺ بالشهادة وانا لنجد منه ريح المسك الأذفر. فقلت: يا رسول اللّه أهو هو؟ قال: "نعم انه لمملوك بني فلان. قلت: أفلا تشتريه فتعتقه يارسول اللّه؟ قال: وأنّى لي بذلك ان كان اللّه يريد ان يجعله من ملوك الجنة، يا أبا هريرة ان لأهل الجنة ملوكاً وسادة وإن هذا الاسود اصبح من ملوك الجنة وساداتهم، يا أبا هريرة إن اللّه عزَّ وجلّ يحب من خَلقه الاصفياء الأخفياء الأبرياء الشَعِثة رؤوسهم المغبرّة وجوههم الخمِصة بطونهم مِن كَسبِ الحلال، الذين إذا استأذنوا عَلى الامراء لم يُؤذن لهم وإن خطَبوا المتنعّمات لم يُنكحوا وإن غابوا لم يُفتقدوا وإن حضروا لم يُدعوا وإن مرضوا لم يعادوا وإن ماتوا لم يشهدوا. قالوا: يارسول اللّه كيف لنا برجل منهم؟ قال: ذلك أويس القرني. قالوا: وما أويس؟ قال: أشهل ذو صهوبة بعيد ما بين المنكبين، معتدل القامة آدم شديد الأدمة، ضارب بذقنه الى صدره، رام ببصره الى موضع سجوده، واضع يمينه على شماله، يتلو القرآن يبكي على نفسه، ذو طمرين لايؤبه له متزراً إزار صوف ورداء صوف، مجهول في أهل الارض معروف في أهل السماء، لو اقسم على اللّه لأبرّه قسمه، ألا وإن تحت منكبه الأيسر لمعة بيضاء، ألا وإنه إذا كان يوم القيامة قيل للعباد ادخلوا ويقال لأويس القرني قف فاشفع، فيشفّعه اللّه في مثل عدد ربيعة ومضر، يا عمر ويا علي إذا أنتما لقيتماه فاطلبا إليه ان يستغفر لكما يغفر اللّه لكما وذكر باقي الحديث.

وفي حديث آخر ان النبي ﷺ قال: يكون في امتي رجل يقال له أوَيس القرني يدخل في شفاعته عدد ربيعة ومضر لو أقسمَ على اللّه لأبرّه، فمن لقيه بعدى فليقرئه مني السلام. ثم سُئل عن علامته فقال: هو رجل أصهب أشهل ذو طمرين أبيضين له أدم وقد كان به بياض فدعا اللّه عزَّ وجلّ فأذهبه عنه إلاّ مقدار الدينار أو الدرهم لايُؤبَهُ له، مجهول في الارض معروف في السماء.

وكان أويس قد بلغ من شدة خموله ونهاية صنعته أن الناس كانوا يسخرون منه ويستهزؤن به ويؤذونه ويرون فيه أهلية الخداع والتلصُّص وينسبونه الى ذلك. فقد روي انه دفع اليه بعض فقهاء الكوفة ثوبين وكان يجالسه فإنقطع عن مجلسه لأجل العري فردَّهما عليه بعد ان اخذهما. وقال: إن الناس يقولون من أين له هذان الثوبان تُرى مَن خدع عليهما. وكان في ذلك الوقت يجالس الفقهاء ويظهر للناس وذلك قبل ان يُعرف برفعة القدر وجلالة الخطِر وتنويه عمر رضي اللّه عنه به على المنبر، فلما رأى أن الناس قد عرفوا حاله هرب عنهم واستخفى منهم ولبس امره عليهم برعاية الإبل وغير ذلك. وقيل لعمر رضي اللّه عنه لما سأل عنه قومه ما فينا اخمل منه ذكراً. فلما لقيه هو وعلي رضي اللّه عنهما وسأله مَن هو فقال له راعي غنم وأجير قوم وستر ذكر أويس فلما سأله عن اسمه قال: عبداللّه، فلما سأله عن اسمه الذي سمته امه إمتنع ان يجبيه عن ذلك، فلما اخبراه بصفة النبي ﷺ وانهما عرفاه بذلك. قال لهما: عسى أن يكون ذلك غيري. فلما قالا له اخبرنا رسول اللّه ﷺ إن تحت منكبك الأيسر لمعة بيضاء، وطلبا منه ان يوضحها لهما فلم يجد بُدّاً من ان يوضحها لهما وذلك واللّه اعلم ليريهما رؤية عين صحة قول النبي ﷺ وصدقه في اخباره بالغيب، وذلك امر واجب عليه وإلاّ فلعله كان يتعلّل لهما كما فعل في كل ما يسأل عنه. ثم بعد ذلك لما سأله عمر ان يلتقي معه ويجعل ذلك الموضع ميعاداً بينه وبينه، قال له: يا أمير المؤمنين لا ميعاد بيني وبينك ولا اعرفك ولاتعرفني بعد اليوم. ثم دفع الابل الى اصحابها وخلا عن الرعاية.

وكذلك فعل مع هرم بن حيان لما لقيه بشاطيء الفرات ووقع بينهما التعارف. قال له: حدثني بحديث عن رسول اللّه ﷺ أحفظه عنك. فقال له: لا أحب ان افتح هذا الباب على نفسي لا احب ان اكون محدثاً ولا مفتياً ولا قاضياً. فلما فرغا من الكلام الذي

كانا بصدده وسأله مداومة الاجتماع به فأبى وامتنع. وقال له: لا أراك بعد اليوم لاتطلبني ولاتسأل عني إنطلق انت من ههنا حتى انطلق أنا من ههنا. ثم بعد ذلك اجتهد في طلبه والبحث عنه فلم يقع له على خبر .ومن عجيب امره ان حقق اللّه هذا الحال من التخفي والتستر واتمه له بعد موته مع ما اظهره بسببه من الآيات والعبر حينئذ. قال عبداللّه بن سلمة غزونا أذربيجان زمن عمر ابن الخطاب رضي اللّه عنه ومعنا أويس القرني، فلما رجعنا مرض فمات، فنزلنا فإذا قبر محفور وماء مسكوب وكفن وحنوط، فغسلناه وكفناه وصلّينا عليه ودفناه، فقال بعضنا لبعض لو رجعنا فعلمنا قبره فرجعنا فإذا لا القبر ولا أثر.

قلت والحكايات والآثار في مدح الخمول وذم الاشتهار أكثر من ان يأتي عليها انحصار، وقد اورد كثيراً منها الأئمة المصنفون في هذا العلم، فليطالع ذلك المريد مستمداً من اللّه تعالي حسن التوفيق والتأييد. وانما قال الاستاذ رضي اللّه عنه إيّاك وحب الشهرة، اشارة الى ان المذموم حبها وميل القلب اليها، أما مَن اشهره اللّه تعالى ورفع ذِكره فذلك فضل اللّه فلا ينبغي للعبد ان يختار مع سيده شيئاً، والحق ان يقوم العبد حيث اقامه اللّه وينزل حيث انزله ولتكن همّته في كل حال ومقام متعلقة باللّه تعالى لايقف مع شهرة وظهور ولايستأنس بخمول وارخاء ستور، وانما الشان ان يسلم الأمر لله في حالتيه وينطرح كالميت بين يديه. وهذا هو الذي رمز اليه المصنّف بقوله واشار اليه:

(حيث لايحجب بالخمول عن الوصول) أي لاتستأنس به وتقف معه

بل فَوض أمرك لخالق الفروع والاصول، ان شاء اخملَ ذكرك وستر عن الابصار وكرك، وإن شاء اشهرَك ورفع في الملأين ذِكرك (واللّه يعلمُ وانتم لاتعلمون).

فالأولى بك ان تكون مسلماً له القِياد واللّه يفعل في ملكه ما أراد، ولهذا قال رضي اللّه تعالى عنه: التسليم اشرف المقامات؛ يعني التسليم لله تعالى فيما يجريه عليك من احوال الظاهر والباطن من اشرف المقامات المكتسبة للعبد باعتبار بدايته وان كان حالاً باعتبار نهايته اذ هو معنى يحل بالقلب كسائر الأحوال. كما قالوا مثل ذلك في الرضا اذ هما متقاربان في المعنى. وهو كما قال أبو عثمان الحيري منذ اربعين سنة: ما اقامني اللّه تعالى في حالة فكرهتها وما نقلني الى غيرها فسخطتها. وقوله: وعدمه

-اي وعدم التسليم - بمعنى التعلّق والتضجُّر من الحالة التي اقامك اللّه فيها وطلب الانتقال الى غيرها كأن يهيئ اللّه لك اسباب الشهرة فتريد انت الخمول وتميل اليه وعكسه، وكأن يهيئ لك اسباب الاكتساب فتميل الى التجريد وعكسه من الشهوات الخفيات -اي من شهوات النفوس الخفية. كما قال ابن عطاء اللّه الاسكندراني في حكمه: إرادتك التجريد مع اقامة اللّه إيّاك في التجريد انحطاط عن الهمّة العلية.

واعلم أن العبد إذا سلَّمَ لله في قياده وانطرح تحت اعتاب مراده ارتاح من الهمّ فؤاده، فإن ادخلك اللّه في سبب من الاسباب سلِّم له ولاتقلق فإنه يتولى اعانتك عليه (**وقل ربي ادخلني مُدخَل صدق واخرِجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً**). فالمُدخل الصدق ان تدخل فيه بربك لا بنفسك، والمخرج الصدق أيضاً كذلك فافهم. فإن الذي يقتضيه الحق منك ان تمكث حيث اقامك حتى يكون الحق سبحانه هو الذي يتولى اخراجك كما يتولى إدخالك، وليس الشأن ان تترك السبب بل الشأن ان يتركك السبب. قال بعضهم: تركت السبب كذا وكذا مرة فعدت اليه ثم تركني السبب فلم اعد اليه. قال العارف باللّه سيدي بن عطاء اللّه الاسكندري: دخلت على شيخي وسيدي ابي العباس المرسي رضي اللّه عنه وفي نيتي العزم على التجريد قائلاً في نفسي إن الوصول الى اللّه تعالى في هذه الحالة بعيد من الاشتغال بالعلم الظاهر ووجود المخالطة للناس، فقال لي من غير ان اساله: صحبني انسان مشتغل بالعلوم الظاهرة ومتصدر فيها فذاق من هذا الطريق شيئاً فجاء الي وقال يا سيدي اخرجُ عمّا انا فيه واتفرغ لصحبتك، فقلت له ليس الشأن ذلك ولكن امكث فيما انت فيه وما قسم اللّه لك على ايدينا فهو اليك واصل. ثم قال الشيخ ونظر الي وهكذا شأن الصديقين لايخرجون من شيء حتى يكون الحق هو الذي يتولى اخراجهم. فخرجت من عنده وقد غسل اللّه تلك الخواطر من قلبي ووجدت الراحة بالتسليم الى اللّه تعالى.

ولما كان في التسليم لله السلامة وفي دوام الإقبال على اللّه الاستقامة حرّض على عدم الوقوف مع المقامات والركون الى الكرامات بقوله رضي اللّه عنه:

لاتقف بالمقامات عن الوصول؛ يعني لاتركن الى ما يحصل لك من انواع الكرامات والمكاشفات في اثناء المقامات، فإنك ان وقفت عنده واستأنست به حجبك عما هو المقصود الاعظم، وهو الوصول الى حضرة الحق سبحانه وتعالى وبلوغ المأمول. قال ابن

عطاء اللّه الاسكندراني في حكمه: ما ارادت همّة سالك ان تقف عندما كشف لها إلاّ ونادته هواتف الحقيقة الذي تطلُب امامك، ولاتبرّجت ظواهر المكنونات إلاّ نادتك حقائقها إنما نحن فتنة فلا تكفر آه. قال شارحها ابن عباد رحمه اللّه تعالى: السائر الى اللّه تعالى يتجلّى له في اثناء سلوكه أنوار وتبدو له اسرار، فإذا ارادت همّته ان تقف عندما كُشف لها من ذلك لإعتقاده انه وصل الى الغاية القصوى والنهاية من المعروفة نادته هواتف الحقيقة المطلوبة الذي تطلب امامك فجد في السير ولاتقف، وإن تبرّجت له ظواهر المكنونات بزينتها فمال الى حسنها وجمالها نادته حقائقها الباطنة إنما نحن فتنة فلا تكفر وغمض عينيك عن ذلك ولاتلتفت إليه ودم على سلوكك وسيرك.

واعلم إنما دامت لك همّة وارادة فانت بعد في الطريق لم تصل، فلو قد فنيت عنها لوصلت، وما احسن قول الشيخ ابي الحسن القشيري في هذا المعنى:

فلا تلتفت في السير غيراً وكلّما ... سوى اللّه غيرٌ فاتخذ ذكرهُ حصنا
وكلَّ مقامٍ لاتُقم فيه إنّه ... حجاب فجدِّ السير واستنجد العونا
ومهما ترى كلَّ المراتب تجتلي ... عليك فحلْ عنها فعن مثلها حلنا
وقل ليس لي في غير ذاتك مطلبٌ ... فلا صورةً تجلّى ولا طرفة تجنا

ثم قال: وقد رأيت لسيدي ابي الحسن الشاذلي رحمه اللّه كلاماً حسناً مناسباً للمقام من الترقّي في الاحوال وظهور والنقص في رؤية الكمال، فرأيت ان اذكره ههنا بنصه لما فيه من سني الفوائد وشريف المقاصد قال: اعلم انك إذا اردت ان يكون لك نصيب مما لأولياء اللّه تعالى، فعليك برفض الناس جملة إلاّ من يدلك على اللّه تعالى باشارة صادقة واعمال ثابتة لاينقضها كتاب ولا سُنّة، واعرض عن الدنيا بالكلية ولاتكن ممن يعرض عنها ليعطى شيئاً على ذلك، بل كن في ذلك عبد اللّه امرك ان ترفض عدوه، فإن كنت العبد اتيت بهاتين الخصلتين الإعراض عن الدنيا والزُهد في الناس، فاقم مع اللّه تعالي بالمراقبة وإلتزام التوبة بالانابة والخضوع للاحكام بالاستقامة.

وتفسير هذه الوجوه الاربعة ان تقوم عند اللّه فيما تأتي وتذر، وتراقب قلبك انه لايرى في المملكة شيئاً لغيره، فإن اتيت بهذا نادتك هواتف الحق من انوار العزّ انك قد عميت عن طريق الرشد من اين لك القيام مع اللّه تعالى بالمراقبة وانت تسمع قوله (وكان اللّهُ على كلِّ شيءٍ رقيبا) فهناك يدركك من الحياء ما يحملك على التوبة مما

ظننت انه قريب. فالتزام التوبة بالرعاية لقلبك ان لايشهد ذلك منك بحال فتعود الى ما خرجت عنه، فإن صحت هذه منك نادتك الهواتف أيضاً من قبل الحق التوبة منه بدت والانابة منه تتبعها واشتغالك بما هو وصف لك حجاب عن مرادك، فهنالك تظهر أوصافك فستعيذ باللّه منها وتاخذ في الاستغفار والانابة. والاستغفار طلب الستر عن اوصافك بالرجوع الى اوصافه، فإن كنت بهذه الصفة - أعني الاستغفار والانابة - ناداك من قريب اخضع لاحكامي ودع عنك منازعتي واستقم مع ارادتي برفض ارادتك، وانما هي ربوبية تولت عبودية وكن عبداً مملوكاً لاتقدر على شيء، فمتى رأيت منك قدرة وكلتك اليها وانا بكل شيء عليم. فإن صح لك هذا الباب ولزمته اشرفت من هنالك على اسرار لاتكاد تسمع من احد من العالمين آه.

ومما يعينك على ترك الوقوف مع المقامات والاحوال والمكاشفات نظرك الى مَن فوقك من أهل الكمال السائرين على قدم المجاهدة الى حضرة ذي الجلال والجمال، فإنك إذا نظرت الى احوالهم ومجاهداتهم واقبالهم على اللّه تعالى وعدم التفاتهم الى شيء من الاغيار انبعث منك داعي الى الاقتداء بهم والسير على منهاجهم، ولهذا قال رضي اللّه تعالى عنه:

تنبه كم فوقك من كُمَّلِ الفحول؛ اي من الرجال الكُمَّل أي الكاملين في العرفإن المشبهين في قوة المجاهدة والتمكن من المقام بالفحول جمع (فحل) وهو النجيب من الإبل، والمراد النظر في سيرتهم واحوالهم ومطالعة كتبهم ان كانوا امواتاً وان كانوا احياء موجودين بين اظهرنا، فبخدمتهم ومشاهدة احوالهم وصحبتهم في اللّه فإن النظر الى المنقطعين الى اللّه تعالى دواء لعلل القلوب وامراض الذنوب. قال العارف باللّه تعالى سيدي ابن عطاء اللّه الاسكندراني رضي اللّه تعالى عنه: لاتصحب إلاّ من ينهضك حاله أو يدلك على اللّه مقاله، فإن النفس مجبولة على حب الاقتداء بمن يستحسن حاله، وشأن الطبع ان يسرق من الطبع إن خيراً فخير وإن شراً فشر بخلاف ما إذا نظر الإنسان الى مَن هو ادنى حالاً منه، فإنه ربما وقف عن السير وحرم كثيراً من الخير. ولهذا قال سيدي العارف باللّه المذكور: ربما كنت مسيئاً فأراك الإحسان منك صحبتك الى مَن هو اسوء حالاً منك حينئذ ترضى عن نفسك وهو اصل كل معصية وشر كما لايخفى. ولهذا قال رضي اللّه عنه:

متى وصلت لاتكسل؛ المراد من الوصول هنا الوصول المعنوي باتصاف النفس بالاوصاف الحميدة والانسلاخ عن الاوصاف المذمومة، وانغماس المرء في بحري الشريعة والحقيقة حتى يبصر بالعينين ويشرب بكل من الكأسين ويتحقق بمعنى حديث "لايزال عبدي يتقرب الي بالنوافل حتى احبه، فإذا احببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يُبصر به" الى تمام الحديث القدسي. وليس المراد من الوصول بمعنى قطع المسافة الحسية حتى يصل الى مكان حسي، فإن ذلك محال لأنه يقتضي الحدوث الى الموصل اليه واللّه سبحانه وتعالى مُنَزَّه عن ذلك. ولايتحقق للعارف الوصول الى اللّه تعالى إلاّ بالخروج عن الطبع والتأدب بآداب الشرع وقوله "لا تكسل" أي لاتترك المجاهدة بان تقلل منها اعتماداً على تهذيبها وانقيادها واستسلامها، فإذا ما دامت حية تسعى فهي حية تسعى، وهذا طريق الكُمَّل من العارفين فإنهم لايفترون عن المجاهدة الظاهرة والباطنة والمجاهدة الباطنة اغلب عليهم، فيراهم المحجوب نائمين وهم مستيقظون، ويراهم غافلين وهم ذاكرون حتى لايكادون يتميزون عن العوام في ظاهرهم بشيء، وللقرض بالمقاريض ايسر عندهم من ترك أدب من الآداب قياماً بحق الامر.

وقد قال سيدي عبدالغني النابلسي فيما نقلة عن العارف باللّه سيدي مصطفي الصديقي في معنى حديث "لايزال يتقرب اليَّ عبدي بالنوافل حتى أحبه" أن (مازال) يفيد الدوام والاستمرار أي لايزال دائماً ما بقي يتقرب اليَّ حتى أحبه فإذا أحببته ومنَنتُ علية بذلك لاينتهي تقّربه بل كلما ازدادت محبتنا له الى ما لا نهاية له، فما تم مقام كمال ينعدم فيه التقرب آه. فما دام المرء في قيد الحياة فلابد له من المجاهدة والانتباه إذ المرء لايسلم من اعدائه ولو تناهى في ارتقائه، ولهذا قال رضي اللّه تعالى عنه:

وعن مكر اعدائك لاتغفل؛ اي لاتغفل عن خديعة اعدائك بك النفس والشيطان والهوى والدنيا، فمتى غفلت عن مجاهدة النفس والشيطان اوقعاك في الذلّ والهوان وألبساكَ ثوب الخزيان، واسلماك الى الدنيا وإتباع هواها فنزلت الى الحضيض الاسفل ولو كنت فوق السماك الأعزل. قال اللّه تعالى (وأمّا مَن خاف مقام ربِّه ونَهَى النفسَ عنِ الهَوى فإن الجنَّةَ هي المأوى) قيل معناه ونهى النفس عن الميل الى الشهوات، واوحى اللّه تعالى الى داود عليه السلام ياداود حذر اصحابك اكل الشهوات فإن النفوس المتعلقة بشهوات

الدنيا عقولها محجوبة عني. وقال النبي ﷺ: "إن اَخوفَ ما اخافُ على امتي إتباع الهوى وطولُ الأمل". وأما إتباع الهوى فيصدُّ عن الحق وأما طول الامل فيُنسي الآخرة.

واعلم ان التنبه للنفس والتجرُّد من حظوظها رأس العبادة، لأنها اعظم حجاب بين العبد والرب ومتى طلعت طوارق النفس غربت شوارق الانس، ومَن اهمل نفسه اهلكها وكيف يصحُّ للعاقل ان يغفل عن نفسه ولو بلغ في اعلى مقام العرفإن. وقد قال يوسف الصديق: وما ابرِّيءُ نفسي ان النفس لأمّارة بالسوء. وقال السري: طالبتني نفسي ثلاثين سنة أو أربعين سنة أن أغمس جزرة في دبس فما أطَعتُها. فأنظُر لهذا العارف مع تمكنه في مقام المعرفة كيف يقول. فلا ينبغي للانسان ان يتكل على تمكنه في المقام ووصوله الى مقام العرفان ويترك مجاهدة النفس والهوى، فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مع عصمتهم واستحالة وقوع الذنب منهم لما مالوا الى الهوى باعتبار مقامهم كيف عوتبوا وعوقبوا. فإنظر الى آدم ابي البشر لما اتّبع هواه في اكل الشجرة هبط من الفردوس الاعلى الى الارض، ونوح لما اتبع هواه في طلب تخليص ابنه من الغرق كيف رد اللّه عليه قوله وزجره بقوله (فَلا تسألني ما ليسَ لكَ بهِ علم)، وابراهيم الخليل لما استراح ساعة في مضجعه قيل له قم واذبح ولدك، ويعقوب فرح بلقاء يوسف ساعة فحبس في بيت الاحزان اربعين سنة، ويوسف التفت يوماً الى جماله وقال لو كنت عبداً ماذا كنت أساوي فبيع بثمن بخس وحُبس في السجن بضع سنين، وموسى ظن انه اعلم أهل زمانه وتاه بعلمه وفضله فابتُليَ بالخضر، وداود مال الى حظ نفسه فابتليَ بالبكاء والنحيب اربعين سنة حتى ناحت الجبال والطير، وسليمان استعظم ملكه فسلب منه وألقي على كرسيه جسداً آه. وكثير من العارفين باللّه الواصلين الكاملين ركن الى النفس ومال الى الهوى فنزل الى الحضيض الادنى، ولهذا نبه الشيخ على شيء من ذلك بقوله:

وعما جرى لابيك آدم لاتجهل؛ أي لاتكُن جاهلاً ما جرى لأبيك آدم من وسوسة ابليس له حتى اخرجه من الجنة وقصته مذكورة في كثير من كتب التفسير فارجع اليه ان شئت ذلك.

واعلم ان الكامل كلما عظم مقامه في معرفة اللّه تعالى وكلما ازداد خوفه واستشعر

قلبه يجد اعماله ناقصة مشوبة بانواع المساويء، فلا يكاد يرى لنفسه حسنة واحدة سالمة من النقص، فلا يزال خائفاً من رد اعماله عليه وعدم قبولها لديه. فلهذا نبّهُ الشيخ رضي اللّه عنه على ذلك بقوله:

لاتغترّ بالطاعات العبرة بالقبول؛ الإغترار بالطاعة والاعتماد عليها والركون اليها بحيث انه إذا وقع في زلّة نقص رجاؤه في اللّه تعالى واعتماده عليه. كما قال سيدي ابن عطاء اللّه الاسكندراني رضي اللّه تعالى عنه: من علامة الاعتماد على العمل نقصان الرجاء عند وجود الزَلَل. فالاعتماد على اللّه تعالى لا على الأعمال نعتُ العارفين الموحدين، والركون الى العمل والاعتماد عليه من وصف الجاهلين الغافلين الباقين مع نفوسهم في نسبة الافعال اليها وطلب الحظ لها عليها فاعتَمدوا على الأعمال وسكنوا الى الاحوال، فإذا وقعوا في زلّة نقص بذلك رجاءهم، كما انهم إذا عملوا طاعة جعلوها من اعظم عددهم واقوى معتمدهم، فتعلَقوا بالاسباب وحُجبوا بها عن الصواب وما عرفوا ان العبرة من العمل قبوله، فكم من عامل لاحظ له في القبول ولم يتحصل له من اعماله كبير محصول، وكم من قائم ليس له من قيامه إلاّ ترك الراحة والهجوع، وكم من صائم ليس له من صيامه إلاّ الجوع لفقد شروط القبول وتلبسه بالعمل المعلول. إذ من شروط قبول الأعمال وجود الإخلاص فيها والمخلصون على خطر عظيم، وقد حضر عند المؤلف رحمه اللّه تعالى مرة رجل من علماء المغرب فسأل الاستاذ عنه فقال له بعض الحاضرين إنه عالم، فقال: دعونا من علمه. فقالوا وعامل يا سيدي، فقال: دعونا من عمله. فقالوا: وماذا بعد العلم والعمل؟ فقال الاستاذ لذلك القائل: هاتِ القبول. فبكى ذلك الرجل. وهكذا شأن العارفين يخافون ربهم من فوقهم ولايعتمدون على عملهم خوفاً من الرد للعمل ورؤية النقصان فيه والزلل.

قال العارف باللّه ابن عطاء في حكمه: ربما فَتح عليك باب الطاعة وما فَتح لك باب القبول وقَضى عليكَ بالذنب فكان سبباً في الوصول. قال شارحها ابن عباد: ينبغي ان لاينظر العبد الى صور الأشياء ولينظر الى حقائقها، فصور الطاعات لاتقتضي وجود القبول لها، لما تضمنته من الآفات القادمة في الاخلاص فيها وذلك مانع وجود القبول لها ووجود صورة الذنب لايقتضي الابعاد والطرد بل ربما يكون ذلك سبباً في وصوله الى ربه وحصوله في حضرة قربه كما قيل رُبَّ ذنب ادخل صاحبه الجنة، وقد جاء في

الحديث الصحيح عن ابي هريرة عن رسول اللّه ﷺ أنه قال: "والذي نفسي بيده لو لم تُذنبوا لذهبَ اللّه بكم ولجَاءَ بقومٍ يذنبون ويستغفرون اللّه فيغفِر لهم"، وذلك انه يعجبه عند عمله بالطاعة ان يعجب بها ويعتمد عليها ويتكبّر بفعلها ويستصغر مَن لم يفعلها ويصحبه عند وقوعه في الذنب اللجأ الى اللّه تعالى فيه والاعتذار إليه منه واستصغار نفسه وتعظيم مَن لم يفعله. قال أبو حازم: إن العبد يعمل الحسنة ليسرُّه حين يعملها وما خلقَ من سيآت احقرَ له منها، وإن العبد يعمل السيئة تسوءه حين يعملها وما خلق اللّه من حسنة انفعَ له منها. وذلك إن العبد حين يعمل الحسنة تسرّه فيتبجح فيها ويرى ان له فضلاً على غيره ولعل اللّه ان يحبطها ويحبط معها عملاً كثيراً، وإن العبد ليَعمل السيئة يسوءُه حين يعملها ولعل اللّه أن يُحدِثَ له بها وجلاً حتى يلقى اللّه تعالى وإن خوفها في جوفه لباق آه.

قال بعض العارفين: مَن لم يظن ان اعماله اهلكته فهو هالك. وقال العارف باللّه سيدي مصطفى البكري الصديقي رضي اللّه تعالى عنه في توسلاته السَحَريّة: إلهي إني أخاف أن تعذبني بأفضل أعمالي فكيف لا أخاف من عقابك بأسوأ أحوالي. وإذا كان القبول مجهولاً فكيف ينبغي للعاقل ان يغترَّ بعمله سيما وهو مشوب بالعلل المفسدة للعمل، وهذا من الشيخ رضي اللّه عنه اشارة الى الخوف وهو من اهم المطالب عند القوم وعليه غالب العارفين سيما خوف سوء الخاتمة، فإنه فتَّتَ اكباد العارفين. ويحكى عن السرى السقطى رضي اللّه تعالى عنه انه قال: إني لأنظر الى انفي في اليوم كذا مرة مخافة ان يكون قد إسوَدَّ لما اخافه من العقوبة. وقال أبو حفص: منذ اربعين سنة وانا اعتقد في نفسي ان اللّه تعالى ينظر إليَّ نظر السخط واعمالي تدلُّ على ذلك. وقال حاتم الاصم: لاتغتر بموضع صالح فلا مكان اصلح من الجنة فلقي آدم عليه السلام فيها ما لقي، ولاتغتر بكثرة العبادات فإن ابليس بعد طول تعبُّده لقي ما لقي، ولاتغتر بكثرة العلم فإن بلعام كان يحسن اسم اللّه الاعظم فانظر ماذا لقي، ولاتغتر برؤية الصالحين فلا شخص اكبر من المصطفى ﷺ وكثير من اقاربه لم ينتفع بلقائه وعاداه كثيرة من معاصريه ممن سبقت لهم الشقاوة.

وقيل خرج عيسى عليه السلام ومعه صالحٌ من صالحي بني اسرائيل فتبعهما رجل وقيل خاطئ مشهور بالفسق فيهم فقعد منتبذا عنهما منكسراً فدعا اللّه فقال اللّهم اغفر لي،

ودعا هذا الصالح فقال اللّهم لاتجمع بيني غداً وبين ذلك العاصي. فأوحى اللّه تعالي الى عيسى إني قد استجبت دعاءهما جميعاً ورددت دعاء ذلك الصالح وغفرت لذلك المجرم. وقيل مرض سفيان الثوري فعرض دليله على الطبيب فقال: هذا رجل قطع الخوفُ كبده، ثم جاء وجسَّ عرقه ثم قال: ما علمت ان في الحنيفية مثله. وسُئِلَ الشبلي: لِمَ تصفرُّ الشمس عند غروبها ؟ فقال: لأنها عزلت عن مكان التمام فاصفرَّت لخوف المقام، فكذلك المؤمن إذا قارب خروجه من الدنيا اصفرَّ لونه لأنه يخاف المقام، فإذا طلعت الشمس طلعت مضيئة، كذلك المؤمن إذا بُعث من قبره خرج ووجهه يشرق. ويحكى عن احمد بن حنبل رضي اللّه عنه انه قال: سألت ربي عزَّ وجلّ ان يفتح عَليَّ باباً من الخوف ففتح فخفت على عقلي، فقلت يارب على قدر ما اطيق فسكن ذلك آه.

واعلم يا أخي انه لاينبغي للعارف ان يخرج بخوفه الى حد القنوط من رحمة اللّه تعالى واليأس من رَوح اللّه، وليكن خوفه ورجاؤه كجناحي طائر فإنهما إذا استويا استوى الطائر وتمَّ طيرانه، واذا نقص احدهما وقع فيه النقص واذا ذهبا صار الطائر في حد الموت. واذا خرج الخوف عن حده ربما ادى الى ترك الطاعة وأدى الى الاضاعة، ولهذا قال رضي اللّه عنه:

ولاتترك المجاهدات ولو صرت من أهل الوصول، ولكن مع ذلك لاتعتمد على مجاهداتك وتركن الى عباداتك وكن مع ذلك خائفاً حذراً (**وقل ربي ادخلني مُدخل صدق واخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيرا، قل بفضل اللّه وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون**). وانما على المرء ان يقوم بالخدمة ويلازم آداب الحرمة وليكن نظره الى اللّه تعالى في سائر احواله ويتبرأ من حوله وقوتة وليكن عبداً لله في سائر اطواره، ولايتشوق الى ظهور شيء من الخوارق والكرامات على يديه، فإن ذلك مخرج له عن حده وبذلك ينعكس الحال الى ضده، فالعبودية اشرف المقامات ومنها تتفرع سائر الاحوال السنيات وانما الأعمال بالنيات. ولهذا قال رضي اللّه عنه:

العبودية مع الاستقامة خير من الف كشف وكرامة. العبودية عبارة عن القيام بحق الطاعات بشرط التوقير والنظر الى ما وقع منك بعين التقصير. وقيل العبودية ترك الاختيار فيما يبدو من الاقدار. وقيل: هي التبري من الحول والقوة والإقرار بما يعطيك ويوليك من الطول والمنة. وقيل: هي معانقة ما امرت به ومفارقة ما زجرت عنه. وسُئِلَ

محمد بن حنيف: متى تصح العبودية؟ فقال: إذا طرح كله على مولاه وصبر معه على بلواه.

وقد قال سهل بن عبداللّه: لايصح التعبد لأحد حتى لايجزع من اربعة اشياء؛ من الجوع والعرى والفقر والذل. وقيل: من علامة العبودية ترك التدبير وشهود التقدير. وعلى كل حال فهي ان تكون عبدهُ على كل حال، فحال من اتصف بها ان يكون ذليلا ًمفتقراً الى اللّه تعالى لاتظهر عليه دعوى آنية ولا رؤية له لشيء من افعاله الصالحة بالكلية. قال سيدي عبدالوهاب الشعراني رضي اللّه تعالى عنه في رسالته (الأنوار القدسية في آداب العبودية): واعلم ان سبب تعدّي العبد عن حدوده كونه خُلق على الصورة وهو سبحانه وتعالى له العظمة والعزّة والكبرياء، فسرت هذه الاحكام في العبد تحقيقاً للواقع. والكامل من العبيد هو الذي لايصرفه خلقُه على الصورة عن الفقر والذلّة والعبودية لما يعرفه من نفسه من العجز والضعف والافتقار الى ادنى الاشياء والتألم من قرصة برغوث. هذا يدركه كل انسان من نفسه ذوقاً فليحذر العبد من رؤية نفسه على احد من رعيته ولو عبده الذي في رِقّه لأنه ربما يكون عند اللّه تعالى احسن حالاً منه كما ورد في الحديث، وليحذر من قوله له تجعل رأسك برأسي أو مثلك بمثلي أو غير ذلك، فإن هذا كله دليل على الجهل والغباوة والكِبر واللّه لايحب المتكبرين. ولو لم يكن في ذلك إلاّ ان اللّه يكرهه لكان كفاية في الزجر، لأن العبيد كلهم، حرهم ورقيقهم ملك له تعالى لا فضل لأحد إلاّ بما فضّله به سيده، وهذا لا ُيعلم إلاّ بوحي، فالزم الذل وترك الزجر لعبيدك وخدمك ان كنت عبداً للّه. واعلم ان هذه الطريقة لايحتاج سالكها الى مراجعة شيخ في الغالب لأنه لايقف مع كشف ولا منام ولا خاطر ولا غيرها مما يحتاج اليه فقهاء الصوفية.

وقد ذكر أشياء كثيرة في هذه الرسالة من آداب العبودية وهي رسالة حافلة، فمن اراد التخلق باخلاق العبودية فليطالعها فإنها عظيمة النفع ان شاء اللّه تعالى. والعبودية اتم من العبادة فالمراتب ثلاث؛ عبادة ثم عبودية ثم عبودة. فالعبادة للعوام من المؤمنين، والعبودية للخواص، والعبودة لخواص الخواص. وبعبارة اخرى؛ يقال العبادة لأصحاب المجاهدات، والعبودية لأرباب المكابدات، والعبودة صفة أهل المشاهدات. فمن لم يدخر عنه نفسه فهو صاحب عبادة، ومن لم يضن عليه بقلبه فهو صاحب عبودية،

ومن لم يبخل عليه بروحه فهو صاحب عبودة، والكل مشتق من العبادة بمعنى الذلة من قولهم ارض معبَّدة اي مذلّلة، فهي من وصف العبد خاصة ولهذا قال أبو يزيد البسطامي رضي اللّه عنه في بعض توسلاته في حالة القرب والمشاهدة: يا ربِّ بماذا اتقرب اليك؟ فقال اللّه تعالى له: تقرّب الى بما ليس لي الذلّة والإفتقار. قال تعالى (وما خلقتُ الجنَّ والإنسَ إلاّ لعبدونِ) أي ليذلّوا لي. ولايذلُّ له مَن لايعرفه ولذا فسرها بذلك ابن عباس بقوله ليعرفوني، فهو تفسير باللازم، وإنما خصّ هذين الجنسين بالذِكر دون غيرهما لأنه لم يدع احد الألوهية ولا التكبر على اللّه غيرهما من سائر المخلوقات. ولم يتحقق بمقام العبودية على كماله احد مثل رسول اللّه ﷺ فكان عبداً مخلصاً في جميع الاحوال ولهذا شهد اللّه تعالى له بانه عبدٌ مضاف اليه بقوله وانه لما قام عبد اللّه (سبحان الذي اسرى بعبدهِ)، فهو اشرف المقامات ولايحصل للعارفين على كماله إلاّ في آخر الأمر بعد السحق والمحق. وقد حصل هذا المقام لسيدي عبدالقادر الجيلاني في آخر حياته بعدما قال: قدمي هذه على رقبة كلّ ولي لله تعالى، وكان رأسه الشريف على وسادة فقال: أزيلوا هذه الوسادة من تحت رأسي وضعوه على التراب لعل اللّه يرحم ذلّي. وقال بعضهم: لما دخل مقام العبودية وتمكن فيه ذلى عطل ذل اليهود، فمثال العبد في عبويته مثل الظل للشخص المقابل للسراج كلما قرب من السراج عظم الظل وتزايد، وكلما بعد عن السراج صغر الظل وتفانى، فالعبد إذا قرب من اوصافه عظم عرفانه وضخم شأنه، واذا بعد عن اوصافه صغر وحقر ورجع الى الحضيض الأسفل. فالقرب من اللّه تعالى بما هو لك ايها العبد لا بما هو له سبحانه وتعالى، وقوله مع الاستقامة مع مداومة العمل الصالح والدأب عليه قال اللّه تعالى (إن الذين قالوا ربنا اللّه ثم استقاموا) قال في الرسالة: الاستقامة درجة بها كمال الامور وتمامها، وبوجودها حصول الخيرات ونظامها ومن لم يكن مستقيماً في حالته ضاع سعيه وخاب جهده قال اللّه تعالى (ولا تكونوا كالتي نقضت غَزلَها مِن بعد قوة أنكاثاً). ومَن لم يكن مستقيماً في صنعته لم يرتق من مقام الى غيره ولم يبين سلوكه على صحة، فمن شأن المريد الاستقامة في احكام البداية كما ان من حق العارف الاستقامة في آداب النهاية، فمن علامة استقامة أهل البداية ان لايشوب معاملتهم فترة، ومن امارة استقامة أهل الوسائط ان لايصحب منازلتهم وقفة، ومن امارة استقامة

أهل النهاية ان لايتداخل مواصلتهم حجبة.

وقال: سمعت الاستاذ ابا على الدقّاق يقول: الإستقامة لها ثلاث مدارج؛ اولها التقويم ثم الاقامة ثم الاستقامة. فالتقويم من حيث تأديب النفوس، والاقامة من حيث تهذيب القلوب، والاستقامة من حيث تقريب الاسرار. وقوله "خير من الف كشف وكرامة" يعني ان العبودية بمعنى التذلل لله والخضوع له في امتثال أوامره واجتناب نواهيه مع الاستقامة على فعل الطاعات واجتناب المخالفات أفضل عند اللّه من ظهور الخوارق على يد العبد إذ العبودية مما ليس للنفس فيها حظ بخلاف ظهور الكرامة على يده، وقد راى رجل من اوليا ء اللّه رجلاً واقفاً على الهوا ء فقال له: يا هذا هل مشيك في الهوا ء يكتب في صحائف الحسنات أو في صحائف السيئات؟ قال لا في شيء من ذلك. قال: فإذاً فصلِّ للّه ركعتين خير لك من ذلك كله. فاعترف بالحق ونزل آه.

وقد سمعت شيخنا العارف باللّه تعالى المصنف الكرامات حيض الرجال وقد حكى لي مرة عن شيخه سيدي مصطفى البكري قال: قمت ليلة من ليالي الشتا ء الباردة اتوضأ فرأيت الما ء بارداً جداً فقلت في نفسي لو جعل لي اللّه تعالى هذا الما ء ساخناً دافياً، ثم مددت يدي اليه مرة ثانية فإذا هو أحمى من ما ء الحمام والبخار صاعد منه فحالاً رجعت عن هذا الخاطر وتبتُ الى اللّه وقلت: يا ربِّ لا أريد اعده الى حاله، فعاد كما كان. فانظر الى هذا العارف كيف فرّ من الكرامة ولم يرض بظهورها على يده وما ذاك إلاّ خوفاً من الركون اليها وميل القلب معها فيقف عندها.

ولا يلزم من وجود الكرامة وجود الاستقامة قال العارف باللّه سيدي ابن عطا ء اللّه الاسكندراني في حكمه: ربما رزق الكرامة مَن لم تكمل له الاستقامة. قال شارحها ابن عباد: الكرامة الحقيقية انما هي حصول الاستقامة والوصول الى كمالها ومرجعها الى امرين؛ صحة الايمان باللّه واتباع ما جا ء به رسول اللّه ﷺ ظاهراً وباطناً. فالواجب على العبد ان لايحرص إلاّ عليهما ولايكون له همّة إلاّ في الوصول اليهما. واما الكرامة بمعنى خرق العادة فلا عبرة بها عند المحققين، اذ قد يرزق ذلك مَن لم تكمل له الاستقامة. قال الاستاذ أبو الحسن الشاذلي: إنما هما كرامتان جامعتان محيطتان؛ كرامة الايمان بمزيد الايقان وشهود العيان، وكرامة العمل على الاقتدا ء والمتابعة ومجانبة الدعاوى والمخادعة، فمن اعطيهما ثم جعل يشتاق الى غيرهما فهو عبد مغتر كذاب أو

ذو حظ في العمل والعلم بالصعاب كمن اكرم بشهود الملك على بيت الرضا فجعل يشتاق الى سياسة الدواب، وكل كرامة لايصحبها الرضاء عن اللّه ومن اللّه فصاحبها مستدرج مغرور وناقص أو هالك مثبور. وقال الاستاذ أبو العباس: ليس الشأن مَن تُطوى له الارض فإذا هو بمكة أو غيرها من البلدان، انما الشأن من تطوى عنه أوصاف نفسه فإذا هو عبد اللّه تعالى. وذُكر عن سهل بن عبدالله الكرامات فقال: وما الكرامات هي شي تنقضي لذتهما ولكن أكبر الكرامات ان تبدل خلقاً مذموماً من أخلاق نفسك بخلق محمود.

وقال بعض المشايخ: لاتتعجبوا ممن لم يضع في جيبه شيئاً فيدخل يده في جيبه فيخرج ما أراد، ولكن تعجبوا ممن يضع في جيبه شيئاً فيدخل يده في جيبه فلا يجده فلا يتغير. وقيل لأبي محمد المرتعش ان فلأنا يمشي على الماء وفي الهواء، فقال: عندي مَن مكّنه اللّه تعالى من مخالفة هواه فهو أعظم ممن يمشي على الماء وفي الهواء. وقال أبو يزيد: لو ان رجلاً بسط على الماء مصلاه وتربع في الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه في الامر والنهي. وقيل له: فلان يمر في ليله الى مكة، فقال: الشيطان يمر في لحظة من المشرق الى المغرب وهو في لعنة اللّه تعالى آه.

وشأن العارفين باللّه التشوف الى الاطلاع على ما فيهم من خفايا العيوب ورؤية التقصير في المعاملة وإلتزام الذلة والانكسار. قال العارف باللّه تعالى سيدي ابن عطاء اللّه الاسكندراني في حكمه: تشوفك الى ما بطَنَ فيك من العيوب خير من تشوفك الى ما حُجب عنك من الغيوب. قال شارحها العارف بربه ابن عباد: حكم المريد ان يتشوف الى معرفة ما غاب عنه من معايب نفسه ويتطلبها ويبحث عنها، فإن ذلك هو حق الحق تعالى منه، فينبغي ان يحرص عليه ويصرف عنان اعتنائه اليه ليحصل له صفاء اعماله من الآفات ونقاء احواله من الكدورات، وينتفي عنه الجهل والغرور وينقطع من باطنه موارد الشرور.

وقد ذكر أبو حامد الغزالي فصلا في الطريق الذي به الذي به يتعرف الإنسان عيوب نفسه فلينظر فيه المريد. وقد جعل حاصله اربعة اوجه؛ احدها ان يجلس بين يدي شيخ بصير يبصّره بالعيوب والآفات فيحكمه على نفسه ويتبع اشارته فيما يشير به عليه. والثاني؛ مصاحبه صديق صدوق يجعله رئيساً على احواله واعماله لينبهه على ما

يخفى عليه من مَذامِّ خِلاله. والثالث؛ ان يستفيد معرفة عيوبه من اعدائه إذ لابد من جريان ذلك على ألسنتهم عند تلبثهم وغيبتهم. والرابع؛ ان يستفيد ذلك من مخالطة الناس اذ يطلع بذلك على مساويهم، فإذا اطلع عليها متهم علم انه لاينفك هو عن شيء منها، لأن الطباع البشرية في ذلك متقاربة وقد يظهر له في نفسه ما هو اعظم مما يراه في غيره، فيطالب نفسه حينئذ بالتطهر منها والتنزّه عنها.

هذا تلخيص ما ذكره، وأما طلبه للعيوب المحجوبة عنه من خفايا القدر ولطائف العبر فإنه حظ نفس لاحق عليه فيه للحق تعالى، فليطب عنها نفساً ولايشغل بها عقلاً ولا حساً وما اظهر له منها لايسكن إليه وألاّ يعود عليه، فإن ذلك من المعايب القادحة في عبوديته، ولهذا قالوا: كُن طالب الاستقامة ولاتكن صاحب الكرامة، فإن نفسك تتحرك وتطلب الكرامة، ومولاك يطالبك بالاستقامة ولأن تكون بحق مولاك اولى بك من ان تكون بحظ نفسك. ومن الحكايات بهذا المعنى الذي ذكرناه ماروي في الاسرائيليات عن وهب بن منبه أن رجلاً من بني اسرائيل صام سبعين سنة يفطر في كل سنة ستة ايام فسأل اللّه تعالى ان يريه كيف تغوي الشياطين الناس، فلما طال ذلك عليه ولم يجب قال لو اطلعت على خطيئتي وذنبي بيني وبين ربي لكان خيراً لي من هذا الامر الذي طلبته. فارسل اللّه اليه مَلَكاً فقال له ان اللّه تعالى ارسلني اليك وهو يقول لك ان كلامك هذا الذي تكلمت به احبُّ الي مما مضى من عبادتك وقد فتح اللّه بصرك فانظر فإذا جنود ابليس قد احاطت بالارض واذا ليس احد من الناس إلاّ والشياطين حوله كالذباب. فقال إي ربِّ مَن ينجو من هذا؟ قال الورع اللين.

وسيأتي بيان إن الكرامات غير مطلوبة التحصيل ولا مغتبط بوجودها عند كل عالم نبيل، يعني عند قوله في الحكم: ليس كل مَن ثبت تخصيصه كمُلَ تخليصه. والحاصل ان الاستقامة امر عظيم واعظم ما يجري على العارفين امره تعالى بها كقوله تعالى (فاستقم كما اُمرت)، ومن تاب معك ولاتطغوا اي لاترتفعوا عن امره بما تجدونه في نفوسكم من خلقكم على الصورة الإلهية وتقولوا مثلنا لايكون مأموراً، وسبب صعوبة ذلك على العارفين انهم لايعرفون هل وافق امر اللّه تعالى ارادته انهم يمتثلون امره أو يخالفونه. ولهذا قال ﷺ: "**شيبتني هود واخواتها**".

وطرق الاستقامة لاتنحصر. قال ﷺ: "**استقيموا ولن تحصوا**" أي طرق الاستقامة

بدليل قوله بعد ذلك "اعملوا وخيرُ اعمالكم الصلاة" فهذا التفسير المشهور وهو؛ ولن تحصوا ما لكم في ذلك من الاجر والخير. وهذا معنى الاستقامة المتعلقة بالنجاة. واما الاستقامة التي تطلبها حكمة اللّه تعالى فهي السارية في كل كون قال اللّه تعالى (اعطى كل شيء خلقه ثم هدى). فكل شيء في استقامة، فاستقامة النبات ان تكون حركته منكوسة غالباً، واستقامة الحيوان ان تكون حركته افقية ولولا ذلك لم ينتفع بواحد منهما إذ لو لم تكن حركة الاول منكوسة لما شرب الماء باصوله فلم يحصل له قوة ولم يتم النفع به، ولو لم تكن حركة الثاني افقية بل كانت الى العلو مثلنا لم ينتفع بالركوب على ظهره والحمل عليه مثلاً. واخذ العالم كله على النمط آه.

ولما ذكر المصنّف رضي اللّه عنه ان الاستقامة خير من ألف كشف وكرامة اتبع ذلك بمسألة الأمن من مكر اللّه للإشارة الى ان المستقيم لاينبغي له ان يخلي قلبه من الخوف ولايأمن من ان يمكر اللّه به ويستدرجه. فلهذا قال رضي اللّه عنه:

الأمن من مكر اللّه خسران، وهو معنى قوله تعالى (**ولا يأمن مكر اللّه إلاّ القوم الخاسرون**) ففيه شبه اقتباس من الآية الكريمة، فاللائق بالعارف ان لايخلي قلبه من خوف اللّه تعالى ولو كان على اثبت قدم في الاستقامة. فقد كان الثوري لايزال يقول: اللّهم سلم سلم، كأنه في سفينة يخشى الغرق. فإن أمَرّ الأمور مرارة الزوال بعد التقرب والوصال. روي ان بلعام بن باعوراء كان بحيث إذا نظر يرى العرش وعجائب الملكوت الى العرش وذلك ان العارف تنتعش نفسه بجلايا الملك وخفايا الملكوت فيستضئ بأنوار قدس الجبروت، ولم يكن له إلاّ زلّة واحدة مال الى الدنيا وأهلها ميلة واحدة وترك الولى من اوليائه تعالى، فسلب اللّه تعالى معرفته وجعله بمنزلة الكلب والمطرود، حيث قال فمثله كمثل الكلب فأوقعه في بحر الضلال بعد ان كان في مجلسه إثنى عشر ألف محبرة للمتعلمين وقس عليه برصيصاً ممن سلب منه المعرفة بعد ان كان من المقربين. فلا يأمن مكر اللّه إلاّ القوم الخاسرون. قال الجُنيد: لو اقبل صادق على اللّه تعالى ألف ألف مرة ثم اعرض عنه لحظة كان ما فاته اكثر مما ناله. قال اللّه تعالى في وصف انبيائه العظام (انهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين) اي دائمين الوجل. روي عن النبي عليه الصلاة والسلام انه قال: "لو جُمع بكاء أهل الدنيا الى بكاء داود عليه السلام لكان بكاؤه اكثر، ولو جُمع ذلك الى بكاء نوح

عليه السلام لكان بكاؤه اكثر، ولو جُمع الى بكاء آدم لكان بكاؤه اكثر". وليس ذلك إلاّ لطلب الثبات على ما كانوا عليه من الاحوال والكرامات لأن العاقبة مجهولة والأمور بخواتيمها، لأن الإنسان قابل للانتقال من حال الى حال ومن منزل الى منزل. وهذا الانتقال هو الذي اوجب حصول الخوف عند الرجال من اللّه تعالى لأنهم لايعرفون مراد اللّه تعالى ولا الى اين ينقلهم ولا في اي صفة وطبقة يميزهم. فلما انبهم الامر عليهم عظم خوفهم منه. وقد قال صلى الله عليه وآله: "لو تعلمون ما اعلم لبكيتم كثيراً ولضحكتم قليلاً ولخرجتم الى الصعدات تجأرون الى اللّه تبكون لاتدرون تنجون أو لاتنجون". قال المناوي في شرحه الكبير على الجامع الصغير بيّن به انه ينبغي ان يكون خوف المرء اكثر من رجائه سيما عند غلبة المعاصي واشتهارها، فلهذا كان ابن ميسرة إذا آوى الى فراشه يقول: ليت امي لم تلدني. فتقول له أمه إن اللّه احسن اليك هداك الى الاسلام. فيقول: اجل لكنه بيّن لنا انا واردوا جهنم ولم يبين انا صادرون. وقال فرقد السنجي: دخل بيت المقدس خمسمائة عذراء لابسات الصوف والمسوح فذكرن ثواب اللّه وعقابه فمتن جميعاً في يوم واحد. وفيه زجر عن كثرة الضحك وحثٌّ على كثرة البكاء والتخويف بما سيصير المرء اليه من الموت والفناء آه.

وعنه صلى الله عليه وآله: "أنا اعرَفَكم باللّه واخوَفَكم منه". وفي رواية "أنا اتقاكم لله وأشدكم له خشية". قال سيدي محمد البكري قدَّس اللّه سره في رسالة (أخيار الأخيار): وقد جاء عن جدنا ابي بكر الصديق رضي اللّه عنه انه كان كثير البكاء خوفاً من ربه ورهباً وتضرعاً اليه ورغباً، فقيل له في ذلك هذا وانت بشَّرَك النبي صلى الله عليه وآله بالجنة. فقال: أخشى ان يكون ذلك معلقاً على شيء. فانظر هذا التحري الجليل ممن هو في هذه الامة نظير ابراهيم الخليل آه. فرجال اللّه تعالى يخافون من الاستبدال والانتقال من حال الى حال وهو الذي يدعوهم الى تفقد احوالهم مع اللّه عزَّ وجلّ في كل نَفَس لاسيما واللّه تعالى يقول (وإن تتولَوا يستبدِل قوماً غيرَكم ثم لايكونو أمثالكم)، يعني فيما وقع منكم من المخالفة لأمر اللّه تعالى، بل يكونوا على اتم قدم واقواه في طاعة اللّه تعالى. ولما ظهر من ابليس ما ظهر وطُرد ولُعن بعد ذلك المقام المفتخر طفق جبريل وميكائيل يبكيان زماناً طويلاً، فأوحى اللّه تعالى اليهما ما لكما تبكيان كل هذا البكاء؟ فقال: يا رب لا نأمن من مكرك .فقال اللّه تعالى: هكذا كونا.

وقد ذكر القشيري في الرسالة أن رجلين اصطحبا في الارادة برهة من الزمن ثم ان احدهم سافر وفارق صاحبه واتى عليه مدة لم يسمع منه خبراً فبينما هذا الآخر كان في غزاة يقاتل عسكر الروم اذ خرج على المسلمين رجل متقنع بالسلاح يطلب المبارزة، فخرج اليه من ابطال المسلمين واحد فقتله الرومي وثم خرج آخر فقتله، ثم ثالث فقتله فخرج هذا الصوفي وتطاردا فحسر الرومي عن وجهه فإذا هو صاحبه الذي صحبه في الارادة والعبادة سنين، فقال المسلم له: إيش الخبر؟ فقال له انه ارتد وخالط القوم وولد له اولاد وإجتمع له مال. فقال الصوفي: وكنت تقرأ القرآن بقراءة كثيرة. فقال: لا أذكر منه حرفاً واحداً. فقال له الصوفي: لاتفعل وارجع. فقال: لا أفعل فلي فيهم جاه ومال فانصرف أنت وإلاّ فعلت معك ما فعلت بأولئك. فقال له الصوفي: انك قد قتلت ثلاثاً من المسلمين وليس عليك آنفة في الانصراف فانصرف انت وانا أمهلك. فرجع الرجل مولياً فتبعه هذا الصوفي فطعنه وقتله. فبعد تلك المجاهدات ومقاسات تلك الرياضيات قتل على النصرانية فلا حول ولا قوة إلاّ باللّه من مكره وسخطه.

واعلم ان الخوف من اللّه تعالى وعقابه شعار الصالحين ودثارهم وقد مدح الله الخائفين في آيات كثيرة قال الله تعالى يدعون ربهم خوفاً وطمعاً، يخافون ربهم من فوقهم و(خافوني إن كنتم مؤمنين) و(إيّاي فارهبونِ). وقد ورد في الحديث لايدخل النار مَن بكى من خشية اللّه تعالى حتى يلج اللبن في الضرع. ولايجتمع غبار في سبيل اللّه تعالى ودخان جهنم في منخري عبد أبداً. وليس انفع للقلب من الخوف فهو سراج القلوب به يبصر القلب ما فيه من الخير والشر. قال أبو سليمان الداراني: ما فارق الخوف قلباً إلاّ خرب. وقال بعض العارفين إذا سكن الخوف القلب احرق مواضع الشهوات منه وطرد رغبة الدنيا عنه. وليس الخائف الذي يبكي ويمسح عينيه انما الخائف مَن يترك ما يخاف ان يُعذب عليه. وعلامة الخوف كما قال شاه الكرماني الحزن الدائم، فإنه صلى الله عليه وآله وسلم كان متواصل الاحزان. وقد وجد في بعض الكتب إذا اراد اللّه بعبد خيراً جعل له في نفسه نائحة، واذا اراد اللّه بعبد شراً جعل له في نفسه مزماراً. وقال يحيى بن معاذ: مسكين ابن آدم لو خاف من النار كما يخاف من الفقر لدخل الجنة.

وعلى كل حال فالخوف مطلوب في كل مقام وفي كل حال لكن لايبلغ بذلك الخوف الى الدخول في حد القنوط من العفو واليأس من الرحمة. ينبغي ان يكون الخوف راجحاً

على قلب المؤمن في حال صحته لأنه اعون على الطاعة وأزجر من المعصية، وفي حالة المرض والمواطن التي فيها مظنة القدوم على اللّه تعالى ينبغي ترجيح جانب الرجا ء وحسن الظن باللّه تعالى، فإنه سبحانه عند ظن عبده به. ولهذا قال الاستاذ رضي اللّه تعالى عنه:

واليأس من رحمة اللّه كفران. أي كفر حقيقي فإن اليأس من الرحمة لايحصل إلاّ إذا اعتقد ان اللّه تعالي غير قادر على الكمال أو غير عالم. فإذا كان اليأس لايحصل إلاّ عند حصول أحد هذه الثلاث يوجب الكفر .ثبت ان اليأس لايحصل إلاّ لمن كان كافراً، فلا ينبغي لمؤمن أن يقعد في حد اليأس من الرحمة ولو كان في لجة العصيان مغموراً بالمخالفات، فإن الامور بخواتيمها. قال تعالى (**ولاتيأسوا مِن رَوح اللّه إنه لاييأس مِن رَوح اللّه إلاّ القومُ الكافرون**) وقال تعالى (**يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنَطوا مِن رحمة اللّه، إن اللّه يغفر الذنوب جميعاً انه هو الغفور الرحيم**) ونظائر ذلك كثير في القرآن العظيم.

ويروى عن ابن عباس رضي اللّه تعالى: آيتان في كتاب الله تعالى ما اصاب عبد ذنباً فقرأهما ثم إستغفر اللّه تعالى إلاّ غفر له، احدهما (**والذين إذا فعلوا فاحشةً** الآية) والثاني (**ومَن يعمل سوءً أو يظلم نفسه**... الآية). قال العارف باللّه سيدي ابن عطا ء اللّه في حكمه: إذا وقع منك ذنب فلا يكن سبباً يؤيِّسُك من حصول الاستقامة مع ربك، فقد يكون ذلك آخر ذنب قُدر عليك. فالإستقامة على العبودية لايناقضها فعل الذنب على الفلتة والهفوة إذا جرى القدر عليه بذلك، وانما يناقضها الإصرار عليه. فإذا وقع من العبد ذنب فينبغي ان يبادر الى التوبة منه ولاييأس بسبب وقوعه فيه من الاستقامة مع ربّه ويرى انه طرده وابعده رؤية توجب له القنوط من رحمة اللّه والا يأس من روح الله، فإن ذلك من سوء ظنه بالله تعالى، فليُحسن العبدُ ظنه بالله تعالى مهما إستطاع فإنه يطلب من العبد في امر دنياه وامر آخرته، فأما أمر دنياه فأن يكون واثقاً باللّه تعالى في ايصال المنافع والمرافق اليه من غير كد ولا سعي فيها أو بسعي خفيف مأذون فيه ومأجور عليه وبحيث لايفوته ذلك شيئاً من نظر ولا فرض، فيوجب له ذلك سكونا وراحة في قلبه وبدنه فلا يستفزه طلب ولايزعجه سبب. وأما أمر آخرته فأن يكون قوي الرجا ء في قبول اعماله الصالحة وتوفية اجوره عليها في دار الثواب

والجزاء، فيوجب له ذلك المبادرة لإمتثال الأوامر والتكثير من اعمال البرّ بوجود حلاوة واغتباط ولذاذة ونشاط. وقد قال يحيى: اَوثَقُ الرجاء رجاء العبد ربه، واَصدَقُ الظنون حسن الظن باللّه تعالى. ومن مواطن حسن الظن باللّه تعالى كما سبق أوقات الشدائد والمحن وحلول المصائب في الأهل والمال والبدن لئلا يقع بسبب عدم ذلك في الجزع والسخط. ومن اعظم مواضع حسن الظن بالله تعالى حالة الموت، فقد جاء في الخبر لايموتنَّ احدكم إلاّ وهو يحسن الظن باللّه تعالى. وفي حديث جابر مَن استطاع منكم ان لايموت إلاّ وهو حسن الظن باللّه تعالى فليفعل ثم تلى هذه الآية **(وذلكُم ظنُّكم الذي ظَننتُم بربِّكم أرداكُم)**. ولأنه تعالى فيما يروي عنه قال انا عند حسن ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء. قال أبو طالب المكي: وكان ابن مسعود يحلف باللّه تعالى ما احسن عبد ظنه باللّه تعالى إلاّ اعطاه اللّه عزَّ وجلّ ذلك لأن الخير كله بيده، فإذا اعطاه حسن الظن به فقد اعطاه ما يظنه لأن حسن الظن به هو الذي أراد ان يحققه له.

وقد روي عن ابي النضر حسان قال: خرجت عائد اليزيد بن الاسود فلقيت واثلة بن الاسقع وهو يريد عيادته، قال فدخلنا عليه وهو في فراشه فلما رأى واثلة بسط يده وطفق يشير اليه، فأقبل واثلة حتى جلس على الفراش واخذ يزيد بن الاسود بكفي واثلة حتى جعلها على وجهه فقال له واثلة: أسالك عن شيء تخبرنيه؟ قال: لاتسألني عن شيء اعمله إلاّ اخبرتك به. قال له واثلة: كيف ظنك باللّه عزَّ وجلّ؟ قال: ظني باللّه حسن. قال: فابشر فإني سمعت رسول اللّه صلي اللّه عليه وسلم يقول قال اللّه تبارك وتعالى أنا عند ظن عبدي بي إن ظنّ خيراً وإن ظن شراً. وروي عن ابي سعيد الخدري قال: عاد رسول اللّه ﷺ مريضاً فقال له رسول اللّه ﷺ: كيف ظنّك بربك؟ قال: يا رسول اللّه حسن الظن. قال: فظن به ما شئت فإن اللّه تبارك وتعالى عند ظن المؤمن به. وروي أبو هريرة ان النبي ﷺ قال: **"إن حسن الظن باللّه من حسن عبادة اللّه تعالى"**.

قلت والأخبار والآثار في الرجاء وحسن الظن باللّه تعالى وسعة رحمة اللّه اكثر من ان تُحصى ومطالعتها مما يزيد قوة في المقام، فمن اراد الشفاء في ذلك فعليه بمطالعة كتاب الرجاء من (قوت القلوب) وكتاب الاحياء والحكايات في حسن الظن باللّه تعالى كثيرة والأخبار شهيرة. وفيما حكي عن شخص انه سمع برجل في الحرم اشتهر بالولاية بين الناس قال: فجئته وهو يطوّف فلما قال لبيك سمعت منادياً يقول لا لبيك

ولا سعديك، قال: فقلت خابت سفرتي في رجل مطرود، فرفع راسه إلي وقال: يا أخي اسمع ما سمعت اربعين سنة وهب انه طردني عن بابه فإلى باب مَن ألتجيء سواه وعزّته لا ابرح عن بابه فإذا النداء قد فتحنا لك الباب وأدخلناك مع الاحباب. وقيل تعبّد رجل من بني اسرائيل سبعمائة سنة فأوحي اللّه تعالى الى دانيال عليه السلام قل لعبدي فلان تعبّد ما شئت فإنك من أهل النار، فلما قال له ذلك قال: مرحبا بحكم ربي، ثم قال: إلهي عبدتك وانا اظن اني لا أذعن عندك قليلاً ولا كثيراً، فإذا انا اصلحُ لنارك وعزّتك وجلالك ما زادني هذا إلاّ حباً وتلهفاً. فاوحى اللّه تعالى الى دانيال عليه السلام أن قُل لعبدي المستحق لولائي بالصبر والرضا رضيت مني بأصعب حكم وقضاء وعزّتي وجلالي لو ملأت ذنوبك الارض والسماء لغفرتها لك ولا أبالي.

وقال سيدي ابو الحسن الشاذلي في خربه الكبير: فليس كرمك مخصوصاً بمَن اطاعك واقبلَ عليك، بل مبذول بالسبق لمن شئت من خَلقك وان عصاك واعرض عنك، وليس من الكرم أن لاتحسن إلاّ لمن احسنَ اليك وانت المفضال الغني، بل من الكرم ان تحسن لمن اساء اليك وانت الرحيم العلي، كيف وقد امرتنا ان نُحسن لمن اساء الينا فأنت أولى بذلك منا آه. وقيل ان موسى عليه السلام قال في بعض مناجاته: يا ربّ. فقال اللّه تعالى: لبيك يا موسى. فقال موسى عليه الصلاة والسلام: يا رب أنت أنت فمن أنا حتى أُجاب بالتلبية؟ فقال: يا موسى إني آليت على نفسي ان لايدعوني عبد من عبادي بالربوبية إلاّ اجبته بالتلبية. فقال موسى عليه السلام: يا رب هذا لكل عبد طائع؟ قال: ولكل عبد مذنب. قال: يارب أما الطائع فبطاعته فما بال المذنب؟ فقال اللّه تعالى: يا موسى اني إذا جازيت المحسن باحسانه وضيعت المسيء لإساءته فأين جودي وكرمي آه.

وحسن الظن باللّه تعالى لاينافي الخوف منه سبحانه وتعالى، كذلك لاينافي الخوف من عدم قبول الطاعة. ولهذا قال الاستاذ رضي اللّه تعالى عنه:

السعيد يعمل ويخاف من عدم القبول؛ لأن العلل لاتكاد تفارق الإنسان في سائر اعماله وكل على حسب مقامه وحاله، فحسنات الابرار سيئات المقربين، فالإعتماد حينئذ على فضل اللّه لا على العمل. وقد قال العارف باللّه تعالى ابن عطاء اللّه الاسكندراني: من علامة الاعتماد على العمل نقصان الرجاء عند وجود الزَلَل، فالعارفون باللّه تعالى لايشاهدون لأنفسهم عملاً خالصاً بل يخافون من العذاب

بأعمالهم لشهودهم نقص انفسهم ودخول العِلل في اعمالهم واقلّ ذلك ان يطلب عوضاً على عمله. قال سيدي مصطفى الصديقي في (الأحزاب السحرية): إلهي اني اخاف ان تعذبني بأفضل اعمالي فكيف لا أخاف من عقابك باسوء احوالي آه. والناس على ثلاثة أجناس: معتمد على عمله وموقفه التقصير وغايته التشمير ومقامه الإسلام لدورانه مع العمل رجاءً أو خوفاً وبساطه قوله تعالى (ولتَنظُر نفسٌ ما قدّمت لغد) وعلامته ما ذكره ابن عطاء اللّه كما تقدم. ومعتمد على فضل اللّه وموقفه شهود المِنة وغايته التبرّي من الحول والقوة ومقامه الإيمان لدورانه مع القدرة في اقباله وادباره وبساطه قوله تعالى (وما بِكم مِن نعمة فمنِ اللّه) ثم (إذا مَسَّكُم الضُرّ فإليه تجأرون) وعلامته الرجوع الى مولاه في السرّاء بالحمد والشكر وفي الضراء باظهار الفاقة والفقر. ومعتمد على سابق القسمة وماضي الحكمه وموقفه شهود التصريف وغايته الفناء في التوحيد ومقامه الاحسان لما شهد به من المشاهدة والعيان وبساطه قوله تعالى (قل اللّه ثم ذَرهُم في خوضِهم يلعبون) وعلامته الاستسلام والسكون تحت جريان الاحكام، فلا يزيد رجاؤه لعلمه ولاينقص خوفه بسبب فلو وزنّاهما لتعادلا في كل من احواله، بل هو دائم البشر متواصل الأحزان كما جاء في صفة النبي ﷺ.

والحاصل ان السعيد كما قال الاستاذ يعمل ولايعتمد على العمل ويخاف مع ذلك من عدم قبول عمله لما يطرأ على الأعمال مما يحيطها وصاحبها لايشعر وقد كنت حاضراً مرة عند الاستاذ فجاء رجلٌ عالم جليل من اهل المغرب فسأل عنه الشيخ رضي الله عنه فقيل انه عالم فقال دعونا من علمه، فقيل وعامل، فقال دعونا من عمله فقيل: وماذا...؟! فقال هاتوا القبول، فقال له العالم وقد بكى... صدقت ايها الاستاذ. واذا كان الإنسان مغموراً قلبه بماء الشهوات غافل عما هو آت منقطع الى الدنيا وأهليها يعتمد على السابقة ويزعم انه مقبول وانه على نهج العرفان مجبول قاده الشيطان بزمامه وغرّه ببُهتانه. والى ذلك رمز الاستاذ بقوله رضي اللّه عنه:

الشقي يعصي ويقول انا المقبول؛ حيث سوّل له الشيطان انه من أهل الوصول واحتج بالحقيقة وترك التمسك بالشريعة اعتماداً على السابقة، وهذه منزلة قدم وزندقة. فالسعيد من فطر بالعينين وشرب بكل من الكاسين والى هذا اشار بقوله:

اغترّ بجف القلم في الخبر ونسي اِعملوا فكل لما خُلَق له مُيَسَّر، يعني نظر الى ما ورد

في الخبر الصحيح جفّ القلم بما هو كائن ولم يلاحظ قوله (اعملوا فكل لما خلق له ميسر) وقوله تعالى (وقُل اعملوا فسيرى اللّه عملكم ورسولهُ والمؤمنون). فالسعيد موفق لعمل أهل السعادة والشقي موفق لعمل أهل الشقاوة، فالأعمال دلائل على السوابق ولهذا قال بعض العارفين: إذا اردت ان تعرف مالك عند اللّه تعالى فانظر ما اقامك اللّه فيه آه. وفي الحكم العطائية متى رزقك الطاعة والغنى به عنها، فاعلم انه أسبغ عليك نعمه ظاهرة وباطنة. وإيّاك يا أخي والإحتجاج بالقدر إذا وقعت منك هفوة أو قصور عن طاعة. وتقول لو سبق لي في الازل شيء من الطاعة والحفظ فإن ذلك سوء ادب منك وتعطيل للشريعة، فإن اول مَن احتج بالقضاء السابق ابليس قبَّحُه اللّه تعالى. فقيل له متى علمت ذلك بعد الوقوع أو قبله، فقال: بل بعده. فقال: بذلك آخذتك آه.

وقال الجنيد البغدادي قدس سره: إيّاك ان تقف في حضرة شهود الفعل لله وحده دون عباده فتقع في مهواة من التلف ولاترى لك مع ذلك قط ذنباً فتهلك مع الهالكين. وسُئلَ سهل بن عبداللّه التستري رضي اللّه عنه عن رجل يقول انا كالباب لا أتحرك إلاّ إذا حُرّك. فقال: هذا لايقوله إلاّ أحد رجلين إما صديق أو زنديق، لأن الصديق يقول هذا القول اشارة الى ان قوام الاشياء باللّه تعالى مع احكام الاصول ورعاية حدود العبودية، والزنديق يقول ذلك إحالةً للأشياء على اللّه تعالى واسقاطاً للائمة -أي اللوم - عن نفسه وانخلاعاً عن الدين ورسمه. فأما مَن كان معتقداً للحلال والحرام والحدود والأحكام معترفاً بالمعصية إذا صدرت منه معتقداً وجوب التوبة منها، فهو سليم صحيح وإن كان لقصوره بما يركن الى البطالة ويستروح بهوى النفس الى الاسفار والتردد في البلد متوصلاً الى تناول اللذائذ والشهوات غير متمسك بشيخ يهذبه ويؤدبه ويبصّره بعيوب ما هو فيه آه. كذا في شرح شيخنا العارف باللّه تعالى سيدي عبداللّه الشرقاوي نقلاً عن (عوارف المعارف) وإنما حمل هذا القائل على هذه المقولة تماديه في غفلاته واعراضه عن الحق سبحانه وتعالى وإستهواء الشيطان له بنوع من الغرور، وذلك من المكر والإستدراج من اللّه تعالى بالعبد. ولهذا اشار رضي اللّه عنه الى شيء من علامات المكر والاستدراج فقال:

متى رأيت مسيئاً مكروماً فاعلم انه ممكور به ومستدرج ، ومتى رأيته متروكاً فبشره

بانه محبوب متوجم. اعلم ان تمادي المرء في العصيان مع إدرار النعم عليه وعدم تعجيل العقوبة له دليل على مكر اللّه به واستدراجه اياه، فقد اوحى اللّه تعالى الى داود عليه الصلاة والسلام قل للعقلاء يخافون مني إذا ترادفت عليهم نعمتي ويكثرون من النَوح كلما زادت عليهم النِعم، فإن ذلك استدراج لهم ولو اني احببتهم لجردتهم عن الدنيا. قال اللّه تعالى(سنستدرجهم مِن حيث لايعلمون وأُملي لهم إِن كيديَ متين)؛ يعني نمدهم بالنِعم وننسيهم الشكر. (نستدرجهم) مأخوذ من دَرَجَ الصبي إذا مشي شيئاً فشيئاً وهو لايشعر، لأن الممكور به يقع في وهمه انه على شيء وهو لايشعر. وقد ورد في الحديث إذا رأيت اللّه يعطي العبد من الدنيا ما أحب وهو مقيم على معاصية، فإنما ذلك منه استدراج رواه احمد وغيره عن عقبة بن عامر.

قال العارف باللّه ابن عطاء اللّه الاسكندراني في حكمه: خف من دوام وجود احسانه اليك ودوام إساءتك معه أن يكون ذلك إستدراجاً لك (سنستدرجهم من حيث لايعلمون). وقال تعالى (فلما نَسوا ما ذُكِّروا به فتَحنا عليهم أبوابَ كلّ شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مُبلِسون). قال اللّه تعالى لنبيه المصطفى ﷺ (ولا تُمدنَّ عينيك الى ما مَتّعنا به أزواجاً منهم زهرةَ الحياة الدنيا لِنفتنَهم فيه ورزقُ ربّك خيرٌ وأبقى). ولذلك كان خوف الأكابر من النِعم وإدرارها عليهم اعظم من خوف البلاء ونزوله بهم. قال الشاذلي رضي اللّه تعالى عنه: قيل لي يا علي لاتأمن مكري وان أمّنتُك فإن علمي لايحيط به محيط. وقال الجيلاني قدّس اللّه روحه: اعطاني الحق سبحانه وتعالى أربعين عهداً وميثاقاً إنه لايمكربي، ومع ذلك فأنا غير آمن مكره لعلمي بسعة إطلاقه وإن له ان يفعل ما يشاء. وسُئِلَ بعضهم هل يدخل الولاية استدراج؟ قال: نعم لأن الحق يتنزّل لعباده رحمة بهم ليأخذوا عنه احكامه، وذلك التنزُّل فيه مكر خفي. فإن العبد متى حمل التنزّل على صورة ما علمه من احوال الخلق هلك، فيقبل ذلك مع اعتقاده مغايرة صفاته لصفات الحق حذراً من المكر. وروي أن بعض الأنبياء شكى الى اللّه الجوع والعرى فأوحى اليه أما رضيت أن عصمت قلبك أن تكفر بي حتى تسألني الدنيا، فرفع التراب على راسه وقال: بلى يا رب.

فاعلم من هذا إن إدرار النعم مع عدم القيام بشكرها والتمادي في المخالفات علامة واضحة على المكر والعياذ باللّه تعالى. والاستدراج بخلاف ما إذا قوبل المسيء بالبلاء

وانواعه من الفقر والجوع والأمراض والآلام ونحو ذلك من علامة لطف اللّه تعالى به فقد عجل له عقوبته ومحضه من الذنوب ليرجع الى اللّه تعالى، فإنه كما قال العارف باللّه تعالى سيدي ابن عطاء اللّه في حمكه: مَن لم يقبل على اللّه بملاطفات الاحسان قُيد بسلاسل الامتحان، فإذا رأيت الرجل يذنب ويعاقب فبشّره واذا رأيته يذنب فتدر عليه النعم فأنذره، اللّهم انا نعوذ بك من المكر والاستدارج من حيث لا نشعر في ساعة من الليل والنهار. واذا كان الامر كذلك فالخير كله في امتثال المأمورات واجتناب المنهيات. ولهذا قال رضي اللّه عنه:

مخالفة الشريعة زندقة. قال اللّه تعالى (ما اتاكُمُ الرسولُ فخُذوه وما نَهاكم عنه فانتهوا) وقال (إن كنتُم تحبُّون اللّه فاتّبعوني يُحببكم اللّه). واعلم ان علم القوم كله مؤيد بالكتاب والسنّة فكل َمن اتى بشيء يخالف ما فيهما فهو رد عليه واعماله مردودة ولو مشي على الماء والهواء.

قال سيدي محي الدين الشيخ الاكبر رضي اللّه تعالى عنه: لاتقتد بالذي زالت شريعته عنه ولو جاء بالانباء عن اللّه، ولم يَنهَ عن العلم وإتّباعه وتعاطيه إلاّ قطاع الطريق من نواب ابليس واعوانه وشرطه. قال سيد الطائفة وشيخهم الجنيد البغدادي رضي اللّه عنه: الطرق كلها مسدودة على الخلق إلاّ على مَن إقتفى اثر الرسول ﷺ. وقال: مَن لم يحفظ القرآن ويكتب الحديث لايُقتدى به في هذا الامر، لأن علمنا مقيّد بالكتاب والسنّة. وقال: مذهبنا هنا مقيد باصول الكتاب والسنة. وقال أبو حفص رحمه اللّه: مَن لم يَزِنْ أحواله وافعاله في كل وقت بالكتاب والسنّة، ولم يتهم خواطره فلا يعد في ديوان الرجال. وقال أبو سليمان الداراني رحمه اللّه تعالى: ربما يقع في قلبي النكتة من نُكة القوم اياماً فلا اقبل منه إلاّ بشاهدين عدلين الكتاب والسنة. وقال سهل بن عبداللّه رحمه اللّه تعالى: كل فعل يفعله العبد بغير اقتداء طاعة كان أو معصية فهو عيش النفس، وكل فعل يفعله العبد بالاقتداء فهو عذاب النفس. وقال السري رحمه اللّه: التصوف اسم لثلاث معان لايطفيء معرفته نور ورعه، ولايتكلم بباطن في علم ينقضه عليه ظاهر الكتاب، ولاتحمله الكرامات على يقظة هتك استار محارم اللّه تعالى. وقال أبو يزيد رحمه اللّه تعالى: عملت في المجاهدة ثلاثين سنة فما وجدت شيئاً اشدَّ عليَّ من العلم ومتابعته.

وموافقة أهل الضلال موبقة -أي مهلكة - والمراد من أهل الضلال أهل البِدع والأهواء، واصول البدع كما نُقل في المواقف ثمانية: المعتزلة القائلون بأن العباد خالقوا اعمالهم وبنفي الرؤية وبوجوب الثواب والعقاب وهم عشرون فرقة. والشيعة المفرطون في محبة علي رضي اللّه تعالى عنه وهم إثنان وعشرون فرقة. والخوارج المفرطة المكفِّرة له رضي اللّه عنه. ومن اَذنَبَ كبيرة وهم عشرون فرقة. والمرجئة القائلة بأنه لايضرّ مع الإيمان معصية كما لاينفع مع الكفر طاعة وهم خمس طرق. والنجارية الموافقة لأهل السنّة في خلق الافعال والمعتزلة في نفي الصفات وحدوث الكلام وهم ثلاث فرق. والجبرية القائلة بسلب الاختيار عن العباد وهم فرقة واحدة. والشبهة الذين يشبِّهون الحق تعالى بالخلق في الجسمية. والحلول وهم فرقة أيضاً.

فتلك اثنان وسبعون فرقة كلهم في النار والفرقة الناجية هم أهل السنّة والجماعة والمحمدية ذوي الطريقة النقية الأحمدية. وللشريعة ظاهر يسمي بالشريعة شرعة للعامة وباطن يسمى بالطريقة منهاجاً للخاصة. وخلاصة خصت بإسم الحقيقة معراجاً لأصلها الخاصة. فالاول نصيب الأبدان من الخدمة، والثاني نصيب القلوب من المعرفة والثالث نصيب الارواح من المشاهدة والرؤية. قال القشيري: الشريعة امر بالتزام العبودية والحقيقة مشاهدة الربوبية فكل شريعة غير مؤيدة بالحقيقة فغير مقبول، وكل حقيقة غير مقيدة بالشريعة محصول. فالشريعة قيام ما أُمر والحقيقة شهود لما قضى وقدّر وأخفي واظهر، والشريعة حقيقة من حيث انها وجبت بأمره، والحقيقة شريعة من حيث ان المعارف به سبحانه وجبت بأمره ولله درّ مَن قال من ارباب الحال:

ألا فالزموا سُنّة الانبياء ألا فاحفظوا سيرة الأصفياء
ومن يبتدع بدعة لم يكرم بوجدانه رتبة الاتقياء

فعليك بالجماعة أي أهل العلم والفقه الذين اجتمعوا على آثاره ﷺ في النقير والقطمير ولم يبتدعوا بالتحريف والتغيير. قال شريح: إن السنّة قد سبقت قياسكم فاتبع ولاتبتدع فإنك لن تضلَّ ما اخذتَ بالأثر. وعن سفيان: لو أن فقيهاً على رأس جبل لكان هو الجماعة. كذا ذُكر في (شرح المِشكاة). وفي زماننا هذا ظهر اقوام من المبتدعين يدعون القرب والوصول ولايتدينون بالدين الخالص ويتبرّكون بزي الواصلين رجاء ان ينزل عليهم من بركاتهم وقد منعوا عن التزيّي بزيهم ما خالفوا الشرع وأوصوا

بالتزام حدود الشرع القويم والصراط المستقيم، فهم يعملون ما لايؤمرون ويبغضون أهل العلم والفقه، ومنهم من يلوون ألسنتهم ويقرؤن على الناس أطراف الاحايث ويدسون ما خالف مسلكهم وإن طابق فيحسبون انهم يحسنون صنعاً، وهذا عين الاعتلال ومحض الضلال.

وقد كثرت التأليفات في الاسلام وشاع البِدَع بين الانام حتى غلب السفهاء على العلماء والخطأ على الصواب، ولذا قال العلماء لايجوز العمل بكل كتاب ولا الإقتداء بكل عالم وإنما يُقتدى بمن هو موثوق بعلمه ودينه وإنما الصواب من الكتب ما وافق الأصول، فمن لم يتعلم عقائد أهل الاسلام وفروع الائمة الاعلام ولم يتمسك بكتب الثُقات ولم يعمل بموجبها يموت والعياذ باللّه تعالى على انواع البِدع والكُفريات وهو لايشعر ويكون من الذين (وَبدا لهُم مِن اللّه ما لم يكونوا يَحتسبون) آه.

وحيث كانت موافقة أهل الضلال موبقة ومَهلَكة والعياذ باللّه تعالى وكانوا يزعمون انهم على شيء تمكَّنَ الكِبر في نفوسهم فهم في بحر الدعاوي غارقون، فأشار الاستاذ الى الأنفة عليهم والإغلاظ ومقابلتهم بالشنيع من الالفاظ بقوله بقوله رضي اللّه عنه:

والتكبُّر على المتكبِّر صدقة. لأن فيه ردعاً له عن كِبره. وهو لفظ حديث في (الجامع الصغير) وفي (الإحياء) كما نقله شيخنا في شرحه انه ﷺ قال: "إذا رأيتم المتواضعين من امتي فتوضعوا لهم، واذا رأيتم المتكبِّرين فتكبَّروا عليهم، فإن ذلك لهم مذلّة وصَغار". فينبغي للفقير إذا رأى متكبراً أن يظهر له الغنى باللّه والعزّة ويترفع عنه ولايميل لما في يده من حطام الدنيا فإن ذلك من الحَبرية واخلاق العارفين. فرفع الهمّة عن الخَلق والتوجه الى اللّه بالكُلّية من أشرف خصال الحبرية بخلاف الترفُّع عن الفقراء والتعزز عليهم، فإنه من شؤم النفس الخبيثة ودسائس الشيطان الرجيم. والاعمال بالنية والتكبّر ضد التواضع وهو كما فسّره النبي ﷺ بقوله: "الكِبَر بَطَرُ الحق وغمص الناس". فبطر الحق ردّه وجحده والدفع في صدره كدفع الصائل، وغمص الناس إحتقارهم وازدراؤهم ومتى إحتقرهم وازدراهم منع حقوقهم وجحدها واستهان بها. وقد ذم اللّه تعالى المتكبرين في مواضع عديدة من القرآن الكريم وكذلك في السنّة قال اللّه تعالى (كذلك يطبع اللّه على كل قلب متكبّر جبّار) وقال تعالى (فادخُلوا ابوابَ جهنمَ خالِدينَ فيها فَلَبِئسَ مَثوى المتكبِّرين)، وقال ﷺ: "لا يدخل الجنة مَن في قلبه

مثقال ذرّة من كِبَر" رواه مسلم. وفي الصحيحين مرفوعاً: "ألا أخبركم بأهل النار، كلَّ عُتُلّ جوّاظ متكبّر" وفي حديث احتجاج الجنة والنار أن النار قالت: مالي لايدخلني إلاّ الجبّارون والمتكبِّرون، وهو في الصحيح. وفي صحيح مسلم عن ابي هريرة رضي اللّه عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: "يقول اللّه عزَّ وجلّ العّزة إزاري والكبرياء ردائي فمَن نازعني فقد عذّبته". وفي جامع الترمذي لايزال الرجل يذهب بنفسه حتى يُكتب في ديوان الجبارين فيصيبه ما أصابهم.

وقد مدح اللّه المتواضعين في آيات كثيرة قال اللّه تعالى (وعبادُ الرحمن الذينَ يمشونَ على الارضِ هَوناً) أي بسكينة ووقار متواضعين غير آشرين ولا مرحين ولا متكبرين. قال الحسن رضي اللّه عنه: علماء حلماء. وقال محمد بن الحنفية رضي اللّه عنه: أصحابُ وَقار وعِفة لايسفهون وان سُفِه عليهم حَلموا. و(الهَون) بالفتح في اللغة الرِفق واللين، والهُون بالضم الهوان، فالمفتوح صفة أهل الايمان والمضموم صفة أهل الكفران. وفي صحيح مسلم من حديث عياض رضي اللّه عنه قال، قال رسول اللّه ﷺ: "إن اللّه أوحى إلي أن تواضَعوا حتى لايفخر أحد على أحد ولاينبغي أحد على أحد". وكان النبي ﷺ يمر على الصبيان فيسلم عليهم فكانت الأمَةُ تأخذ بيده ﷺ فتنطلق به حيث شاءت، وكان إذا اكل لعق اصابعه الثلاث، ويكون في بيته في خدمة أهله، ولم يكن ينتقم لنفسه قط، وكان يخصف نعله ويرقع ثوبه ويحلب الشاة لأهله، ويعلف البعير ويأكل مع الخادم ويجالس المساكين ويمشي مع الارملة واليتيم في حاجتهما، ويبدأ من لقيه بالسلام ويجيب دعوة مَن دعاه ولو الى أيسر شيء، وكان هين المؤنة لين الخلق كريم الطبع جميل المعاشرة طلق الوجه بساماً متواضعاً من غير ذلّ، جوادا من غير سرف رقيق القلب رحيماً بكل مسلم خافض الجناح للمؤمنين لين الجانب لهم. وقال: "ألا اخبركم بمن يُحرم على النار أو تحرم عليه النار، على كل قريب هين لين سهل" رواه الترمذي.

وقال حسن وقال: "لو دعيت الى كِراع أو ذِراع لأجبت، ولو اُهيَى إليَ كِراع أو ذراع لقبلت" رواه البخاري. وكان يعود المريض ويشهد الجنازة ويركب الحمار ويجيب دعوة العبد، وكان يوم قريظة على حمار مخطوم بحبل من ليف عليه اكاف من ليف. وحقيقة التواضع ان تخضع للحق وتنقاد له وتقبله ممن قاله. وقيل التواضع أن لاترى لنفسك

قيمة، فمن رأى لها قيمة فليس له في التواضع نصيب. وقال الجُنيد رحمه اللّه تعالى: هو خفض الجناح ولِين الجانب. وقال أبو يزيد رحمه اللّه تعالى: هو أن لايرى لنفسه مقاماً ولا حالاً ولايرى في الخلق شراً منه. وقال ابن عطاء: قبول الحق ممن كان، والعزّ في التواضع فمن طلبه في الكِبر فهو كطلب الماء من النار. وقال ابراهيم بن شيبان: الشرف في التواضع، والعزّ في التقوى، والحرية في القناعة. ويذكر عن سفيان الثوري رضي اللّه عنه قال: أعزُّ الخَلق خمسة أنفُس؛ عالم زاهد، وفقيه صوفي، وغني متواضع، وفقير شاكر، وشريف سني. وقال عروة بن الزبير رضي اللّه عنهما: رأيت عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه على عاتقه قربة ماء قلت: يا أمير المؤمنين لاينبغي لك هذا فقال: لما أتاني الوفود سامعين مطيعين دخلت نفسي نخوة فأحببت أن اكسرها. وولّى أبو هريرة رضي اللّه عنه امارةً مرّة فكان يحمل حزمة الحطب على ظهره وهو يقول: طرِّقوا للأمير. وركب زيد بن ثابت رضي اللّه عنه فدنا ابن عباس رضي اللّه عنهما ليأخذ بركابه فقال له: يا ابن عم رسول اللّه ﷺ، فقال: هكذا أمرنا ان نفعل بكبرائنا. فقال زيد: أرني يدك. فأخرجها اليه فقبلها، وقال: هكذا امرنا ان نفعل بأهل بيت رسول اللّه ﷺ.

وقسم عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه بين الصحابة حللا فبعث الى معاذ حِلة مثمنة فباعها واشترى بثمنها ستة أعبد فاعتقهم، فبلغ عمر فبعث اليه بعد ذلك حِلة دونها فعاتبه معاذ، فقال: لأنك بعت الاولى. فقال معاذ: وما عليك ادفع إليَ نصيبي وقد حلفت لأضربنَّ بها رأسك. فقال عمر رضي اللّه عنه: رأسي بين يديك وقد يرفق الشاب بالشيخ. ومرَّ الحسين بن علي بصبيان معهم كسر خبز، فاستضافوه فنزل فأكل معهم ثم حملهم الى منزله واطعمهم وكَساهم وقال: اليد لهم لأنهم لم يجدوا شيئاً غير ما أطعموني ونحن نجد أكثر منه.

ويذكر ان ابا ذر عيَّر بلالاً رضي اللّه عنه بسواده ثم انه ندم فألقى نفسه وحلف لا رفعت رأسي حتى يطأ بلال خدي بقدمه، فلم يرفع رأسه حتى فعل بلال. وقال رجاء ابن حيوة: قومت ثياب عمر بن عبدالعزيز رضي اللّه عنه وهو يخطب باثني عشر درهماً وكانت قباء وعمامة وقميصاً وسراويل ورداء وخُفين وقلنسوة. ورأى محمد بن واسع إبناً له يمشي مشية منكرة فقال: تدري بكم اشتريت أمك بثلاث مائة درهم وأبوك لا

أكثر اللّه في المسلمين مثله أنا وأنت تمشي هذه المشية. وقال إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه: ما سُرِرتُ في عمري إلاّ ثلاث مرات كنت في سفينة رجل مضحك كان يقول كنا في بلاد الترك فآخذ العلج هكذا وكان يأخذ بشعر رأسي ويهزني كأنه لم يكن في السفينة أحقر مني، والأخرى كنت عليلاً في مسجد فدخل المؤذن تلك الليلة وقال: اخرج. فلم اطق فأخذ برجلي وجرّني الى خارج، والأخرى كنت بالشام وعلى فرو فنظرت فيه فلم اميز بين شعره وبين القمل لكثرته فسرّني ذلك. وفي رواية اخرى كنت يوماً جالسا فجاء انسان وبال عليَّ.

وقال بعضهم رأيت في الطواف رجلاً بين يديه شاكرية يمنعون الناس لأجله من الطواف ثم رأيته بعد ذلك على جسر بغداد يسأل شيئاً فتعجبت فقال لي: إني تكبرت في موضع يتواضع الناس فيه هناك فابتلاني اللّه بالذلّ في موضع يترفع الناس فيه. وبلغ عمر بن عبدالعزيز رضي اللّه عنه أن ابناً له اشترى خاتما بألف درهم، فكتب اليه عمر بلغني أنك اشتريت فصّاً بألف درهم فإذا اتاك كتابي فبع الخاتم واشبع فيه ألف بطن واتخذ خاتماً بدرهمين واجعل فصّه حديداً صلباً واكتب عليه رحم اللّه امرؤاً عرف قدر نفسه آه. واعلم يا أخي ان اول ذنب عُصيَ اللّه به الكبر والحرص. فكان الكبر ذنب ابليس اللعين فآل امره الى مآل اليه، وذنب آدم ﷺ كان من الحرص والشهوة فكان عاقبته التوبة والهداية. وذنب ابليس حمله على الاحتجاج بالقدر والاصرار، وذنب آدم أوجب له اضافته الى نفسه والاعتراف به والاستغفار. فأهل الكبر والاصرار والاحتجاج بالاقدار مع شيخهم وقائدهم الى النار ابليس، وأهل الشهوة المستغفرون التائبون المعترفون بالذنوب الذين لايحتجون عليها بالقدر مع ابيهم آدم في الجنة. ولما كان مما يعني على التواضع وهضم النفس وخلع رداء الكبر عنها صحبة الفقراء وخلطتهم والنظر لاحوالهم وخلطة الاغنياء بالضد. قال رضي اللّه عنه:

المخالطة مع الاغنياء تورث الطمع فيما في ايديهم. ليضاهيه في فضول ما هم عليه من المأكل والمشرب والمنكح والمسكن. وفضول ذلك كله قاتل للمريد وحجاب عظيم، فقد ورد في جملة احاديث كثيرة ان فضول المطاعم والشهوات تقسي القلب.

وقد روي عن عيسى عليه السلام: لاتجالسوا الموتى فتموت قلوبكم. قيل ومن الموتى؟ قال: المحبون للدنيا الراغبون فيها. وفي الخبر المروي عن رسول اللّه ﷺ "أخوَفُ ما اخافُ

على امتي ضعف اليقين" وضعف اليقين انما يكون من رؤية أهل الغفلة المنهمكين على الدنيا ومخالطة ابنائها. قال بعض هذه الطائفة قلت لبعض الابدال المنقطعين الى اللّه تعالى: كيف الطريق الى التحقيق والوصول الى الحق؟ قال: لاتنظر الى الخلق فإن النظر اليهم ظلمة. قلت: لابد لي. قال: فلا تسمع كلامهم فإن كلامهم قسوة. قلت: لابد لي. قال: فلا تعاملهم فإن معاملتهم خسران ووحشة وحسرة. قلت: انا بين اظهرهم لابد لي من معاملتهم. قال: فلا تسكن اليهم فإن السكون اليهم هلكة. قلت: هذه العلة. قال: يا هذا تنظر الى اللاعبين وتسمع كلام الجاهلين وتعامل البطالين وتسكن إلى الهالكين وتريد أن تجد حلاوة الطاعة وقلبك مع غير اللّه عزَّ وجلّ هيهات هذا لايكون ابداً.

قال الامام القشيري: فأرباب المجاهدات إذا ارادوا صون قلوبهم عن الخواطر الرديئة لم ينظروا الى المستحسنات ولايتأتى لهم ترك النظر اليها إلا بالاعراض عن ذويها وعدم المخالطة معهم، فإن النفس تسرق الطباع بالمخالطة من خير وشر. وفي الخبر مثل الجليس السوء كمثل القين إن لم يحرق بشرره علق بك من ريحه. وفي الاخبار السالفة إن اللّه تعالى اوحى إلى موسى عليه السلام يا أبن عمران كن يقظاناً وارتد لنفسك اخواناً وكل اخ وصاحب لايؤازرك على مبرّتي فهو لك عدو. واوحى اللّه تعالى الى داود عليه السلام فقال له: يا داود مالي أراك منتبذاً وحدانياً؟ فقال: إلهي قليت الخلق من اجلك. فقال: يا داود كن يقظاناً وارتد لنفسك اخوانا وكل خدن لايوافقك على مبرّتي فلا تصحبه فإنه لك عدو يقسي قلبك ويباعدك مني. وروي عن ابي الدرداء رضي اللّه عنه قال: لأن اقع من فوق قصر فأنحطم احبُّ إلي من مجالسة الغني، لأني سمعت رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم يقول: "إيّاكم ومجالسة الموتى. قيل: ومن الموتى يارسول اللّه؟ قال: الاغنياء". وفي الخبر الصحيح: مَن تواضع لغني لأجل غناه ذهب ثلثا دينه، فلو اعتقد فضله بقلبه كما تواضع له بلسانه ونفسه ذهب دينه لأن المرء بقلبه ولسانة ونفسه، فإذا تواضع للغني بنفسه ولسانه ذهب دينه كله آه. وما احسن قول ابي اسحق ابراهيم بن مسعود البيري في هذا المعنى:

فخف ابناء جنسك واخشَ منهم ... كما تخشى الضراغم والسبتا
وخالطهم وزايلهم حَذارا ... وكن كالسامريّ إذا لُمستا

والمراد من الاغنياء الذين خلطتهم تفيد الطمع في الدنيا وتقسي القلب المنهمكون في

الدنيا وتعاطيها، المستغرقون أو قاتهم في تحصيلها، اما اغنياء القلوب فخلطتهم دواء لكل قلب محجوب، وغني القلب هو الراجي لما اعطاه اللّه المستغني عن كل ما سواه، فهؤلاء داخلون تحت قوله:

ومع الفقراء تورث القنوع -أي القناعة - وهي في اللغة؛ الرضا بالقسم وفي اصطلاح أهل الحقيقة السكون عند عدم المألوفات وقيل هي الاكتفاء بالقليل. وقيل هي الاستغناء بالموجود وترك التطلع الى المفقود. وقال عكرمة وغيره من ائمة اللغة في تفسير قوله تعالى (مَن عملَ صالحاً من ذكر أ وأنثى وهو مؤمن فَلَنُحيينَّهُ حياةً طيبةً) إن المراد بالحياة الطيبة؛ القناعة في الدنيا وهي الرزق الحسن في قوله تعالى (لَيَرزقنَّهُم اللّه رزقاً حسناً). قال عليه الصلاة والسلام: "ارضَ بما قسم اللّه لك تكُنْ أغنى الناس". وفي الزبور؛ القانع غني وإن كان جائعاً. وقال بعض الحكماء: مَن كانت قناعته سمينة طابت له كل مرقة. والفقر وصف ذاتي في كل انسان، وقد وقع لفظ الفقراء في القرآن في ثلاث مواضع احدها قوله تعالى (الفقراءُ الذين أُحصروا في سبيلِ اللّه لايستطيعون ضرباً في الأرض يحسَبُهُم الجاهل أغنياء من التعفُّف تعرفهُم بسيماهُم لايسألون الناس إلحافاً) أي الصدقات لهؤلاء، وكانوا افقر المهاجرين نحو اربعمائة لم يكن لهم مسكن بالمدينة ولا عشائر، وكانوا قد حبسوا انفسهم على الجهاد في سبيل اللّه والطاعة والعبادة، فكانوا وقفاً على كل سرية يبعثها رسول اللّه ﷺ، وهم الصفة والموضع الثاني قوله (إنما الصدقات للفقراء والمساكين... الآية). والموضع الثالث قوله تعالى (ياأيُّها الناس أنتم الفقراء الى اللّه).

فالصنف الأول خواص الفقراء، والثاني فقراء المسلمين خاصهم وعامهم، والثالث الفقر العام لأهل الارض كلهم غنيهم وفقيرهم ومؤمنهم وكافرهم. فالفقراء الموصوفون في الآية الاولى يقابلهم اصحاب الجدة ومن ليس مُحصِراً في سبيل اللّه ومَن لايكتم فقره تعففاً فمقابلتهم اكثر من مقابلة الصنف الثاني. والصنف الثاني يقابلهم الأغنياء أهل الجدة ويدخل فيهم المتعفف وغيره والمحصِر في سبيل اللّه وغيره. والصنف الثالث لا مقابل لهم بل اللّه وحده الغني وكل ما سواه فقير إليه. ومراد القوم بالفقر شاخص من هذا كله، وهو تحقيق العبودية والافتقار الى اللّه تعالى في كل حالة، وهذا اجلّ من ان يُسمى فقراً، بل هو حقيقة العبودية ولُبُّها وعزل النفس عن مزاحمة الربوبية. وسُئِلَ

عنه يحيى بن معاذ الرازي رضي اللّه عنه فقال: حقيقته ان لاتستغني إلاّ باللّه وبرسمه عدم الاسباب كلها ، بمعنى عدم الوثوق بها والوثوق معها. وقيل لبعضهم متى يستحق الفقير إسم الفقر؟ فقال: إذا لم يبق عليه بقية. فقيل له: وكيف ذاك؟ فقال: إذا كان له فليس له واذا لم يكن له فهو له. وهذا من احسن العبارات عن معنى الفقر الذي يشير اليه القوم، وهو ان يصير كله لله لايبقى عليه بقية من نفسه وحظه وهواه. فمتى بقي في قلبه شيء من احكام نفسه ففقره مدخول. ثم فسر ذلك بقوله إذا كان له فليس له - اي إذا كان لنفسه فليس لله - وإذا لم يكن لنفسه فهو لله. فحقيقة الفقر إذاً ان لاتكون لنفسك ولايكون لها منك شيء بحيث يكون كلك فهو لله تعالى، واذا كنت لنفسك فثم ملك واستغناء مناف للفقر.

وهذا الفقر الذي يشيرون اليه لاينافيه الجدة ولا الأملاك فقد كان رسل اللّه وانبيائه في ذروته مع جِدتهم ومُلكهم كإبراهيم الخليل عليه السلام كان أبا الضيفإن وكانت له المواشي والاموال، وكذلك كان سليمان وداود عليهما السلام، وكذلك نبينا صلى الله عليه وآله وسلم كما قال تعالى (ووَجَدَكَ عائلاً فأغنى)، فكانوا اغنياء في فقرهم فقراء في غناهم آه. والفقر شعار الاولياء وحلية الاصفياء واختيار الحق سبحانه لخواصه من الاتقياء والأنبياء. والفقراء صفوة اللّه من عباده ومواضع اسراره بين خلقه، بهم يصون الخلق وببركاتهم يبسط عليهم الرزق. والفقراء الصُبَّر جلساء اللّه تعالى يوم القيامة بذلك ورد الخبر، وفي حديث عن عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: "لكلّ شيء مفتاح ومفتاح الجنة حبُّ المساكين والفقراء الُصبَّر هم جلساء اللّه تعالى يوم القيامة". وقيل ان رجلاً اتى ابراهيم بن ادهم بعشرة آلاف درهم فأبى ان يقبلها وقال: تريد ان تمحو اسمي من ديوان الفقراء بعشرة آلاف درهم لا افعل. وقال معاذ النسفي: ما أهلك اللّه تعالى قوماً وان عملوا ما عملوا حتى اهانو الفقراء واذلُّوهم، ولو لم تكن للفقير فضيلة غير ارادته سعة المسلمين ورخص اسعارهم لكفاه ذلك لأنه يحتاج الى شرائها والغني يحتاج الى بيعها فهذا لعوام الفقراء فكيف حال خواصهم. وقال ابراهيم القصّار الفقر لباس الرضا إذا تحقق العبد فيه. وقدم على الاستاذ ابي علي الدقّاق فقير في سنة خمس أو اربع وتسعين وثلثمائة من زوزن وعليه مسح وقلنسوة مسح فقال له بعض اصحابنا بكم اشتريت هذا المسح على وجه المُطايبة، فقال: اشتريته بالدنيا فطُلب مني

بالآخرة فلم ابعه. وقام فقير في مجلس يطلب شيئاً وقال إني جائع منذ ثلاث، وكان هناك بعض المشايخ فصاح عليه وقال كذبت ان الفقر سرّ وهو لايضع سره عند مَن يحمله الى مَن يريد.

وكان الجنيد يقول: يا معشر الفقراء انكم تُعَرفون باللّه وتُكرمون لله فانظروا كيف تكونون مع اللّه عزَّ وجلّ إذا خلوتم به. وقيل اوحى اللّه تعالى الى موسى عليه السلام إذا رايت الفقراء فَسَائِلهم كما تسائِل الاغنياء فإن لم تفعل فاجعل كل شيء علمتك تحت التراب. وقيل للربيع بن خيثم قد غلا السعر، فقال: نحن اهون على اللّه تعالى من أن يجيعنا إنما يجيع اولياءه. وقال ابراهيم بن ادهم: طلبنا الفقر فاستقبلنا الغنى وطلبت الناس الغنى فاستقبلهم الفقر. وقال بعض العارفين إن الفقير الصادق ليحترز من الغني حذراً ان يدخل عليه فيفسد عليه فقره، كما ان الغني يحترز من الفقر حذراً ان يدخل عليه فيفسد عليه غناه. وقيل اوحى اللّه تعالى الى موسى عليه السلام تريد ان تكون لك يوم القيامة مثل حسنات الخلق اجمع؟ قال: نعم، قال: عِد المريض وكن لثياب الفقراء فالياً. فجعل موسى عليه السلام على نفسه في كل شهر سبعة ايام يطوف على الفقراء يفلّي ثيابهم ويعود المرضى.

وقال سهل بن عبداللّه خمسة اشياء من جوهر النفس؛ فقير يُظهِر الغنى، وجائع يُظهِر الشبع، ومحزون يُظهِر الفرح، ورجل بينه وبين رجل عداوة فيُظهِر له المحبة، ورجل يصوم بالنهار ويقوم بالليل ولايُظهِر ضعفا. وقال بشر بن الحارث: أفضل المقامات اعتقاد الصبر على الفقر الى القبر. وقال الشبلي: أدنى علامات الفقر أن لو كانت الدنيا بأسرها لأحد فأنفقها في يوم ثم خطر بباله لو أمسك منها قوت يوم ما صدق في فقره. وقال عبداللّه بن المبارك: اظهار الغنى في الفقر احسن من الفقر. قال القشيري في رسالته: سمعت محمد بن عبداللّه الصوفي يقول، سمعت هلال بن محمد يقول، سمعت النقاش يقول، سمعت بِناناً المصري يقول: كنت بمكة قاعداً وشاب بين يدي فجاءه انسان وحمل اليه كيساً فيه دراهم ووضع بين يديه، فقال: لا حاجة لي فيه. فقال: فرّقه على المساكين. فلما كان العشاء رأيته في الوادي يطلب شيئاً لنفسه، فقلت: لو تركت لنفسك مما كان معك شيئاً. قال: لم أعلم إني أعيش الى هذا اليوم.

فإذا كان الفقراء بهذه المثابة وعلمت ان النفس شأنها التي جُبِلت عليه حب المضاهاة

والاقتداء بالجليس، وان الطباع يسرق من طباع خليطه كانت صحبة الفقراء تورث القناعة التي فيها الشرف والعزّ، وكانت صحبة الاغنياء تورث الطمع في الدنيا، وانما تبعث على صحبة الفقراء قصر الامل وهذا انما يكون بتذكر الموت ومفارقة الدنيا، وأنفع شيء في ذلك زيارة القبور فإنها تذكر الآخرة وتبعث على قصر الامل في الدنيا. فلهذا قال رضي اللّه عنه:

وزيارة القبور تورث الخشوع. قال القرطبي في تذكرته: قال العلماء رحمة اللّه عليهم ليس للقلوب انفع من زيارة القبور وخاصة ان كانت القلوب قاسية، فإن زيارة القبور ومشاهدة الاموات تبعث على ذكر الموت الذي فيه حياة القلب وانارته. كما روي عن امرأة شكت الى عاشة رضي اللّه عنها قساوة قلبها فقالت لها: اكثري ذكر الموت يرق قلبك. ففعلت ذلك فرقّ قلبها، فجاءت تشكر عائشة على ذلك. واذا كثر من زيارة القبور والتفكر فيما صار اليه بعد النعيم والتمتع بالدنيا انبعث من نفسه حالة تذهب عنه الفرح في الدنيا ويهون عليه المصائب ويلين قلبه ويردع عن كثير من المعاصي. وقد ورد في الحديث عن رسول اللّه ﷺ قال: "**زوروا القبور فإنها تذكّر الآخرة وتزهد في الدنيا**".

وينبغي لمن عزم على الزيارة ان يتأدب بآدابها ويحضر قلبه عند اتيانها ولايكون حظه الطواف على الأجداث هذه حالة تشاركه فيها البهائم ونعوذ باللّه من ذلك ،بل يقصد بزيارته وجه اللّه تعالى واصلاح فساد قلبه أو نفع الميت بما يتلوه عنده من القرآن على ما ياتي بيانه ان شاء اللّه تعالى، ويجتنب المشي على المقابر والجلوس عليها إذا دخل المقابر، ويخلع نعليه كما جاء في احايث ويسلم إذا دخل المقابر ويخاطبهم خطاب الحاضرين فيقول «السلام عليكم دار قوم مؤمنين» كذلك كان ﷺ يقول. وكُنّي بالدار عن عمارها وسكانها، ولذلك خاطبهم بالكاف والميم لأن العرب تعبر بالمنزل عن أهله، واذا وصل الى القبر الذي يعرفه سلم عليه أيضاً فيقول عليك السلام -روى الترمذي في جامعه ان رجلاً دخل على النبي ﷺ فقال: عليك السلام، فقال عليه الصلاة والسلام: لاتقل عليك السلام فإن عليك السلام تحية الميت - وأتاه من تلقاء وجهه في زيارته كمخاطبته حياً ولو خاطبه حياً لكان الأدب استقباله بوجهه، فكذلك ههنا، ثم يعتبر بمن صار تحت الثرى وانقطع عن الأهل والاحباب بعد ان قاد الجيوش والعساكر

ونافس الاصحاب والعشائر وجمع الاموال والذخائر، فجاءه الموت في وقت لم يحتسبه وحَول لم يرتقبه. فليتأمل الزائر حال مَن مضى اليه من اخوانه ودرج من الذين بلغوا الآمال وجمعوا الاموال، كيف انقطعت آمالهم ومحى التراب محاسن وجوههم واقترفت في القبور أجزاؤهم، وترمل بعدهم نساؤهم وشمل ذلّ اليتيمِ أولادهم واقتسم غيرهم طرقهم وبلاهم. وليعتبر فيما كانوا عليه من ترددهم في المآرب وحرصهم نيل المطالب وإنخداعهم لموتات الاسباب وركونهم الى الصحة والشباب، وليعلم ان ميله الى اللّهو كميلهم وغفلته كغفلتهم وانه لا بد صائر الى مصيرهم، وليحضر بقلبه ذِكر مَن كان متردداً في اغراضه وكيف تهدمت رجلاه وكان يتلذذ بالنظر الى ما حوله وقد سالت عيناه، ويصول ببلاغة نطقه وقد اكل الدود لسانه. وليتحقق ان حاله كحاله وماله كماله، وعند هذا التذكير والاعتبار تزول عنه جميع الاغيار الدنيوية ويقبل على الأعمال الآخروية، فيزهد في دنياه ويقبل على طاعة مولاه ويلين قلبه وتخشع جوارحه.

واعلم ان زيارة القبور متفق عليها عند العلماء مختلف فيها للنساء، أما الشواب فحرام عليهن الخروج وأما القواعد فمباح لهن ذلك وجائز لجميعهن، ذلك إذا انفردن بالخروج عن الرجال، ولايُختلف في هذا انشاء اللّه تعالى. وعلى هذا المعنى يكون قوله عليه الصلاة والسلام "زوروا القبور" عام. وأما موضع أو وقت يُخشى عليه الفتنة من اجتماع الرجال والنساء فلا يحل ولايجوز. فبينما الرجل يخرج ليعتبر فيقع بصره على امرأة فيفتتن وبالعكس، فيرجع كل واحد من الرجال والنساء مأزوراً غير مأجور وهذا واضح واللّه تعالى أعلم.

واعلم ان مداواة القلوب القاسية باربعة احوال؛ الاول ذكر الموت كما تقدم، والثانى زيارة القبور مع الآداب المتقدمة، والثالث مشاهدة احوال المحتضرين- فإن فى النظر الى الميت ومشاهدة نزعاته وسكراته وتأمّل صورته بعد مماته مما يقطع عن النفوس لذاتها ويطرد عن القلوب مسرّاتها ويمنع الاجفإن من النوم والبدن من الراحة ويبعث على العمل ويزيد في الاجتهاد والتعب، والرابع الاقلاع عما هو عليه بمجالسة العلماء بالوعظ والتذكير والتخويف الترغيب وأخبار الصالحين فإن ذلك مما يلين القلوب وينجع فيها. ولهذا قال رضي اللّه عنه:

ومجالسة العلماء تزيد العرفان. والمراد من العلماء العاملون بما علموه من العلم

النافع، سيما إذا كانت همته متعلقة باللّه تعالى مرتفعة عن المخلوقين لايلجأ في حوائجه إلاّ الى اللّه تعالى ولايتوكل في اموره إلاّ على اللّه تعالى، قد سقط الناس من عينه فلا يرى منهم ضراً ولا نفعاً، وسقط نفسه من عينه فلا يشاهد لها فعلاً ولايقضي لها حظاً، ويكون في اعماله كلها جارياً على مقتضى الشرع من غير افراط ولا تفريط وهذا مع كونه عالماً هو عارف باللّه تعالى. وهذا هو الذي اشار الى صحبته ومجالسته ابن عطاء اللّه الاسكندراني في حكمه قال: لاتصحب من لاينهضك حاله ولايدلك على اللّه مقاله.

وأما علماء الدنيا المنهمكين على حطامها فلا ثمرة في مجالستهم إلاّ إذا دعت الضرورة الى سؤاله عن حكم ديني، فيُجالَس بقدر قضاء الحاجة وفهم السؤال ولايُسترسل اليه كل الإسترسال ولايُصاحب كل الصحبة، فإن الطبع سَرَّاق. قال سهل بن عبداللّه: إحذر صحبة ثلاثة من اصناف الناس؛ الجبابرة الغافلين، والقُرّاء المداهنين، والمتصوفة الجاهلين. وقال يوسف بن حسين الرازي قلت لذي النون المصري: مَن اصحَبْ؟ فقال: مَن لاتكتمه شيئاً يعلمه اللّه منك. وقال حمدون القصّار: إصحَب الصوفية فإن للقبيح عندهم وجوهاً من المعاذير، وليس عندهم كبير موقع يعظمونك به - اشارة الى ان العُجب بالعمل منفي في صحبتهم. وقال الجُنيد إذا اراد اللّه تعالى بالمريد خيراً اوقعه الى الصوفية ومنعة صحبة القراء.

والحاصل من هذا ان العالم إذا كان عاملاً فمجالسته تزيد في المعرفة وتنور القلب وتبعث على الإقبال على اللّه تعالى سيما إذا كان مع ذلك من العارفين باللّه تعالى، فإن صحبته ومجالسته ترياق اعظم لسموم الغفلات والانهماك في المعاصي والشهوات، بخلاف صحبة الجاهل كما قال رضي اللّه عنه:

ومجالسة الجهلاء تنقص الإحسان؛ للاعمال الصالحة الظاهرة والباطنة ولربما بمصاحبته للجاهل ومجالسته له ولو كان على غاية من النقص في نفسه ترى نفسه فضلاً وانه لكل صالحة أهلاً، كما قال العارف باللّه تعالى ابن عطاء اللّه الاسكندراني في حكمه: ربما كنت مسيئاً فاراك الاحسان منك صحبتك لمن هو اسوء حالاً منك، وهذه اعظم آفة تدخل على المريد بصحبة أهل المعاصي الجاهلين، فإنه إذا رأى من ذلك الجاهل صفة لم تكن فيه يقول الحمد لله انا لايقع مني ذلك الامر، ويرى لنفسه مقاماً واحساناً وهو في

جملة الهالكين، فنسأل اللّه سبحانه وتعالى ان يجنبنا الاشرار ويرزقنا صحبة الاخيار مع الاقتداء بهم والحب لهم بحرمة النبي ﷺ.

ومن جملة الجهلاء مع زيادة في الوصف الذميم الاحداث الذين اشار الاستاذ رضي اللّه عنه اليهم بقوله:

لاتخالط الاحداث إلاّ بعد الكمال ولاتَمِل الى النساء إن كنت طالب الوصال. قال سيدي محمد بن ذكرى في (شرح النصيحة الكافية) لابن زورق رضي اللّه عنهما عند قول الماتن: ومن اعظم الآفات من لا ثبات له وهم ثلاثة؛ الحدث سناً وهو الصغير الذي لم يميز حقائق الأمور وله ولوع بكل ما يراه ويسمعه من مستحسن، فلا تُؤمن غائلته في الانقلاب ثم للنفوس ولوع به من حيث الجمال الصوري أو من حيث التعلق الروحاني أو من حيث الاستقراب والرحمة، وقد يكون ذلك من حيث لايشعر به الشخص وقد يكون من حيث شعوره. فصحبتهم آفة حاضرة من حيث شغل البال بحفظه ثم من حيث اشتغال النفس بالميل له ثم من حيث كمون الغدر في النفوس. فصحبته لا خير فيها ثم من البين ان صحبتهم تؤدي الى تكرر النظر اليهم فتميل النفس لهم ويسول لها الشيطان ويزين وينهى ويعد ويمني. فعند ذلك ينصب القلب بجملته وتنصرف الوجهة كلها لهم، وفي المعنى يقول بعض الحكماء:

رُبَّ حرب أدارتها لفظة   ورُبَّ صبابةٍ غرستها لحظة

وهذا هو الداء العُضال والسم القَتَّال الذي ما علق بقلب إلاّ وعزّ على الورى استنفاذه من آساره، ولا اشتعلت ناره في مهجة إلاّ وصعب على الخلق تخليصها من ناره. وقد قيل نحت الجبال بالأظافير ايسر من ازالة الهوى إذا تمكن من القلب. وأيضاً تفضي صحبتهم الى الخلوة بهم وهي ممنوعة كما مرّ، وأيضاً توقع الناس في تهمة الجانبين وسوء الظن بهما والوقوع في عرضهما، والناس يظنون السوء في هذا الباب بأدنى شبهة. وبالجملة فصحبتهم سبب في عشقهم وهو مقتٌ من اللّه وبُعدٌ من رحمته واضرّ شيء على العبد في دينه ودنياه. وقد تقدم ذكر طرف مما يترتب عليه عن بعض السلف إذا سقط العبد من عين اللّه ابتلاه اللّه بمحبة المُرد، وهذه المحبة التي جلبت على قوم لوط ما جلبت فما أتوا إلاّ من هذا العشق. قال سيدي عبدالوهاب الشعراني في (الأنوار القُدسية في بَيان قواعد الصوفيّة): كان أبو القاسم القشيري رحمه اللّه يقول:

مِن اكبر القواطع على المريد مصاحبة الاحداث والنسوان والمُساكَنة إليهم بميل القلب، ومن ابتلاه اللّه تعالى بشيء من ذلك فبإجماع القوم ذلك عبد أهانه اللّه تعالى وخذله، بل عن مصالح نفسه شغله ولو لألف ألف كرامة أهله لو لم يكن إلاّ انه شغل قلبه مخلوق فأدخل فيه الشيطان وحرم دخول محبة الحق قلبه، قال: وأقبح من ذلك كله تهوين مثل ذلك على القلب وهذا الواسطى رحمه اللّه تعالى يقول: إذا أراد اللّه تعالى هوان عبدٍ ألقاه الى هؤلاء الأنتان والجيف -يريد الشباب المُرد الذى تميل النفوس القوية اليهم.

وكان فتح الموصلي رحمه اللّه تعالى يقول: صحبت ثلاثين شيخاً كانوا يُعدون من الابدال وكلهم أوصونى عند فراقي إياهم وقالوا اتَّقِ معاشرة الاحداث. قال القشيري رحمه اللّه: مَن ارتقى عن حالة الفسق من المريدين وأشار الى ان ذلك من باب محبة الأرواح لا الاشباح قلنا له هذا من دسائس النفوس والشيطان فربما خيَّل الشيطان الى احدهم ان ذلك لايضر وان كل جميل في الوجود انما جماله من الحق تعالى، قلنا له ان الذي ادعيت انك تشهد جماله هو الذي حرم عليك ذلك الشهود آه. ثم قال في شرح المباحث ثم الحدث عقلاً؛ وهو الذي لايثبت على حقيقة ولاينتهج طريقة، بل تارة تراه في الحوت وتارة في البهموت يتبع كل ناعق ويتنسم كل ناشق، وهذا اعظم ضرراً من قبله لفقدان الحقيقة منه وانتفاء قابليتها عنه. ثم الحَدَث ديناً وهو الرجل الإمَّعة الذي يكون مع كل قوم بما هم فيه ونصحه بدعواه الى إفراد الوجه وتذكيره الى ما في ذلك من المضار. فقد قال رسول اللّه ﷺ: **"في كل واد من قلب ابن آدم شُعبة فمن تتبع قلبه تلك الشعاب لم يبال اللّه في اي وادٍ أهلكه"**.

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي اللّه عنه: ما سلم من النفاق عبد يعمل على الوفاق آه. وهذا النوع غالبه يوجد في أهل البلاد المشرقية لغلبة الإَّصطلاح عليهم وقل ما يدخل على مَن له حقيقة إلاّ من حيث التأويل، وهذا أمر يُستدرك بالخلوة والإنفراد واللّه تعالى اعلم آه كلامه رضي اللّه عنه. وروي عن سفيان انه دخل الحمام فدخل صبي حسن الوجه فقال: أخرجوه عني فإني أرى مع كل امرأة شيطاناً ومع كل أمرد سبعة عشر شيطاناً. وقيل كان محمد بن الحسن صبيح الوجه وكان أبو حنيفة يُجلسه خلفه أو خلف الإسطوانة لئلا يقع عليه بصره مخافة خيانة العين. قيل لاتجالسوا أولاد الاغنياء

فإن فتنتهم اشد من فتنة النساء. وقد حكى لي الاستاذ رضي اللّه عنه غير مرة قال: كنت ذاهباً لزيارة سيدي الحسين فقابلني ولد من اولاد الاغنياء فأراد ان يأخذ يدي ليَبوسها فتذكرت قول من يرى نقض الوضوء بمس الأمرد، فوضعت كم الفرجية على يدي خوفاً من ان يمسَّها فقبَّلَ يدي من فوق الفرجية، فلما انصرف سمعت لِيَدي ذكراً بلفظ اللّه اللّه وبقي كذلك الى آخر الليل، فعلمت ان هذه ثمرة الورع. وعن الثوري أن اللواطة لاتكون في الجنة لأن اللّه تعالى إستبعدها واستقجها وقال (ما سبقكُم بها مِن احد من العالمين) وسمّاها خبيثة، فعُلم ان الجنة لكونها طيبة لطيفة لاتقبل الخبيث وفاعلها إلاّ ان يتداركه اللّه تعالى بالتوبة النصوح الماحية لجميع الذنوب، ولكن قلّما يوجد الندم من فاعل ذلك. وانما قال الاستاذ -ولا تَمِل للنساء ان كنت طالب الوصال- لأن المريد في بدايته لاينبغي له إذا كان اعزب ان يتزوج ولا إذا كان متزوجاً ان يطلق، فإذا بلغ مقام الكمال وذاق طعم المعرفة وتمكن في المقام فحينئذ لا بأس له ان يتزوج، بل يُسَنُّ في حقه ذلك إذا كان يملك اهبة النكاح والمهر والنفقة. وقبل البلوغ الى حد الكمال لاينبغي له ان يشغل نفسه بهمِّ الزواج فإنه قَلَّ ان يأتي منه شيء.

قال بعض العارفين تتبعت حال المريدين فما رايت من المريد في بدايته ربما تتكلم الناس فيه وقَلّما يَسلَم من ألسنة الناس والطعن فيه، فيحتاج مع ذلك الى توطين النفس على تحمل البلاء من الخلق. فلهذا قال رضي اللّه عنه:

عليك بإحتمال الأذى والصبر على المسكنة من جميع الانام، وينبغي لك ان تشهد ذلك من رحمة اللّه تعالى بك ونعمته عليك حتى لاتركن الى سواه، لاسيما للمريد في ابتداء امره قبل الكمال. فإن المريد قبل الكمال مشبه بقرص العسل واقبال الناس عليه بالنحل، فإذا اقبل الناس عليه بمنزلة إمتصاص النحل وإجتناه من ذلك العسل فلا يزال يمصُّهُ شيئاً فشيئاً حتى لايبقى فيه إلاّ الحثالة وكذلك المريد. قال سيدي عبدالوهاب الشعراني في الانوار القدسية وقد قال سيدي أبو الحسن الشاذلي رضي اللّه عنه: جرت عادة الحق سبحانه وتعالى مع انبيائه واصفيائه ان يسلّط عليهم الاذى في متبدأ امرهم ثم تكون الدولة لهم آخراً، كما وقع للسيد نوح عليه الصلاة والسلام وكذلك للسيد يوسف عليهما الصلاة والسلام وسيدنا محمد ﷺ مع قومهم. فالسيد نوح عليه الصلاة والسلام صبر حتى اغرق اللّه قومه، وكذلك السيد موسى صبر حتى اغرق اللّه فرعون

وجنوده، وكذلك السيد يوسف صبر حتى صار عزيز مصر واحتاج اليه اخوته وغيرهم، وكذلك نبينا محمد ﷺ لما اخرجه قومه من مكة رَدَّهُ اللّه إليها قاهراً بالسيف وكذلك السلف رضي اللّه عنهم أجمعين، لكن منهم من يدوم عليه الاذى طول عمره ويُرمى بالزندقة والكفر وغيرهما من الامور الباطنة، لأن المعاصي الظاهرة تتنزّه عنها الفقراء في الغالب ولو رماهم شخص بها لايوافق على ذلك فلا يحصل لهم الاذى الكامل، بخلاف الامور الباطنة فإنها تدوم نسبتهم اليها في الغالب استصحاباً لما قيل، فيحصل الاذى الكامل المراد. ومنهم من يُنسب اليه بعض العقائد الفاسدة في بعض عمره ثم يتغير الحال تأديباً له ولنفسه، لأن الميل الى العبد بكثرة الاعتقاد من الخلق غالباً يفسد عليه حاله لأنه يصير عنده ركون اليهم فيشتغل قلبه بمحبتهم والحق غيور لايحب ان يرى في قلب عبده المؤمن محبة لغيره موضع نظره. ولذلك كان ضرر الصديق وخلطته له اشدُّ من ضرر العدو، لأن العدو يصيبك في ظاهرك والصديق يصيبك في قلبك، والعدو تصل به الى طريق القرب خير من صديق يحجبك عنها فافهم.

واحذر من ان تفهم من هذا الكلام خلاف المراد فتخلل باطنك احتمال الاذى لتكون الدولة لك آخراً بالتصرف في الخلق بالحال والقال لأن العبد المؤمن ليس له دولة في الدنيا انما هي دار وتحمل مشاق وأكدار، إذا علمت ذلك فتحمل الاذى اقتداء بالأنبياء والمرسلين والسلف الصالحين فقط، فمن كان كذلك نصره اللّه تعالى من غير عشيرة ولا أهل انما يقدره على احتمال الاذى فلا يبالي به أو بغير ذلك. وقد كان أهل بلد أبي يزيد البسطامي رضي اللّه عنه يرمونه بالزندقة ويقولون هذا يُظهِر الاسلام ويُخفي الكُفر وكان رضي اللّه عنه من شأنه ان لايقيم إلاّ في مواضع الذم وكلَ موضع لحقوا به وعرفوا شأنه ومدحوه تحوّل عنه.

واعلم ان كثرة الانكار والاعداء لك مما يثبت لك اسوة بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام لقوله تعالى (وكذلك جعلنا لكلِّ نبيٍّ عدواً من المجرمين)، فعُلم ان عداوة المؤمنين للعبد من شقاوته لأن قلوب المؤمنين لاتمقت إلاّ بحق لأنهم لايجتمعون على ضلالة واعظم نصابهم أربع. واعلم ان الدنيا ليست موضع ظهور الجزاء للتكليف، فكل انسان فيها مشغول بنفسه مطلوب باداء ما كلف به من العمل، فمن علم هذا لم يبال كيف اصبح ولا امسى عند الخلق ولم يلتفت لمدحهم ولا ذمهم لأنهم في محل الحجاب،

وانظر الى احواله ﷺ في الدنيا لم يظهر لنا منها إلاّ ما اخبرنا الحق تعالى من علوّ مرتبته ولولا ذلك جهلنا قدره في الآخرة يظهر مقامه للخاص والعام فلا يظهر كماله إلاّ في الأخرة، وكذلك كُمَّلُ الرجال لأنها دار ظهور النتائج. واما الدنيا فإنما هي دار أعمال فمن طلب ظهور النتائج فيها فقد قلب الموضوع وباع آخرته بعَرَضٍ من الدنيا فافهم.

وقال سيدي أبو الحسن الشاذلي رضي اللّه عنه: لما علم اللّه سبحانه وتعالى انه لابد ان يتكلم في انبيائه واصفيائه قضى على قومٍ بالشقاوة فنسبوه الى إتخاذ الصاحبة والولد، حتى إذا ضاق الولي ذرعاً من كلام قيل فيه نادته هواتف الحق هذا وصفك لولا لطفي بك فافهم وطب نفساً وقر عيناً بجميع ما فيك، فإن جميع المنكرين رحمة من اللّه عليك وإلاّ لو عُكس الأمر وجعلك منكراً عليه كالكافر أو العاصي ماذا كنت تفعل، فاحمد اللّه سبحانه وتعالى واسلك سبيل الاصفياء. وكثرة المدح من جميع الخلق لايُغني عنك من اللّه شيئاً فانت عنده بخلاف ذلك. وكثرة الذم والاذى من الخلق لايضرك شيئاً وانت عنده بخلاف ذلك، بل جميع المنكرين يفارقونك بالموت فهل ينزلون معك في القبر فيتعصبون عليك ويتولون سؤالك أو حسابك في الآخرة. واحذر حين مدح الخلق لك ان تُظهر التواضع فتحقِّر نفسك لما يعظمونك فإن ذلك يزيدك تعظيماً عندهم، بل اسكت إيهاماً لهم بأنك تحب المدح بما ليس فيك هذا هو الاصلح لك دائماً فافهم. فإن قال لك الشيطان هذا مما ينفر القلوب منك وانت تنفع الناس وتعلمهم الخير وانما يليق هذا الحال بالسوّاح الذين خرجوا حالهم فقل له إنما انظر الى المحرك لهم وهو اللّه تعالى فإن اقام في باطنهم تحقير إليَ لايمكنهم التعظيم لي ولو اظهرت لهم كل كرامة فافهم.

وبالجملة فمَن كان قصده التعظيم عند الخلق لم يزل في تكدير لأنه لابد في الوجود من منكر عليه، وطلبه من جميع الخلق ان يقبلوا عليه بالثناء والحمد والإعتقاد جهلٌ منه فلابد له من ذامٍّ ومادح. ولو كان في فضل نحو الصحابة رضي اللّه عنهم وقد كان شخص يذمُّ الامام علي بن ابي طالب رضي اللّه عنه ويُنكر عليه، فاجتمع به المُنكِر فاثنى عليه بحضرة الصحابة رضي اللّه عنهم على خلاف عادته، فقال السيد علي رضي اللّه عنه: أنا دون ما تقول وفوق ما في نفسك، فافهم فهمنا اللّه وإيّاك. فإن مَن رضي بعلم اللّه فيه لايتغير ولو توجه اليه الثقلان بالذم والتنقيص ولايغيره على اللّه تعالى شيء، بل شأن العبد الغفلة عما الناس فيه مطلقاً شغلاً بسيده، وقد رأيت هاتفاً

يقول على لسان الحق تعالى مَن شهد الامور كلها مني لم يتغير لوِجدانٍ ولا فقد، ومن خرج من مضرتي سلطت عليه اعدائي فلا يلومَنَّ إلاّ نفسه والسلام، فافهم فهمنا اللّه وايّاك آه كلام الشعراني رضي اللّه عنه.

قال العارف باللّه سيدي ابن عطاء اللّه في حكمه: انما اَجرى عليك الأذى على يديهم كيلا تكون ساكناً اليهم، اراد ان يزعجك عن كل شيء حتى لايشغلك عنه شيء. قال شارحها ابن عباد رضي اللّه عنه: وجود أذية الناس للعبد نعمة عظيمة عليه لاسيما ممن اعتاد منه الملاطفة والإكرام والمَبَرَّة والاحترام، لأن ذلك يفيده عدم السكون اليهم وترك الاعتماد عليهم وفقد الانس بهم، فيتحقق بذلك عبوديته لديه عزَّ وجلّ. قال الاستاذ أبو الحسن الشاذلي قدَّس اللّه سرّه: آذاني انسان مرة فضقت به ذرعاً فنمت فرأيت قائلاً يقول من علامة الصديقية كثرة اعدائها ثم لايبالي بهم. وقال بعض العارفين الصحبة مع العدو سوط يضرب به القلوب إذا ساكنت غيره لولا ذلك لرقد القلب في ظل العزّ والجاه وهو حجاب عن اللّه عظيم. وقال الاستاذ عبدالسلام استاذ الاستاذ ابي الحسن الشاذلي قدَّس اللّه سرهما في دعائه: اللّهم ان قوماً سألوك ان تسخِّر لهم خلقك فسخّرتَ لهم خَلقك فرضوا منك بذلك، اللّهم واني اسألك إعوجاج الخَلق عليَ حتى لايكون ملجئي إلاّ اليك. وقال ابو الحسن الورّاق النيسابوري: الأُنس بالخَلقِ وِحشة، والطمأنينة اليهم حُمق، والسكون إليهم عجز والاعتماد عليهم وَهن، والثقة بهم ضياع، واذا أراد اللّه بعبد خيراً جعل أُنسه به وبذِكره وتوكله عليه، وصان سرّه عن النظر إليهم وظاهره عن الاعتماد عليهم. وقد كان الزهاد يخرجون المال عن الكيس تقرباً الى اللّه تعالى، وأهل الصفا والوفا يخرجون الخَلق والمعارف من القلب تحققاً باللّه عزوجل.

قال في (لطائِف المِنن) اعلم ان اولياء اللّه تعالى حكمهم في بداياتهم ان يسلط عليهم الخلق ليطهروا من البقايا وتتكمل فيهم المزايا وكيلا يساكنوا هذا الخلق باعتماد أو يميلوا اليهم باستناد، ومن آذاك فقد اعتقك من رقِّ إحسانه ومَن أحسن اليك فقد استرقَّكَ بوجود امتنانه. ولذلك قال ﷺ: "مَن أسدى إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تقدروا فادعوا له" وكلُّ ذلك ليتخلص القلب من رق احسان الخلق وليتعلق بالواحد الحق. وقال الشيخ ابو الحسن: اهرب من خيرِ الناس اكثر مما تهرب من شرهم، فإن خيرهم يصيبك في قلبك وشرّهم يصيبك في بدنك... الى آخر ما قال رضي اللّه عنه.

والحاصل ان تسليط الخلق على اوليا ء اللّه تعالى في مبدء ظهورهم سُنّةُ اللّه في احبابه واصفيائه وللصوفية من هذا البلاء الحظ الاوفر. فان العارف بالله تعالى ابن أبي جمرة لما اختصر البخاري وشرحه وعرض فيه بانه يرى المصطفى يقظة قاموا عليه وعقدوا له مجلساً والزم بالجلوس في بيته فلزمه فلم يخرج الا للجمعة حتى مات ولما ألف الحكيم الترمذي نوادر الاصول وختم الاوليا ء وعلل الشريعة ثاروا عليه ورموه بالعظائم وبطشوا به فجمع كتبه كلها وألقاها في البحر فاستمرت فيه سنين ثم لفظها على حالها فانتفع الناس بها وثاروا على البوشنجي ونفوه من بلده فسكن نيسابور الى أن مات وافتوا بتفكير أبي الحسن الخراز بمواضع التقطوها من كتبه ونفوه من بلده فسكن نيسابور الى أن مات وافتوا بتفكير أبي الحسن الخراز بمواضع التقطوها من كتبه ونفوه من بلدة وشهدوا على الشبلي بالكفر مراراً مع كمال علمه وكثرة مجاهداته وزهده واتباعه للسنة وشهد عليه آخرون بالجنون وأدخل البيمارستان ثم نفوه الى أن مات وقام أهل المغرب على الامام أبي بكر النابلسي مع علمه وزهده وورعة وتمسكه بالسنة وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر فاخرجوه من بلاد المغرب بالقيد والزند ال مصر وشهدوا عليه عند السلطان بكلمات من كلام القوم فأقربها وأصربها فأمر بسلخه حياً منكوساً ففعل به ذلك فصار وهو كذلك يقرأ القرآن وأنكروا على أبي القاسم النصر اباذي مع علمه وصلاحه وزهده واستقامة طريقة واتباعه للسنة ونفوه الى مكة فلم يزل فيها حتى مات وقاموا على أبي عبدالله السجزى صاحب الفوائد الحديثية وأخرجوه ونفوه وقاموا على ابن سمعون الواعظ وأذوه وضربوه ومنعوه من الجلوس للوعظ في الجامع فاتقطع في بيته حتى مات فمنعوا الناس من حضور جنازته مع كماله وجلالته وطعنوا على أبي القاسم بن جميل ورموه بالعظائم فلم يتزلزل عما هو فيه من الاشتغال بالفقه والحديث وصيام الدهر والتزهد والتعبد حتى مات وأذوا الامام العارف شيخ الجماعة أبا الحسن الشاذلي وأخرجوه من بلاد المغرب باتباعه ثم كاتبوا نائب اسكندرية بانه زبديق فاحذروا منه على أنفسكم وأهل بلدتكم ووشوا به الى السلطان فحج في جماعته وكان الحج قد انقطع لكثرة قطاع الطريق فارأوا الاخيراً فاعتقده الناس وعظموه وأجمعوا عليه حينئذ وقتلوا الحلاج والامام أبا القاسم بن قسي صاحب كتاب خلع النعلين وابن برجان صاحب التفسير المشهور والجرجاني مع كونهم أئمة يقتدي بهم.

ولما قام عليهم الحاسدون عجزوا عن ان يثبتوا عليهم ما يوجب القتل فعملوا عليهم الحيلة وقالوا للسلطان انه خطب لابن برجان من نحو مائة وثلاثين بلداً فأمر بقتلهم وقاموا على العفيف التلمساني صاحب التآليف المشهورة وقالوا هو لحم خنزير في صحن صيني وضربوه ونفوه وعقدوا للشيخ عزالدين بن عبدالسلام عدة مجالس بسبب كلمة قالها في العقائد ولطف الله به وظفره وغيروا السلطان بيبرس على قاضي القضاة ابن بنت الاعز بعدما كان بينهما من كمال المودة حتى أمر بشقة ثم أمده بلطفه في حكاية طويلة وكان الشيخ عمارة اليمنى متضلعاً من الفقه والحديث وغيرهما فاغروا به السلطان صلاح الدين وقالوا انه هجاك بقصيدة فلم يتغير السلطان لما كان عليه من مزيد الحلم حتى قالوا انه ينتقص النبي ﷺ في شعره ولم يثبت عليه ذلك بل أنكر ان تلك القصيدة التي ذكر ذلك فيها من نظمه فحسن له القاضي الفاضل قتله وحسدوا شيخ الاسلام ابن أبي شريف وأنتهزوا الفرصة باغراء السلطان عليه حتى تشوش منه بسبب افتائه بعدم جواز قتل امرأة ورجل أجنبيين وجدوا في خلوة فهم بالبطش به ثم شنق الرجل والمرأة على باب داره وأمره بالخروج من البلده بيت المقدس فوافق ذلك قدوم الخبر بان السلطان سليم قدم الى حلب يريد غزوه فاشتغل بنفسه الى غير ذلك من الوقائع التي لايمكن حصرها ولايضيع الله حقاً لاحد والله عند قول كل قائل فليتق اللّه عبد ولينظر ما يقول، ولمَّا كان احتمال الاذى من الناس يحتاج الى الصبر على ذلك وتوطين النفس على الذلّ والمسكنة اشار الى ذلك بقوله رضي اللّه عنه:

وعليك بالصبر على المسكنة والذل؛ تواضعاً لله تعالى وهضماً للنفس وخلعاً لرداء الكِبر والأنفة ليدخل حضرة الحق سبحانه وتعالى. قال الامام أحمد رضي اللّه عنه: ذكر اللّه تعالى الصبر في القرآن في نحو تسعين موضعاً وهو واجب باجماع الأمة، وهو نصف الايمان ونصف الشكر، وهو في القرآن على انواع مأمور به ومنهي عن ضده وإيجاب محبته تعالى لأهله وايجاب معيته لهم، واخباره بانه خير لأصحابه وايجاب الجزاء لهم بأحسن اعمالهم واطلاق البشرى لهم الى غير ذلك. وهو في اللغة الحبس والكفّ ومنه قتل فلان صبراً إذا أُمسك وحُبس للقتل، ومنه قوله تعالى (واصبِرَ نفسكَ مع الذين يدعونَ ربهُم بالغَداة والعَشي يريدونَ وجههُ) أي احبس نفسك معهم.

فالصبر حبس النفس عن الجزع والسخط، وحبس اللسان عن الشكوى، وحبس

الجوارح عن التشويش وهو ثلاثة انواع: صبر على طاعة اللّه تعالى، وصبر عن معصية اللّه، وصبر على امتحان اللّه. فالأولان صبر على ما يتعلق بالكسب، والثالث صبر على ما لا كسب للعبد فيه. وباعتبار آخر ينقسم أيضاً الى ثلاثة اقسام: صبر باللّه، وصبر لله، وصبر مع اللّه .فالأول الاستعانة به ورؤيته انه هو المصير، وان صبر العبد بربه لا بنفسه كما قال تعالى (واصبِرْ وما صبركَ إلاّ باللّه) يعني إن لم يصبِّركَ هو لم تصبِرْ. والثاني ان يكون الباعث على الصبر محبة اللّه وارادة وجهه والتقرب اليه لا إظهار قوة النفس والاستحماد الى الخلق وغير ذلك من الاغراض. والثالث دوران العبد مع مراد اللّه الديني منه ومع احكامه الدينية صابراً نفسه معها سائراً بسيرها مقيماً بإقامتها متوجه معها اين توجهت ركائبها ، فهذا معنى كونه صابراً مع اللّه اي قد جعل نفسه واقفاً على مراد اللّه واوامره ومحابه وهو اشد انواع الصبر واصعبها وهو صبر الصديقين. قال الجُنيد: المسير من الدنيا الى الآخرة سهل هين على المؤمن وهجران الخلق في حب اللّه شديد، والسير من النفس الى اللّه صعب شديد، والصبر مع اللّه اشد. وسُئِلَ عن الصبر فقال: تجرُّع المرارة من غير تعبيس. وقال ذو النون: الصبر التباعد من المخالفات والسكون عند تجرّع غصص البلية وإظهار الغنى مع حلول الفقر بساحات العبد. وقد امر اللّه تعالى في كتابه بالصبر الجميل الذي لا عتاب معه والهجر الجميل الذي لا اذى معه. وقال ابن عُيينة في قوله (وجعلناهم أئمةً يهدون بأمرنا): لما صبروا أخذوا برأس الامر فجعلهم رأساً. والشكوى الى اللّه تعالى لاتنافي الصبر، فإن يعقوب عليه السلام وعد بالصبر الجميل والنبي إذا وعد واخبر اللّه عنه انه وجده صابراً مع قوله (مَسَّني الضُرُّ وأنت أرحم الراحمين)، وانما ينافي الصبر شكوى اللّه لا الشكوى إليه كما راى بعضهم رجلاً يشكون الى آخر فاقة وضرورة، فقال: ياهذا أتشكو مَن يرحمك الى مَن لايرحمك ثم انشد:

واذا عَرَّتكَ بَليّة فاصبر لها ... صبر الكرام فإن ربك اعلم
واذا شكوت الى ابن آدم إنما ... تشكو الرحيم الى الذي لايرحم

والصبر على المسكنة والذل بتوطين النفس على التواضع لله ولعباده ورؤية النفس دون كل جليس الذي هو معنى التواضع وان يتلقى الفاقات بالقبول، فإنها اعياد المريدين لأن مدار امرهم انما هو على مراعاة قلوبهم وتصفية اسرارهم من كدورات

الاغيار والآثار، ولايتأتي لهم ذلك إلاّ بوجدانهم لما يقهرهم من ضروب الفاقات وانواع الحاجات والضرورات فتراهم يؤثرون الفقر على الغنى والشدة على الرخاء والذلّ على العزّ والمرض على الصحة، اذ يحصل لهم بذلك رقّة وحلاوة لايعرف قدرها لأنها من وجودهم لقرب ربّهم ورؤيتهم له في حال فقدان حظهم، وكلما ازدادوا فاقة وبلاء زادهم مولاهم قربة وولاء. وكان بعضهم يطوف حول الكعبة وهو يقول:

مؤتزر بشملتي كما ترى ... وصبية باكية كما ترى

وامرأتي عريانة كما ترى ... يا من يرى الذي بنا ولايُرى

أما ترى ما حل بي أما ترى

فسمعه بعضهم فجمع له كسراً ودفعها اليه، فقال له: إليك عني لو كان معي شيء ما امكنني ان اقول هذا القول. قال العارف باللّه سيدي ابن عطاء اللّه الاسكندراني رضي اللّه عنه في حكمه: ورود الفاقات اعياد المريدين ربما وجدت من المريد في الفاقات ما لاتجده في الصوم والصلاة، الفاقة بسط المواهب ان اردت ورود المواهب عليك صحح الفقر والفاقة لديك إنما الصدقات للفقراء والمساكين. وتصحيح الفاقة والفقر عبارة عن التحقق بأوصاف العبودية التي اشار اليها بعد ذلك بقوله تحقق بأصافك يمدك بأوصافه، تحقق بذُلّك يمدّك بعزّته، تحقق بعجزك يمدك بقدرته، تحقق بضعفك يمدك بحَوله وقوته.

قال الاستاذ أبو الحسن الشاذلي رضي اللّه عنه بعد كلام ذكره؛ وتصحيح العبودية بملازمة الفقر والعجز والضعف والذلّ لله تعالى، واضدادها أوصاف الربوبية فمالك ولها فلازم اوصافك وتعلق بأوصافه. وقد ورد احاديث كثيرة في فضل المسكنة والذّل وفضل الفقر وما اشبه ذلك ما رواه أنس عن النبي ﷺ أنه قال: **"اللّهم أحيني مسكيناً واحشرني في زمرة المساكين، فقالت عائشة لم يارسول اللّه؟ قال انهم يدخلون الجنة قبل اغنيائهم بأربعين خريفاً، يا عائشة لاتردي المساكين ولو بشقّ تمرة، يا عائشة احبي المساكين وقربيهم فإن اللّه يقربك يوم القيامة"** رواه الترمذي والبيهقي في شعب الايمان. وروى ابن ماجه عن ابي سعيد الى قوله "زمرة المساكين" وعن ابي الدرداء عن النبي ﷺ قال: **"ابغوني في ضعفائكم فإنما تُرزقون وتُنصرون بضعفائكم"** رواه أبو داود. وعن ابي هُريرة قال رسول اللّه عليه وسلم: **"لا تغبطن فاجراً بنعمة فإنك لاتدري**

ما هو لاقٍ بعد موته إن له عند اللّه قاتلاً لايموت - يعني النار" رواه البغوي في شرح السُنة.

وعن عبداللّه بن عمر قال: قال رسول اللّه ﷺ:"الدنيا سجن المؤمن وسنته واذا فارق الدنيا فارق السجن والسنة" رواه في شرح السنة. وعن قتادة بن النعمان ان رسول اللّه ﷺ قال: "إذا احب اللّه عبداً حماه الدنيا كما يظل احدكم يحمي سقيمه الماء" رواه احمد والترمذي. وعن محمود بن لبيد ان النبي ﷺ قال: "إثنتان يكرهما ابن آدم يكره الموت والموت خير للمؤمن من الفتنة، ويكره قلّة المال وقلة المال اقلّ للحساب" رواه احمد. وقد ورد عن ابي هريرة قال رسول اللّه ﷺ: "رُبّ اشعث مدفوع بالابواب لو اقسم على اللّه لأبَرّه" رواه مسلم. وعن مصعب بن سعد قال رأى سعد ان له فضلاً علي من دونه فقال رسول اللّه ﷺ: "هل تُنصرون وتُرزقون إلاّ بضعفائكم" رواه البخاري. وعن اسامه بن زيد قال قال رسول اللّه ﷺ: "قُمتُ على باب الجنة فكان عامة مَن دخلها المساكين واصحاب الجِد محبوسون غير أن اصحاب النار قد اُمر بهم الى النار، وقمت على باب النار فإذا عامة مَن دخلها النساء" متفق عليه. وعن عباس قال قال رسول اللّه ﷺ: "إطّلعت في الجنة فرأيت اكثر أهلها الفقراء، وإطّلعت في النار فرأيت اكثر أهلها النساء" متفق عليه. وعن سهل بن سعد قال: "مرّ رجل على رسول اللّه ﷺ وسلم فقال لرجل عنده جالس: ما رأيك في هذ؟! فقال رجل من اشرف الناس: هذا واللّه حري إن خطب ان يُنكح وإن شفع ان يُشفَّع وإن قال ان يُسمع، قال فسكت رسول اللّه ﷺ، مرّ رجل فقال رسول اللّه ﷺ: ما رأيك في هذا؟ فقال: يا رسول اللّه هذا رجل من فقراء المسلمين هذا حريٌ ان خطبَ ان لاينُكح وإن شفع ان لايُشفَّع وإن قال ان لايُسمع لقوله. فقال رسول اللّه ﷺ: لهذا خير من مَلء الارض مثل هذا" متفق عليه.

وعن عمر رضي اللّه عنه قال دخلت على رسول اللّه ﷺ فإذا هو مضجع على رمال حصير ليس بينه وبين فراش قد اثر الرمال بجنبه متكئاً على وسادة من أدم حشوها ليف، قلت: يا رسول اللّه ادع اللّه فليوسع على أمتك فإن فارس والروم قد وسع عليهم وهم لايعبدون اللّه. فقال: اَوَ في هذا انت يا ابن الخطاب اولئك قوم عُجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا" . وفي رواية "أما ترضى ان تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة"

متفق عليه. وعن ابي هريرة قال لقد رأيت سبعين من اصحاب الصفة ما منهم رجل عليه رداء إما ازار وإما كساء، قد ربطوا في اعناقهم فمنها ما يبلغ نصف الساقين ومنها ما يبلغ الكعبين فيجمعه بيده كراهة ان تُرى عورته، رواه البخاري.

والمسكين مَن لا شيء له، والفقير مَن له شيء يسير وعند بعضهم بالعكس. والفقير عند أهل الحقيقة هو الذي لايجد شيئاً غير اللّه تعالى ولايستغني إلاّ به ولايستريح إلاّ بالحضور معه، وعلامته عدم الاسباب كلها. قال اللّه تعالى (يأأيُّها الناسُ أنتم الفقراء الى اللّه واللّه هو الغنيُّ الحميد) وليس المراد من المسكين الطوّاف الذي يسأل الناس لا عن ضرورة فإن ذلك مذموم. قال عليه الصلاة والسلام: **"ليس المسكين الطوّاف الذي ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان بل هو الذي لايجد ما يغنيه ويستحي أن يسأل الناس ولايُفطن له، فيُتصدق عليه"**، قيل معناه يستحي من اللّه ان يسأل الناس لكونه طلباً من غير مولاه. وقال عليه الصلاة والسلام مفتاح الجنة حب المساكين والفقراء الصُبر جلساء اللّه يوم القيامة. واعلم ان المسكنة والفقر شعار الاولياء وحلية الاصفياء واختيار اللّه تعالى لخواصه من الأنبياء، والفقراء صفوة اللّه تعالى من عباده وموضع سره. واعلم ان الإنسان متى كان صابراً على الفقر شاكر اللّه تعالى على اختياره له، صائناً لديه كاتماً لفقره مستغنياً بربه في فقره لايغنيه شيء غيره، خائفاً على زوال نعمة الفقر كما يخاف الغني على زوال نعمة الغني، فذلك هو الفقير الصادق وهو المراد بقوله عليه الصلاة والسلام **"يدخل الفقراء الجنة قبل الاغنياء بخمسمائة عام"**.

وحكي ان رجالاً اتى ابراهيم بن ادهم بعشرة آلاف درهم فردها وقال تريد ان تمحو اسمي من ديوان الفقراء بهذا المقدار. وقال بعضهم كان بمكة فقير عليه ثياب رثة لايخالط الفقراء ولايجالسهم وعليه سيماء أهل المعرفة، فوقعت محبته في قلبي فحملت اليه مائة درهم وقلت له: هذه من وجه حلٍّ فاصرفها في بعض أمورك. فنظر اليَّ شذراً ثم قال اني اشتريت هذه الجلسة مع اللّه تعالى على الفراغ بسبعين ألف دينار غير الضياع والاملاك فكيف أبيعها بمائة درهم. وقيل لو لم يكن للفقير فضيلة الا ارادة سعة حال المسلمين ورخص اسعارهم لكفاه ذلك لأنه يحتاج الى الشراء والغني يحتاج للبيع وهذا لعوام الفقراء فكيف لخواصهم والمراد من الذُلّ ذل العبودية لله تعالى، وهو

الخضوع والانكسار بين يدي اللّه تعالى والافتقار اليه. فإن النفس فيها مضاهاة الربوبية ولو قدرت لقالت كما قال فرعون ولكن فرعون قدر فاظهر، ومن عجز أضمر وانما يخلص النفس من هذه المضاهاة ذلّ العبودية وهو اربعة مراتب. الأولى؛ مشتركة بين الخلق كلهم وهي ذلّ الحاجة. الثانية؛ الفقر الى اللّه تعالى وأهل السموات والارض محتاجون اليه وهو وحده الغني وكل أهل السموات والارض يسألونه وهو لايسأل احداً. الثالثة؛ ذل المحبة فإن المحب ذليل بالذات لمحبوبه وعلى قدر محبته له يكون ذلة له، والمحبة اسست على الذلّ للمحبوب كما قيل:

اخضع وذل لمن تحب فليس في ‏ ‏ ‏ حكم الهوى أَنَفٌ يُشال ويقعد

وقال بعضهم:

مساكين أهل الحب حتى قبورهم ‏ ‏ ‏ عليها ترابُ الذلّ بين المقابـــــر

الرابعة؛ ذلُّ شهود المعصية والجناية. فإذا اجتمعت هذه المراتب الاربعة كان الذلُّ لله والخضوع له اكمل واتم، اذ يذل له خوفاً وخشيةً ومحبةً وانابةً وطاعةً وفاقةً وفقراً، وحقيقة ذلك هو الفقر الذي يشير له القوم. وهذا المعنى اجلّ من ان يسمى فقرا بل هو لب العبوية وسرُّها وحصوله انفع شيء للعبد واحب شيء الى اللّه تعالى. وليس المراد من الذل الذل الناشيء من الطمع فيما في ايدي الناس فإن ذلك والعياذ باللّه تعالى منه ناشيء من حب الدنيا التي هي رأس كل خطيئة آه.

ولما كان الصبر على المسكنة والذل من اشرف الحالات بل هي المقصودة من الرياضات والمجاهدات ولايتأتى له ذلك إلاّ بعد اخراج الصفات المذمومة التي تمنعه عن التخلق بأخلاق العارفين والتمسك بأذيال الأنبياء والمرسلين، اشار الشيخ رضي اللّه عنه بقوله:

واخراج الرذائل منك والحقد والغِلّ؛ اي وعليك باخراج الرذائل الكامنة فيك كمون النار في الحجر بالمجاهدة وتصفية النفس وصحبة الشيخ العارف المرشد المسلك الذي يدلك على طريق التصفية والتحلية فهو من عطف السبب على المسبب. قال الشارح: الحقد والغِلّ مترادفان، والحسد من نتائج الحقد والغل وهما من نتائج الغضب ولذا ذكرهما الشيخ رضي اللّه تعالى عنه على هذا الترتيب سالكاً طريق الترقي، قال عليه الصلاة والسلام: "الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب" وحقيقته ان يكره نعمة الله على أخيه فيحب زوالها عنه يعني وانتقالها اليه، فأن كان لايكره ذلك لأخيه ويحب

زوالها عنه ولكن يريد لنفسه مثل ذلك سمي غبطة محمودة قال ﷺ المؤمن يغبط والمنافق يحسد آه. واعلم ان الحسد حسك ماتعلق به امريء إلاّ هلك كفى الحاسد ذماً آخر سورة الفلق. وقد قال ﷺ:"**ثلاث هنَّ اصل كل خطيئة فاتقوهن واحذروهن ؛ الكِبَر فإنه منع ابليس عن السجود لآدم، والحرص فإنه حمل آدم على اكل الشجرة، والحسد فإنه حمل قابيل على قتل هابيل**".

وقيل الحاسد جاحد لأنه لايرضى بقضاء الواحد، وقيل الحسود لايسود، وقيل في تفسير قوله تعالى (**قُل إنما حَرَّمَ ربّي الفواحش ما ظهر منها وما بطن**) قيل هو الحسد. وقيل اتقِّ الحسد فإنه يؤثر فيك قبل ان يؤثر في المحسود. وقال الأصمعي: رأيت اعرابياً له من العمر مائة وعشرون سنة فقلت: ما أطول عمرك؟ فقال: تركت الحسد فبقيت. وقال ابن المبارك: الحمد لله الذي لم يجعل في قلب أميري ما جعل في قلب حاسديّ. وفي بعض الآثار إن في السماء الخامسة ملكاً يمرّ به عمل عبد، له ضوء كضوء الشمس فيقول قف فأنا ملك الحسد اضرب به وجه صاحبه فإنه حاسد. وقال معاوية: كل انسان اقدر على ان ارضيه إلاّ الحاسد فإنه لايرضيه إلاّ زوال النعمة. ويقال الحاسد ظالم عسوف لايُبقي ولايَذر. وقال عمر بن عبدالعزيز: ما رأيت ظالماً اشبه بمظلوم من الحاسد غمٌ دائم ونفس متتابع وقيل من علامات الحاسد ان يتملق إذا شهد ويغتاب إذا غاب ويشمت بالمصيبة إذا نزلت. وقال معاوية ليس في خِلال الشر خلة اعدل من الحسد يقتل الحاسد غماً قبل المحسود. وقيل أوحى اللّه تعالى الى سليمان بن داود عليه الصلاة والسلام اوصيك بسبعة اشياء لاتغتابنَّ صالح عبادي ولاتحسدنّ احداً من عبادي، فقال سليمان: يا رب حسبي. وقيل رأى موسى عليه السلام رجلاً عند العرش فغبطه فقال: ما صفته، فقيل: كان لايحسد الناس على ما آتاهم اللّه من فضله. وقيل الحاسد إذا رأى نعمة بهت واذا رأيعثرة شمت. وقيل اذا ارادت ان تسلم من الحاسد فليس عليه امرك. وقيل الحاسد مغتاظ على من لا ذنب له بخيل بما لايملكه. وقيل إيّاك ان تتعنى في مودة من يحسدك فإنه لايقبل احسانك. وقيل إذا اراد اللّه ان يسلط على عبد عدواً لايرحمه سلط عليه حاسده وأنشدوا:

وحسبُك مِن حاسد بامريء ترى حاسديه له راحمينا

وقال:

كل العــداوة قــد ترجى مــودتهــا　　　إلاّ عــداوة مَن عــاداك من حــســدِ

وقال ابن المعتز:

قل للحـــســـود إذا تنفس طعنة　　　يـا ظالما وكــأنه مظلـــــــــوم

وقال:

واذا أراد اللّه نشْــرَ فــضــيـلةٍ　　　طُويت أتاح لهــا لســانَ حــســودِ

واما ترك الحقد والغلّ فعليه مدار تصفية القلب، فإن طهارة الصدور عن الغلّ والغش عماد امر السادة الصوفية وبذلك ظهر جوهرهم وبان فضلهم، وقد ورد عن رسول اللّه ﷺ أنه قال لأنس بن مالك رضي اللّه عنه: **"يا بُنيّ إن قدرت ان تُصبح وتُمسي وليس في قلبك غش لأحد فافعل"**، ثم قال: **"يا بُنيّ وذلك من سُنَّتي ومَن أحيا سُنَّتي فقد احياني، ومَن احياني كان معي في الجنة"**. والصوفية رضي اللّه عنهم هم الذين احيوا هذه السُنَّة وانما قدروا على احياء هذه السنة ونهضوا بواجب حقها لزهدهم في الدنيا وتركها على اربابها وطلابها، لأن مدار الغل والغش انما يتولدان من محبة الدنيا ومحبة الرفعة والمنزلة عند الناس والصوفية زهدوا في ذلك كله، كما قال بعضهم: طريقتنا هذه لاتصلح إلاّ لأقوام كُنست بأرواحهم المزابل، فلما سقط عن قلبهم محبة الدنيا وحب الرفعة اصبحوا وامسوا وليس في قلوبهم غش لأحد. فقول القائل كُنست بأرواحهم المزابل اشارة منه الى غاية التواضع وأن لايرى نفسه تتميز على احد من المسلمين لحقارته عند نفسه وعند هذا ينسد باب الغش والغل، قال اللّه تعالى في وصف أهل الجنة **(ونَزعنا ما في صدورِهم من غِلٍ اخواناً على سُرُرٍ متقابلين)**.

قال أبو حفص: كيف يبقى الغِلُّ في قلوب إئتلفت باللّه واتفقت على محبته واجتمعت على مودته وآنست بذكره، لأن تلك قلوب صافية من هواجس النفوس وظلمات الطبائع بل كحلت بنور التوفيق حتى ترى احدهم يحسن لمن أساء اليه ويُضمر له الخير ويدعو له في ظهر الغيب. وقد قال سيدي عبدالوهاب الشعراني رضي اللّه عنه وارضاه وجعل الجنة مُتقلَّبَهُ ومثواه في مِننه: ومما مَنَّ اللّه عليَّ به اني لا آكل ولا أشرب ولا أجامع ولا أضحك إذا جنا عليَّ احدَ جناية يؤذيني بها بين الناس حتى اتوجه الى اللّه تعالى في سؤال العفو عنه ويلقي اللّه تعالى في قلبي أنه عفا عنه من كثرة ما دعوت، واقسمت به على اللّه تعالى وهذا الخلق لم اجتمع باحدٍ من أهله الى وقتي هذا

غايتهم الدعاء له بالمغفرة ثم يأكلون ويشربون وينكحون ولا عليهم إن كان اللّه تعالى قَبِلَ دعاهم أو ردَّهُ.

وفي الحديث (أَيعجزُ أحدكم أن يكون كابي ضمضم كان إذا اصبح تصدّق على الناس بعرضه فيجعل غايته المسامحة لمن نقص عرضه)، وما ذكرناه قدر زائد على ذلك. وحكي عن سيدي احمد الرفاعي رضي اللّه عنه ان شخصاً مشى وراءه وصار يلعنه ويسبه والشيخ لايلتفت اليه، فقال له الخادم: يا سيدي اما تسمع ما يقول لك؟ فقال: وماذا يقول هذا شخص تصورت له نفسه بصفات ذميمة فهو يسب تلك الصفات ولست أنا بحمد اللّه تعالى موصوفاً بها آه. ولعل الشيخ اخذ ذلك من قوله ﷺ: "ألا ترون ما يدفع اللّه عني ليست قريش لي يذمون يذمون مذمما وانا محمد بن اللّه ورسول اللّه". والمعنى صحيح لأنهم يسبون صفات مذمومة في مذموم ورسول الله ﷺ صفاته محمودة في محمود، فعُلم انه لايعمل بهذا الخلق إلاّ من اكرم عباد اللّه لله لا لعلة أخرى.

وقد حكى الشيخ عبدالغفار التوصوني أن ذلك كان من خُلُق الشيخ محي الدين العربي رضي اللّه عنه فقال: حدثني الشيخ العارف باللّه تعالى الشيخ عبدالعزيز المنوفي عن خادم الشيخ محي الدين رضي اللّه عنه ان شخصاً بالشام كان قد اوجب على نفسه ان يسب الشيخ محي الدين ويلعنه عقب كل صلاة عشر مرات، فلما مات ذلك الشخص خرج الشيخ محي الدين لجنازته فصلى عليه وحضر دفنه، فلما رجع عزم عليه بعض اصحابه ان يأكل عنده شيئاً فلما دخل بيته وقدم له الطعام فصار الشيخ مبهوتاً من بكرة النهار الى صلاة العشاء لايهتدي سوى الصلاة ثم يبهت، واخذ صاحب الطعام من ذلك أمر فظنَّ ان الشيخ لم يرَ طعامه حلالاً أو نحو ذلك، فلما صلّى العشاء الاخرة ضحك وتبسم وأكل، فقيل له في ذلك فقال: قد كنت عزمت في نفسي إن مات ذلك الشخص أني لا آكل ولا اشرب حتى يغفر اللّه له جهة سَبّه لي إكراماً لرسول اللّه ﷺ لكونه من امته، ثم عمل له سبعين ألف لا إله إلاّ اللّه اوهداها له في صحائفه. فلما غفر اللّه له ضحك الشيخ واكل آه.

قال الشيخ عبد الغفار القوصي: حكى لي الامام المحب الطبري شيخ الحرمين عن والدته انها كانت تُنكر على الشيخ محي الدين اموراً تسمعها منه، فقال لها ولدها

الامام: لايجوز ذلك يا أمي الانكار إلاّ إذا سمعتيه يتكلم واما إذا سمعت شيئاً من اصحابه فلا يجوز ذلك الانكار على الشيخ لأن ذلك ليس من العدل ولا من الشرع. ثم نامت تلك الليلة فرأت الكعبة تطوف بالشيخ محي الدين حجراً حجراً ثم عادت والتأمت، فاستغفرَت اللّه تعالى وتابت آه. وكان شيخنا شيخ الاسلام زكريا رضي اللّه عنه يقول: جميع ما نُسب الى الاشياخ مما يخالف ظاهر الشرع قَلَّ ان يسمعه احد منهم وانما ذلك من اتباعهم لقصورها فربما فهموا من كلام الاشياخ شيئاً اخطأوا في فهمه فاللوم عليهم لا على الاشياخ آه كلام سيدي الشيخ عبدالوهاب الشعراني رضي اللّه عنه.

ولما كان ترك الحسد والحقد والغل ينشآن من الحلم قال رضي اللّه عنه:

الحلم محمود والغضب مردود. الحُلم عبارة عن انكسار قوة الغضب تحت ساسة العقل كما قاله شيخنا في شرحه. ثم قال: ولعل ابتداءه بالتحلُّم اي تكلُّف الحلم الذي هو كظم الغيظ ثم يصير ديدناً للشخص، قال عليه الصلاة والسلام: **"إنما الحلُم بالتحلُّم وانما العلم بالتعلُّم ومَن يتحرَّ الخير يعطه، ومَن يتوقَّ الشر يُوَقَّه، فالحُلم اشرف من الكظم وأفضل منه"** قال رسول الله ﷺ: **"اطلبوا العلم واطلبوا مع العلم السكينة والحلم، لِينوا لِمَن تُعلِّمون ولِمن تَتَعلمون منه ولاتكونوا من جبابرة العلماء فيغلُب جهلكم عليكم"** وقال ﷺ في دعائه: **"اللّهم اغنني بالعلم وزينّي بالحلم واكرمني بالتقوى وجمِّلني بالعافية"** وقال ﷺ: **"ابتغوا الرفعة عند اللّه تعالى. قالوا وما هي يارسول؟ فقال عليه الصلاة والسلام: تَصِل مَن قطعك وتعطي مَن حرمك وتحلُم عمَّن جهل"**. قال تعالى **(وإذا خاطَبَهُم الجاهلون قالوا سلاماً)** قال: حلماً إن جُهِلَ عليهم لم يجهلوا، وهو ثمرة حسن الخلق ويضاده العنف والغضب. ولايُعرف الحلم إلاّ عند الغضب كما لايُعرف الشجاع إلاّ في الحرب ولايعرف الأخ إلاّ عند الحاجة اليه. وقوله محمود -أي في الكتاب والسُنَّة - قال اللّه تعالى في مقام التنويه بشرف النبي ﷺ **(وإنّك لعلى خُلُق عظيم)**. وقد ورد عن أنس رضي اللّه عنه قال: **"قيل يا رسول الله أي المؤمنين أفضل إيماناً؟ فقال: أحسنهم خُلُقاً"**.

وقال بعض العارفين الخُلُق الحسن مناقب العبد وبه يظهر جواهر الرجال، والانسان مستور بخلُقه مشهور بخَلقه. وقال بعضهم التصوف خُلُق فمن زاد عليك بالخلق فقد زاد

عليك في التصوف. ويروى عن عمر رضي اللّه عنه انه قال: إذا سمعتموني اقول لمملوك أخزاه اللّه فاشهدوا انه حُرّ. وقال الفضيل: لو أن العبد احسن الاحسان كله وكانت له دجاجة فأساء اليها لم يكن من المحسنين. وقيل كان عمر إذا رأى واحداً من عبيده يحسن الصلاة يعتقه فعرفوا ذلك من خُلقه فكانوا يحسنون الصلاة مُراءاةً له وكان يعتقهم، فقيل له في ذلك فقال: مَن خدعنا في اللّه انخدعنا له. وقيل للاحنف: ممن تعلمت الحُلم؟ فقال: من قيس بن عاصم المنقري. قيل: وما بلغ من حُلُمه؟ فقال: بينما هو جالس في داره اذ جاء خادم له بسفود عليه شواء فسقط من يده فوقع على ابن له فمات فدهشت الجارية، فقال: لا روع عليك انت حرة لوجه اللّه تعالى. وقال النبي ﷺ: "**إنكم لن تَسَعوا الناس بأموالكم فسَعوهم ببسط الوجه وحسن الخلق**".

وقيل لذي النون المصري: مَن اكثر الناس هماً؟ فقال: أسوأهم خُلُقاً. وقال وهب: ما تخلَّق عبد بخُلُق اربعين صباحاً إلاّ جعل اللّه ذلك طبيعة فيه. وقال الحسن البصري في قوله تعالى (وثيابَكَ فطهِّر) وخُلقُك فحسِّن. وقيل لابراهيم بن ادهم فرحت في الدنيا قط، فقال: نعم مرتين احدهما كنت قاعداً ذات يوم فجاء انسان وبالَ عليَ والثاني كنت قاعداً فجاء انسان وصفعني. وقيل كان أُويس القرني إذا رآه الصبيان يرمونه بالحجارة وهو يقول: إن كان لابد فارموني بالصَغار كيلا تدمو لساقي فتمنعوني عن الصلاة. وشتم رجل الاحنف بن قيس وكان يتبعه فلما قرب الحي وقف وقال: يا فتى ان بقي في قلبك شيء فقله كيلا يسمعك بعض سفهاء الحي فيجيبوك. وقيل ان امير المؤمنين علي بن ابي طالب رضي اللّه عنه دعا غلاماً له فلم يجبه، فدعاه ثانياً وثالثاً فلم يجبه، فقام اليه فرآه مضطجعاً فقال: اما تسمع يا غلام؟ فقال: نعم. قال: فما حملك على ترك جوابي؟ قال: اَمِنتُ العقوبة فتكاسلت. فقال: إمض فأنت حرّ لوجه اللّه تعالى.

وقيل نزل معروف الكرخي الدجلة ليتوضأ ووضع مصحفه وملحفته فجاءت امرأة فحملتهما، فتبعها معروف فقال: يا أختي انا معروف لا بأس عليك ألكِ ابن يقرأ؟ قالت: لا. قال:فزوج؟ قالت: لا. قال: فهاتِ المصحف وخذِ الثوب. ودخل اللصوص مرة دار الشيخ ابي عبدالرحمن السلمي بالمكابرة وحملوا ما وجدوا فسمعت بعض اصحابنا يقول سمعت الشيخ ابا عبدالرحمن يقول: إجتزت بالسوق فرأيت جبتي على مَن يزيد فاعرضت ولم التفت اليه. وقيل كان أبو ذرّ على حوض يسقي إبلاً له، فأسرع بعض

الناس عليه فإنكسر الحوض فجلس ثم اضطجع. فقيل له في ذلك، فقال: إن رسول اللّه ﷺ اَمرَنا إذا غضب الرجل ان يجلس، فإن ذهب عنه وإلاّ فليَضطجع. وقيل مكتوب في الانجيل عبدي اذكُرني حين تغضب اذكرك حين اغضبْ. وقالت امرأة لمالك بن دينار: يا مُرائي. فقال: يا هذه وجدت اسمي الذي اضلّه أهل البصرة. وقال لقمان لابنه: لاتعرف ثلاثة إلاّ عند ثلاثة؛ الحليم عند الغضب، والشجاع في الحرب، والاخ عند الحاجة اليه وقيل ليحيى بن زياد الحارثي وكان له غلام سوء: لم تمسك هذا الغلام؟ فقال: لأتعلّم عليه الحلم. وقال الفضيل: لأن يصحبني فاجر حسن الخُلق احبُّ إليَّ من ان يصحبني عبدٌ سيئ الخلق.

وحكي ان ابراهيم بن ادهم خرج الى بعض البراري فاستقبله جندي فقال: اين العمران؟ فأشار الى المقبرة فضرب راسه واوضحه، فلما جاوزه قيل له انه ابراهيم بن ادهم زاهد خراسان، فجاءه يعتذر اليه فقال: إنك لما ضربتني سألت اللّه لك الجنة. فقال: لم؟ فقال: علمت اني اؤجر عليه فلم اردِ ان يكون نصيبي منك الخير ونصيبك مني الشرّ. وحكي أن ابا عثمان الحيري دعاه انسان الى ضيافته فلما وافى باب داره قال: ياأستاذ ليس لى حاجة في دخولك وقد ندمت فإنصرف. فرجع أبو عثمان فلما وافى منزله عاد اليه الرجل وقال: يا أستاذ ندمت وأخذ يعتذر وقال: إحضر الساعة. فقام أبو عثمان ومضى فلما وافى باب داره قال مثل ما قال في الاول، ثم كذلك فعل ذلك في الثالثة والرابعة وابو عثمان ينصرف ويحضر. فلما كان بعد مرات قال: ياأستاذ اردت ان اختبرك، واخذ يعتذر ويمدحه. فقال: أبو عثمان لاتمدحني على خلق مثله في الكلاب فالكلب إذا دعى حضر وإذا زجر انزجر.

وقيل ان ابا عثمان اجتاز بسكة فألقي عليه من سطح طست رماد فتغير اصحابه وبسطوا ألسنتهم في المُلقي فقال أبو عثمان: لاتقولوا شيئاً من استحق ان يصب عليه النار فصولح على الرماد لم يجُزْ له ان يغضب. وقيل الخُلُق السيئ يضيق قلب صاحبه لأنه لايسع فيه غير مراده كالمكان الضيق لايسع فيه غير صاحبه، الى آخر ما ذكره القوم في حسن الخلق من الرقائق. واذا نظرت كلامهم وجدته راجعاً الى أن معنى حسن الخلق والمقصود منه عدم الغضب. ولهذا قرنهما الاستاذ في فقرة واحدة. والغضب عبارة عن قوة حمية تثور من باطن الإنسان، فهو نار مستكنة في القلب استكنان الجمر تحت

الرماد ويخرجها الكِبر الدفين ولعله من النار التي خُلق منها الشيطان. وحكمة خلقه في الإنسان انه لما كان معرضاً لأن يقصد بالهلاك وكان بقاؤه مقصوداً خلق اللّه الغضب من النار وغرزها في باطنه، فإذا قصد بأذى اشتعلت نار الغضب وثارت ثورة يغلي منها دم القلب وينتشر في العروق ويرتفع الى اعالي البدن كما ترتفع النار أو الماء الذي يغلي، فلذلك ينصب الى البشرة فتحمر أو تصفر فإذا كان الغضب على من دونه واستشعر القدرة عليه احمرّ لونه، واذا كان على مَن فوقه واستشعر الخوف واليأس من النصرة تولد منه انقباض الدم وصار حزناً وإصفَّر لونه وان كان على نظيره تردد الدم من انقباض وإنبساط فيصفرُّ تارة ويحمرُّ اخرى ويضرب على الجملة.

فمحل الغضب القلب ومعناه غليان دم القلب لطلب الانتقام. وللناس فيه ثلاث درجات؛ اولها التفريط وهو فقد هذه القوة أو ضعفها وذلك عدم الحمية وهو مذموم، وهو المراد بقول الشافعي رضي اللّه عنه: مَن استغضب فلم يغضب فهو حمار. والمطلوب منه الاعتدال وهو الذي وصف اللّه به الصحابة بقوله (**اشداء على الكفار رحماءُ بينَهم**). فينبغي لمن لم يكن عنده تلك القوة ان يجاهد نفسه بالرياضة حتى تحصل عنده. والثالث؛ وهو الافراط وهو ان يخرج عن الحد فيغلب صاحبه بحيث لايقدر ان يدخل تحت سياسة العقل واشارة الشرع، فيصير الشخص القائم به كالمضطر فترى ظاهره يتغير وصورة باطنة أقبح، فهذا هو الذي اشار اليه الشيخ بقوله مردود اي مذموم صاحبه شرعاً. فقد روى ان عائشة رضي اللّه عنها غضبت مرة فقال رسول اللّه ﷺ: "**جاء شيطانك. فقالت: ومالَكَ شيطان؟ فقال: بلى ولكن دعوت اللّه عليه فأسلم فلا يأمر إلاّ بالخير**". وقال علي رضي اللّه عنه: كان رسول اللّه ﷺ لايغضب للدنيا فإذا اغضبه الحق لايصرفه أحد ولم يقم بين يدي غضبه شيء حتى ينتصر له.

واذا كان الغضب مذموماً فينبغي ان يجاهد الإنسان ليقلَّ غضبه ان لم تمكن ازالته بالكلية خصوصاً إذا لم يمكن سببه امراً من ضرورات المعيشة، وذلك بأن يعرف نفسه وخسَّتَها ويعلم انه لاينبغي له الاستعلاء مع تلك الخسّة والدناءة على أحد، ويعلِّم ثواب كظِم الغيظ ويخوِّف نفسه بعقاب اللّه ويحذِّرها عاقبة الانتقام. فإن العدو أيضاً يشمّر لاذائه وتطويل العداوة بينهما ويعلم ان اللّه تعالى اقدر عليه منه على غيره، ويتفكّر فى قبح صورة غيره عند الغضب، ويقيس نفسه عليه ويعلم انه يشبه السبع الضاري إذا

استعمل الغضب، بخلاف ما إذا استعمل الحلم فإنه حينئذ لايشبه إلاّ الأنبياء والاولياء، فإنه كما ورد (كاد الحليم ان يكون نبياً) وينبغي ان يقول عند غضبه اعوذ باللّه من الشيطان الرجيم هكذا امر رسول اللّه ﷺ ان يُقال عند الغضب، وكذلك ينبغى له ان يتوضأ بالماء البارد أو يغتسل. فقد قال رسول اللّه ﷺ: "**إن الغضب جمرٌ يتوقد في القلب ألم ترَوا الى انتفاخ اوداجه وإحمرار عينيه، فإذا وجد احدكم من ذلك شيئاً فإن كان قائماً فليجس، وإن كان جالساً فلينم، فإن لم يزل ذلك فليتوضأ بالماء البارد ويغتسل، فإن النار لايطفئه إلاّ الماء**".

ولما كان رأس الأمر في تحصيل كل صفة محمودة والتوقّي عن كل خصلة مذمومة الصبر لأنه لايتأتى له شيء من ذلك إلاّ بالمجاهدة، وهي لاتحصل إلاّ بالصبر على الشدائد والمشاق. ولهذا قال رضي اللّه عنه:

الصبر صفة الاصفياء. وقد تقدم الكلام على الصبر عند قوله رضي اللّه عنه: وعليك بالصبر على المسكنة والذلّ. وإنما كان الصبر صفة الاصفياء جمع (صفي) وهو مَن اصطفاه اللّه تعالى لحضرته وخلصه من كدورات بشريته لأنهم ما نالوا تلك المقامات العالية إلاّ بالصبر. قال اللّه تعالى (**وجعلناهم أئمةً يهدون بأمرِنا لما صبروا**). وقال (**وتَمَّت كلمةُ ربِّك الحُسنى على بني اسرائيل بما صبروا**) وقال (**ولَيَجزيَّن الذين صبروا**). وسُئِلَ النبي ﷺ عن الايمان فقال: الصبر والسماحة. وقال: الصبر كنز من كنوز الجنة. والمراد منه حبس النفس على ما تكره.

واذا كان الصبر صفة محمودة يتصف بها خواص العبادة فمن لازم ذلك ان تكون العجلة في الامور مذمومة بها اراذل الخلق وأوباشهم. ولهذا قال رضي اللّه عنه:

والعجلة نعت الأشقياء. وهي ضد التؤدة والتأني، وهي مذمومة جداً إلاّ في امور الآخرة فإنها محمودة. وقد ورد في فصل التؤدة والتأني في الامر ليرى عاقبته جملة احاديث. فقد روى عن ابن عباس رضي اللّه عنهما ان النبي ﷺ قال لأشبح عبدالقيس: "**إنّ فيك لَخصلتين يحبهما اللّه الحُلم والأناة**" راوه مسلم. والأناة بوزن قناة ضد العجلة، وهو التؤدة والتأني في الامر. وعن سهل بن سعد الساعدي ان النبي ﷺ قال: "**الأَناة من اللّه والعجلة من الشيطان**" رواه الترمذي وقال هذا حديث غريب. وعن أَنَس ان رجلاً قال للنبي ﷺ أوصني فقال:"**خذ الامر بالتدبير فإن رأيت في عاقبته خيراً فامضه وان**

خفت غياً فأمسك" رواه البغوي في شرح السُنَّة. وعن مصعب بن سعد عن ابيه قال الأعمش لا اعلمه إلاّ عن النبي ﷺ قال: "التؤدة في كل شيء خير إلاّ في عمل الآخرة" رواه أبو داود ، يعني في الامور الاخروية من افعال البِرِّ متى هَمَّ العبد لها ينبغي امضاؤها على الفور لئلا يحول بينه وبين ما يريد حائل، لأن كل خير عليه مانع.

وانما كانت العجلة نعت الأشقياء لأن الشقي لايتروى في أمره بل متى كان مصادفاً لحظ نفسه أمضاه من غير ان يزنه بميزان الشرع وينظر في عاقبته، وذلك الاعجاب بالرأي والاستبداد به. ولذلك قال رضي اللّه عنه:

واحذر ان تتصف بالعجب، لأن العجب مذموم قال اللّه تعالى (ويومَ حُنين اذ اعجبتكم كثرتكم) وقال تعالى (وهم يحسبون انهم يُحسنون صُنعا) وقال تعالى (وبَدا لهم من اللّه ما لم يكونوا يَحتسبون). وقال ﷺ: "ثلاث مهلكات؛ شح مُطاع وهوىً مُتّبع وإِعجاب المرء بنفسه". وحقيقة العجب تكبُّر يحصل في الباطن بتخيُّل كمال من علمٍ أو عمل. فإن كان خائفاً على زواله فهو غير معجب، وان كان يفرح بكونه نعمة من اللّه تعالى فهو غير معجب بل هو مسرور بفضل اللّه تعالى وان كان ناظراً اليه من حيث هو صفته غير ملتفت الى امكان الزوال ولا الى المنعَم به بل الى صفة نفسه، فهذا هو العجب وهو من المهلكات وعلاجه ان يتأمل في العاقبة فإنها مجهولة وينظر الى من سُلب من العارفين كبلعام بن باعوراء مع كونه كان يحفظ اسم اللّه الاعظم وقد خُتم له بالكفر والعياذ باللّه تعالى، وكذلك ابليس فمن تامل امكان سوء الخاتمة وانه ممكن لايعجب بشيء من صفاته.

قال سيدي عبد الوهاب الشعراني رضي اللّه عنه في كتابه (تنبيه المغترّين): ومن اخلاقهم عدم العجب والإدلال بشيء من اعمالهم، بل يرون انهم استحقوا النار بصالح اعمالهم عندهم لما يشهدونه فيها من سوء الأدب مع اللّه تعالى، وقد كان عيسى عليه الصلاة والسلام يقول كم من سراج اطفأته الريح وكم من عبادة قد افسدها العجب. وكان وهب بن منبه يقول: ساعة يزري فيها العبد بنفسه خير له من عبادة سبعين سنة. وكان الانطاكي يقول: اضرّ الطاعات على العبد ما انسَتهُ مَساويه وذكرّته بمحاسنه، فإن من سعادة العبد جعل مساويه نُصب عينه فلا يزال خجلان من اللّه تعالى. وإن من شقاوة العبد نسيان مساويه وذكر خَساسته فيزداد بها إذلالاً واغتراراً بين الناس فيذهب

الى الآخرة صفر اليدين من الخير والثواب وهو يحسب انه من الصالحين.

وكان الشعبي يقول: كان رجل إذا مشى يظلله السحاب بفضله فقال رجل لأَمشيَنَّ في ظله، فعجب بنفسه حين رأى الناس يمشون في ظله، فلما افترق ذهب الظل مع ذلك الرجل التابع. وكان عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه يقول: ان من علامة صدق توبتك ان تعترف بتقصيرك. وكان عمر بن عبدالعزيز إذا خطب على المنبر فخاف العجب قطع الكلام وعدل الى غيره مما لا عجب فيه ويقول: اللّهم اني اعوذ بك من شرّ نفسي. وكان سفيان الثوري إذا كبرت حلقته قام عجلاً منها وقال: أُخذنا ولم نشعر. وتبعه الناس مرة وقالوا له: مثلك لايخاف من مثل ذلك. فقال: بل انا اخوف الناس من ذلك لدناءة اخلاقي فواللّه لو رآني عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه جالساً في هذا المجلس لضربني بالدُرّة وأقامني وقال لي أنت لاتصلح لمثل ذلك. وكان مطرف بن عبداللّه يقول: لأن ابيت قائماً واصبح نادماً احب اليَّ من ان ابيت قائماً واصبح معجباً ارى نفسي على النائمين. وكانوا يعيبون على العباد لكثرة صيامهم وقيامهم خوفاً عليهم من الاعجاب ويقولون لهم: تعلّموا العلم ثم اعملوا فإن لكل عمل ادباً شرعياً.

وكان الحسن البصري رضي اللّه عنه يقول: لو ان عمل ابن آدم كله يكون حسناً لكان يهلك من العجب ولكن اللّه تعالى إبتلاه بشهود النقص فيه رحمةً. وقال رجل مرّة لإبراهيم التيمي رضي اللّه عنه: ما تقول في هذه المسألة يا فقيه؟ فقال ابراهيم: إن زماناً صرت انا فيه فقيهاً لزمان سوء. وكان حذيفة المرعشى رضي اللّه عنه يقول: ان لم تخف ان يعذبك اللّه على أفضل اعمالك فأنت هالك. وكانت رابعة العدوية تقول: اكثر ما أكون راجيةً للخير حين تقلّ اعمالي الصالحة- أي لكونها كانت معتمدة على اعمالها خافت وقوع العذاب بها. وكان حسّان بن سنان رضي اللّه عنه يطلب من اعوان الولاة ان يدعوا له، فقيل له في ذلك فقال: لعل في احدهم خصلة يحبها اللّه وفيَّ خصلة يبغضها اللّه ولعلي ارى نفسي خيراً منه فيكون خيراً مني حينئذ.

ولما مرض عمر بن عبدالعزيز اشاروا عليه في الدفن في المكان الرابع عند قبر النبي ﷺ فقال: لأن يعذبني اللّه تعالى بالنار احبُّ إليَّ من ان يعلم اللّه من قلبي إنني ارى نفسي أهلاً لذلك. وسُئِلَ ابن السماك عن حقيقة العجب فقال: هو ان تتطاول على الناس بعملك فتحتقر كل مَن رزيته مقصراً في العمل. وكان يكثر العبادة فيقول له

الناس في ذلك فيقول: لايستكثر عبادته في عينه إلاّ جاهل باللّه فإن الملائكة لاتغفل عن عبادة اللّه طرفة عين ولو انها استكثرت اعمالها لم يجعلها في حضرته السماوية. قال: وقد بلغني انهم يقولون يوم القيامة مع تلك العبادة العظيمة سبحانك ما عبدناك حق عبادتك. وسمعت سيدي علي الخوّاص رحمه اللّه يقول: إن لم تخف ان يعذبك اللّه بالنقص الذي في اعمالك الصالحة عندك فضلاً عن معاصيك فأنت هالك.

وكان يزيد بن هارون رضي اللّه عنه يقول: نظرت في قيامي فإذا الحارس يحرس الليلة كلها بدانقين أفيَطلب احدكم الجنة إذا سهر ليلة واحدة بعبادة لعلها لاتساوي دانقين وربما مَنَّ بها على ربِّه. وكان بِشر الحافي يقول: إذا رأيت العبد لحوحاً ممارياً بالعلم معجباً بنفسه فقد استكمل الخسارة. وكان أبو سليمان الداراني يقول: مَن اعجب بعمله فهو قدري أي لأنه لو رأى العمل خلقاً لله لم يعجب به قلت وهذا في العمل الحسن كما هو معلوم، واما العمل السيئ فلا يجوز له تعرية نفسه عنه بل الواجب عليه ان يتوب ويندم ويستغفر. وكان للعطاء السلمي خدامون يخدمونه في البيت ويوضؤنه فقالوا له لاتستقذر هؤلاء ان يكونوا في بيتك؟ فقال: واللّه انهم عندي اطهر من نفسي واقل ذنوباً واقل رياءً ونفاقاً فكيف يصح لي ان استقذرهم. وكان ابان بن عياش يقول: لايكره العمل بالرُّخَص إلاّ معجب بنفسه او صاحب هوى- اي لأن الرُّخَص لايُحمد احد فاعلها فلا يحصل عند فاعلها عجب.

وكان أبو بكر الصديق رضي اللّه عنه يخاف من العجب كل الخوف وكانوا إذا أثنوا عليه بخير يقول: اللّهم اجعلني خيراً مما يقولون واغفر لي مالايعلمون. وكان عمر بن الخطاب إذا أثنوا عليه يقول: اللّهم اني اعوذبك من شرّ ما يقولون واسالك ان تغفر لي مالايعلمون. وحضر بكر بن عبد اللّه ومطرف بن عبداللّه فكان من دعاء مطرف: اللّهم لاتردَّهُم في هذا اليوم من اجلي خائبين. وكان من قول بكر بن عبداللّه: ما اشرف هذه البقعة وما ارجاها للدعاء لو لم اكن في الناس. وكان الحسن البصري رضي اللّه عنه يقول: رُبَّ هالك بالثناء عليه ورُبَّ مستدرج بالاحسان اليه. وكان يحيى بن معاذ رضي اللّه عنه يقول: ربما بلغ العجب بالفقير الى ان صار يقول لو عرضت على حور الجنان ما ألتفت اليهن دون اللّه وربما رأى جارية من جَوارِ أهل الدنيا فصار قلبه بالميل اليها حتى بلغ الغرض. وكان يقول: واللّه لذَنبٌ تفتقر به الى اللّه خير لك من طاعة تفتخر بها

على العباد. وكان محمد بن واسع يقول لعباد زمانه: أفٍّ عليكم دخل العجب في اعمالكم مع قلّتها وقد كان من قبلكم لايعجبون بأعمالكم مع كثرتها والله ما انتم إلاّ كاللاعبين بالنظر الى عبادة من قبلكم آه. فاعلم ياأخي ذلك وفتش نفسك كل التفتيش فربما تعجب بترك العجب فتكون اسوأ حالاً ممن عجب. وإيّاك ان ترى نفسك على احد من المسلمين والحمدلله رب العالمين آه كلام سيدي عبدالوهاب رضي الله عنه وجزاه الله عن المسلمين خير الجزاء.

ولما كان من لازم المعجب بأعماله ان يتكبَّر على الناس عطف قوله:

« والتكبر » عليه يعني وإيّاك ان تتصف بالتكبر على الناس بان ترى نفسك فوقهم، فإن ذلك موجب للمقت والطرد من حضرة الحق سبحانه، فإنه منازعة في صفة الربوبية قال الله تعالى (سأصرُف عن آياتي الذين يتكبّرون في الأرض بغير الحقّ) وقال الله تعالى (وكذلك يطبعُ اللهُ على كل قلبِ متكبِّرٍ جبّار) وقال تعالى (إستفتَحوا وخابَ كلُّ جبّار عنيد من ورائه جهنَّم ويُسقى من ماء صَديد). وقد ورد كثير من السنّة في ذم الكِبر والتكبُّر، قال ﷺ:"لا يدخل النار احدٌ في قلبه مثقال حبّة من خردل من ايمان، ولايَدخل الجنّة احدٌ في قلبه مثقال حبّة من خردل من الكِبَر" رَواه مسلم. وعن حارثة بن وهب قال: قال رسول الله ﷺ: "ألا اخبركم بأهل الجنة، كل ضعيف متضعف لو اقسم على الله لأبَرَّهُ. ألا اخبركم بأهل النار، كلَّ عُتُلٍّ جواظ زنيم متكبِّر". وعنه قال، قال رسول الله ﷺ: "لا يدخل الجنة مَن كان في قلبه مثقال ذرّة من كِبَر. فقال رجل ان الرجل يحب ان يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً، قال: إن الله جميل يحب الجمال الكِبَر بَطَرُ الحقّ وغمص الناس" رواه مسلم. وعن ابي هريرة قال رسول الله ﷺ:"ثلاثة لايكلمهم الله يوم القيامة ولايزكّيهم- وفي رواية لاينظر إليهم- ولهم عذاب أليم؛ شيخ زانٍ وملك كذاب وعائل مستكبر" رواه مسلم. وعنه قال رسول الله ﷺ:" يقول الله تعالى الكبرياء ردائي والعظمة ازاري فمَن نازعني واحداً منها ادخلته النار"، وفي رواية قذفته في النار رواه مسلم. وعن سلمة بن الأكوع قال قال رسول الله ﷺ: "لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكُتب في الجبّارين فيصيبه ما أصابهم" رواه الترمذي.

وعن عمرو بن شعيب عن ابيه عن جدّه عن رسول الله ﷺ قال: "يُحشر المتكبِّرون امثال الذر يوم القيامة اي صور الرجال يغشاهم الذلّ من كل مكان يُساقون الى سجن

في جهنم يسمى بولس تعلوهم نار الأنيار يُسقون من عصارة أهل النار طينه الخبال" رواه الترمذي. وعن أسماء بنت عميس قالت سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: " بئسَ العبدُ عبدٌ تجبّر واعتدى ونسي الجبّار الاعلى، بئس العبدَ عبدٌ سها ولَهى ونسي المقابر والبَلى، بئس العبد عبدٌ عتى وطغى ونسى المبتدى والمنتهى، بئس العبدٌ يختلّ الدين بالشبهات، بئس العبد عبدٌ طمع يقوده، بئس العبد عبدٌ هوى يضلّه بئس العبد عبدٌ رغب يذله" رواه الترمذي والبيهقي في شعب الإيمان وقالا ليس اسناده بالقوى. وعن عمر رضي اللّه عنه قال وهو على المنبر: يا أيها الناس تواضعوا فإني سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: "مَن تواضع لله رفعه اللّه فهو في نفسه صغير وفي أعين الناس عظيم، ومن تكبّر وضّعهُ اللّه فهو في اعين الناس صغير وفي نفسه كبير حتى لهو اهون عليهم من كلب أو خنزير".

واعلم ان اكبر صفة في النفس تنشأ من رؤية النفس وما يظهر من التكبُّر في الظاهر فهو اثر تلك الصفة، والكِبَر إن كان على اللّه بأن لايذعن لأمره فذلك هو الكفر التام، وان كان على الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام بان لايذعن لبشر مثله فهو أيضاً كفر تام. والثالث ان يتكبّر على الخلق ويدعوهم الى خدمته والتواضع له وذلك أيضاً منازعة اللّه تعالى في كبريائه فإنه لاينبغي لغيره ان يكون مطاعاً البتة. والكبر ان كان بالمال والجاه فعلاجه ان يتفكر في الموت وما يؤول اليه امره وإن المال زائل ويبقي حسابه وتبعاته عليه يوم القيامة، وان كان بالاعمال الصالحة فليتفكر في قبولها فإن الامر مجهول ولعلها معلولة مردودة عليه وهو لايشعر. ولينظر في كلام العارفين في امثال هذا المقام كما قدمناه عن سيدي عبدالوهاب الشعراني وغيره من العارفين، ومهما حدثته نفسه بالخلاص من الكبر فذلك نوع كِبَر أيضاً، فعليه ان يمتحن نفسه بأربعة امور: أولها ان يجرب نفسه بالمناظرة مع خصم حتى يعلم انه هل يغضب بظهور الحق على يد غيره وهل يشتهي الإستعلاء أم لا. الثاني ان يقدم الاقران على نفسه في المحافل. الثالث كأن يحمل حاجته من الطعام وغيره فهو من السُنّة ويتعاطى الأعمال في بيته مع غلامه ويأكل معه فذلك كله من السُنّة ومن جملة ذلك اجابة دعوة الفقير والخروج معهم الى الاسواق وعمل حاجتهم معهم. الرابع ليس الثياب البذلة في الملآة قال رسول الله ﷺ "البذاذة من الايمان"، وقال ﷺ "مَن اعتقل البعير ولبس الصوف

فقد بريء من الكبر"، وقال ﷺ "مَن حمل حاجته الى بيته فقد امِنَ الكِبر".

واعلم ان خير الامور أوسطها، فالتواضع المحمود ان يتواضع للاقران في غير مذلّة، ولما كان الصدق يجر الى اعمال البرّ كلها وكان الكذب والتجبّر يهدي الى الفجور ويجران الى سفاسف الامور، قال رضي اللّه عنه:

وإيّاك والكذب والتجبُّر؛ أي احذر الكذب فإنه من اقبح الخصال لما ورد عن رسول اللّه ﷺ أنه قال: "إذا كذب العبدُ تباعد منه الملك ميلاً من نَتَنِ ما جاء به" رواه الترمذي. وروي أيضاً عن النبي ﷺ قال: "كَبُرَتْ خيانةً ان تُحدِّث اخاك حديثاً هو لك مصدِّق وانت كاذب" رواه ابو داود. وعن عبداللّه بن مسعود رضي اللّه عنه قال قال رسول اللّه ﷺ: "عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي الى البرِّ وان البرِّ يهدي الى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرّى الصدق حتى يُكتب عند اللّه صديقاً وإيّاكم والكذب فإن الكذب يهدي الى الفجور وان الفجور يهدي الى النار وما يزال الرجل يكذب ويتحرّى الكذب حتى يُكتب عند اللّه كذابا" متفق عليه. وفي روايةٍ لمسلم قال "إن الصدق بِرّ وان البرِّ يهدي الى الجنة وان الكذب فجور وان الفجور يهدي الى النار".

وعن بهز بن حكيم عن ابيه عن جده قال قال رسول اللّه ﷺ: "ويلٌ لمن يحدِّث فيكذّب ليضحك به القوم، ويلٌ له ويلٌ له" رواه احمد والترمذي وابو داود والدارمي. وعن ابي امامة قال قال رسول اللّه ﷺ: "يطبع المؤمن على الخلال كلها إلاّ الخيانة والكذب" رواه احمد والبهقي في شعب الإيمان عن سعد بن ابي وقاص. وعن صفوان بن سليم انه قيل لرسول اللّه ﷺ: "أيكون المؤمن جباناً؟ قال: نعم. فقيل له: أيكون المؤمن بخيلاً؟ قال: نعم. قيل أيكون المؤمن كذاباً؟ قال: لا" رواه مالك. وعن عبادة بن الصامت ان النبي ﷺ قال: "اضمنوا لى ستاً من انفسكم اضمن لكم الجنة، اصدقوا إذا حدّثتم اوفوا إذا وعدتم وادُّوا إذا ائتمِنتُم واحفظوا فروجكم وغُضُّوا ابصاركم وكفّوا ايديكم".

واعلم ان الكذب من اعظم آفات اللسان وله آفات كثيرة فإذا حفظ الإنسان لسانه سلم من الآفة التي هي الكذب ومن غيرها، فسلامة الإنسان في حفظ لسانه. قال رسول اللّه ﷺ لمعاذ بن جبل رضي اللّه عنه: "ألا اخبرك بملاك الدين كله؟ قلت: بلى يارسول اللّه. قال: فأخذ بلسانه فقال اَكفف عليكَ هذا قلت: يارسول اللّه وإنا لمؤاخذون بما

نتكلم به؟ فقال ثَكلتكَ اُمُّك يا معاذ وهل يُكبُّ الناس في النار على وجوههم -أو قال على مناخرهم- إلاّ حصائد ألسنتهم". وقال ﷺ: "إن العبد الذي يتكلم بالكلمة ينزل بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب" يعني أبعد قعراً من البعد الذي بين المشرق والمغرب، وفي هذا حَثٌّ على قلة الكلام. قال حكيم: خلق اللّه تعالى اذنين ولساناً واحداً ليكون السماع ضعف الكلام، فعلى السالك التدبُّر والتفكُّر عند التكلم إن ترك ملازمة الصمت. قال بعض الصلحاء لبعض المريدين: اجعل صومك الصمت عن كل شيء سوء واجعل صدقتك كَفُّ الأذى فإنك لاتصوم ولاتتصدق أفضل من ذلك، يعني ان جانب اجتناب المعاصي اولى بالرعاية من جانب اكتساب النوافل. ولذا قيل الحِمية رأس كل دواء. وحكي ان أهل الهند جل معالجتهم المريض الأمر بالإحتماء فيمتنع المريض من الأكل والشرب عدة ايام فيبرأ عن المرض، ثم ان حصل الاجتناب والاكتساب جميعاً فقد كمل الامر وحصل المراد. فليواظب على اجتناب الفضول. وحكي ان واحداً من الصلحاء رأى اخاه في المنام بعد وفاته وقد تغيّر وجهه فسأله عن حاله فقال: اني معاقب بفضول كلامي وقيل ما هذه الصحائف التي امتلأت بفضول كلماتك. وقد احسن مَن قال:

ولو أنا إذا متنا تُركنا ... لكان الموت راحة كلَّ حيٍّ
ولكنّا إذا متنا بُعثنا ... وسُئل بعدَذا عن كلِّ شيءٍ

قال اللّه تعالى (ما يَلفظ مِن قول إلاّ لديه رقيبٌ عتيد) اي ملك يرقب قوله ذلك ويكتبه معيناً لذلك. واذا علمت ما يترتب على الفضول من الكلام فما بالك بالكذب المذموم في سائر الملل والاحكام. فعلى المريد حينئذ معانقة الصدق في سائر اطواره قال اللّه تعالى (يأيُّها الذينَ آمنوا اتَّقوا اللّه وكونوا مع الصادقين). قال بعض العارفين: الصدق عماد الامر وبه تمامه وفيه نظامه، وهو تالي درجة النبوة قال اللّه تعالى (فأولئكَ مع الذينَ انعمَ اللّهُ عليهِم من النبيّن والصديقين). الآية، والصادق الاسم اللازم من الصدق والصديق المبالغة منه وهو كثير الصدق الذي الصدق غالبة كالسكير والخمير وبابه وأقل الصدق استواء السر والعلانية. والصادق في صدق في اقواله والصديق في صدق في جميع أقواله وأفعاله وأحواله وقال احمد بن خضرويه: مَن اراد ان يكون اللّه معه فليلزم الصدق فإن اللّه تعالى قال(ان اللّه مع الصادقين).

وقد إختلفت كلمات القوم في الصادق فقيل القول بالحق في مواطن الهلكة، وقيل ان الصدق موافقة السرّ النطق، وهو عند القوم يُطلق على الاقوال والافعال. فقد كان سهل بن عبدالله يقول: لايَشمُّ رائحة الصدق عبدُ راهن نفسه أو غيره. وقال أبو سعيد القرشي: الصادق الذي يتهيأ له ان يموت ولايستحي من سرّه لو كُشف. قال اللّه تعالى (فتمنَّوا الموتَ إنْ كنتم صادقين). وحكى عن أبي عمر الزجاجي انه قال ماتت أمي فورثت داراً فبعتها بخمسين دينار او خرجت الى الحج فلما بلغت بابل استقبلني واحد من القيافة وقال ايش معك فقلت في نفسي الصدق خير ثم قلت خمسون ديناراً فقال ناولنيها فناولته الصرة فعدها فاذا هي خمسون ديناراً فقال لي خذها فلقد أخذني صدقك ثم نزل من الدابة فقال اركبها فقلت لا أريد فقال لابد وألح على مركبتها فقال وأنا على أثرك فلما كان العام المستقبل لحق بي ولازمني حتى مات.

وكان الجنيد يقول حقيقة الصدق أن تصدق في موطن لاينجيك منه الا الكذب وقيل ثلاث لاتخطئ الصادق الحلاوة والهيبة والملاحة وقيل اوحى اللّه تعالى الى داود عليه الصلاة والسلام يا داود مَن صدقني في سريرته صدقته عند المخلوقين في علانيته. وقال ذو النون الصدق سيف اللّه ما وضع على شيء إلاّ قطعه. وقال سهل بن عبداللّه: اول خيانة الصديقين حديثهم مع انفسهم. وسئل فتح الموصلي عن الصدق فأدخل يده في كير الحداد وأخرج الحديد المحماة وضعها على كفه وقال هذا هو الصدق وقال يوسف بن الاسباط لان ابيت ليلة أعامل الله بالصدق أحب الى من ان أضرب بسيفي في سبيل الله وقيل عليك بالصدق بحيث تخاف ان يضرك فانه ينفعك ودع الكذب حيث ترى انه ينفعك فانه يضرك وقيل علامة الكذاب ظريف جوده باليمين لغير مستحلف. وقال ابن سيرين الكلام اوسع من ان يكذب ظريف وقيل ما أملقَ تاجر صَدوق. والتجبُّر اما بمعنى التعاظم فهو اثر من آثار الكِبَر، لأن مَن قامت به صفة الكبر يتعاظم على الناس، وقد مر قبح ذلك وما ورد في ذمه من الكتاب والسُنّة. واما بمعنى القهر والغلبة وهو بهذا المعنى مندرج تحت انواع الظلم وصاحبه على كلا المعنَيَين ممقوت مذموم، وهو اقبح انواع الظلم بعد الكفر باللّه تعالى. والمعنى احذر من الكذب في الاقوال والتجبُّر في الافعال بأن تفعل فعل الجبّارين، والأقوال بأن تقابل الخَلق بالبذاذة والغلظة والفظاظة، فإن ذلك مخالف لأخلاق الصالحين وافعال الأنبياء والمرسلين صلوات اللّه وسلامه عليهم اجمعين.

واعلم ان الكذب والتجبُّر وغيرهما من الصفات الذميمة انما تنشأ في الغالب من مخالطة قرناء السوء، فإن الطبع يسرق من الطبع والجوار مؤثر يُعدي كما يُعدي الاجرب السليم. فلهذا قال رضي اللّه عنه:

لاتخالط مَن ليس مطلبه كمطلبك؛ بأن كان طالباً للدنيا والحطام الفاني منهمكاً على الإشتغال بها صارفاً عمره في لذائذها. ومطلبك أيُّها المريد حضرة الحقِّ سبحانه وتعالى فهذا صحبته لطالب الحقِّ سمٌّ قاتل وداء مُعضِل.

(ولو كان شريفاً) نسباً وحسباً أو باعتبار منصب الدنيا ومقامه عند أبنائها. فإن مخالطته تضرُّ بالدين وتخفضُ الي أسفل السافلين. قال بِشر بن الحارث: صحبة الأشرار تورث سوء الظنِّ بالأخيار.

واختر لنفسكَ صديقاً من الإخوان؛ ناصحّ لك في سرِّك والإعلان امين مؤتمن غير خَوَّان، يدلُّكَ على اللّه بقاله، ويُنهض همَّتك في اللّه بحاله، إن نسيت ذكَّرك، وان ذكرتَ اعانك. قال بعض العارفين: اصحبوا مع اللّه تعالى فإن لم تطيقوا فأصحبوا مع مَن يصحب مع اللّه لتوصلكم بركات صحبتهم الى صحبة اللّه عزَّوجلّ.

وحاصل ما ذكره الشيخ رضي اللّه عنه في هذه الحكمة؛ أن مداواة امراض القلب واجبة على المريد، وامراضه انما تكون وتنشأ من علّته احكام الطبع عليه من صحبته الاضداد ووقوفه مع المعتاد وانقياده الى هوى النفس وانه بعالم الحس. ومداواة هذا المرض تتأتى من وجوه كثيرة؛ انفعها العزلة عن الناس الذين مطلبهم غير مطلبه، فبالعزلة يتقيد الظاهر عن مخالطة مَن لاتصلح مخالطته وَمن لايُؤمَن من دخول الآفات عليه بصحبته، فيتخلص بذلك المعتزل من المعاصي التي يتعرض لها بالمخالطة مثل الغيبة والمداهنة والكذب لهم والرياء والتصنُّع. ويتحصَّل له بذلك السلامة من مسارقة الطباع الرديئة والاخلاق الدنيئة، ويستفيد أيضاً بذلك صيانة دينه ونفسه عن التعرُّض للخصومات وانواع الشرور والفتن، فإن للنفس تولُّعاً وتسارعاً الى الخوض في امثال هذا. فواجبٌ على المعتزل ان يكفَّ لسانه عن السؤال عن اخبار الناس وماهم مشغولون به ومنهمكون فيه ومكبُّون عليه، ويصون سَمعَهُ عن الاصغاء الى أراجيف البلد وما اشتملت عليه من الاحوال.

وليجتنب المريد كل الاجتناب مَن لايتورَّع في منطقه ولايضبط لسانه عن الاسترسال

في دقائق الغيبة والوقيعة والتعريض بالطعن على الناس والقدح فيهم، فإن ذلك مما يكدِّر صفاء القلب ويؤدي الى ارتكاب مساخط الرب، فليهجره المعتزل وليفرَّ منه فراره من الأسد ولايجتمع معه في مكان البتة. وليتنكَّر الى كل مَن تعرف له ممن هذا شأنه من المنسوبين إلى الدين فضلاً عن غيرهم، كما قال بعضهم انكر مَن تعرف ولاتتعرّف الى مَن لاتعرف * وفي الخبر مثل الجليس السوء كمثل القين ان لم يحرقك بشرره علق بك من ريحه وفي الاخبار السالفة ان الله تعالى اوحى الى موسى عليه السلام يا ابن عمران كن يقظانا وارتد لنفسك اخواناً وكل أخ أو صاحب لايوازرك على مبرتي فهو لك عدو وأوحى الله تعالى الى داود عليه السلام فقال له داود مالي أراك منتبذاً وحدانيا فقال الهي قليت الخلق من أجلك فقال يا داود كن يقظانا وارتد لنفسك اخواناً وكل خدن لايوافقك على مبرتي فلا تصحبه فانه لك عدو ويقسى قلبك ويباعدك مني وما أحسن قول أبي اسحق ابراهيم بن مسعود البيرى في هذا المعنى:

فخف ابناء جنسك واخش منهم   كما تخشى الضراغم والسبتا

وخالطهم وزايلهم حـــــذارا   وكن كالسامري اذا لمستا

* وقد روي عن عيسى عليه السلام انه قال لاتجالسوا الموتى فتموت قلوبكم قيل ومن الموتى قال المحبون للدنيا الراغبون فيها وفي الخبر المروي عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: "**اخوفُ ما اخافُ على أمَّتي ضعف اليقين،وضعف اليقين**" انما يكون من رؤية أهل الغفلة ومخالطة ارباب البطالة والقسوة. قال أبو طالب المكّي: وأضَرُّ ما ابتُليَ به العبد وادخلهُ واعملهُ في هلاكه واشده لحجبه وابعاده ضعف يقينه، وقوة اليقين اصل كل عمل صالح.

وقال بعض هذه الطائفة قلت لبعض الابدال المنقطعين الى الله تعالى كيف الطريق الى التحقيق والوصول الى الحق قال لاتنظر الى الخلق فان النظر اليهم ظلمة قلت لابد لي قال لاتسمع كلامهم فان كلامهم قسوة قلت لابد لي قال فلا تعاملهم فان معاملتهم خسران ووحشة وحسرة قلت انا بيت أظهرهم لابد لي من معاملتهم قال فلا تسكن اليهم فان السكون اليهم هلكة قلت هذه العلة قال يا هذا اتنظر الى اللاعبين وتسمع كلام الجاهلين وتعامل البطالين وتسكن الى الهالكين وتريد ان تجد حلاوة الطاعة وقلبك مع غير الله عز وجل هيهات هذا ما لايكون أبداً فلهذا قال رضي اللّه عنه:

واهجر الخوّانيين؛ الذين لايراعون حق الصحبة ولاينصحون وعن الآخرة غافلون. ولكن

إذا هجرت فاهجر الهجر الجميل؛ وهو الذي لا ايذاء معه كما قال اللّه تعالى (واهجُرهم هَجراً جَميلاً). ولذا قال:

هَجرَ أهل الاحسان. وقيل هو الهجر بالقلب وان خالطهم بحسب ظاهره فهو مجتنب بعيد عنهم بحسب باطنه. ولهذا قيل في وصف العارف: كائن بائن، وهذا كما قيل في الصبر الجميل الذي لا شكوى معه والصفح الجميل الذي لا عتاب معه. ولما كان السفر من جملة ما يقطع المريد في بدايته عن الإتصاف بما تقدم من المقامات السنية والاحوال العلية ويحمله على ارتكاب الرخص والتأويلات إلاّ لغرض شرعي جليل كطلب الشيخ المُسَلِّك وزيارة العارفين باللّه ممن لم يكن في بلده ولايتوصل اليه إلاّ بالسفر، أو بقصد زيارة احدى المساجد الثلاث التي لاتُشد الرحال إلاّ اليها، ولايعول في السفر إلاّ عليها اشار الشيخ رضي اللّه عنه الى الامر بتقليل الاسفار بقوله:

قلل الاسفار؛ جمع سفر وهو عبارة هنا عن السير بحركة الابدان بنقل الاقدام والتنقل في البلدان. وانما سمي سفر لأنه يُسفِرُ عن اخلاق الرجال. وانما امر الشيخ رضي اللّه عنه المريد قبل الكمال بتقليل الاسفار لكون السفر لايخلو من متاعب وكلف ومشوشات وطوارق ونوازل تتجدد ويضعف عن سياستها بالعلم الضعفاء ولايقدر على تسليط العلم على متحددات السفر وطوارقه إلاّ الاقوياء. قال عمر بن الخطاب للذي زكي عنده رجلاً: هل صحبته في السفر؟ - الذي يستدل به على مكارم الاخلاق - قال: لا. قال: ما اراك تعرفه.

وكلام الشيخ رضي اللّه عنه محمول على من يَسَّرَ اللّه تعالى له في بداية امره صحبة صحيحة وقيض له شيخاً عالماً يسلك به الطريق ويدرجه الى منازل التحقيق، فهذا ينبغي له ان يلزم مواضع ارادته ويلتزم صحبة من يرده من عادته، فمن رزق كذلك يحرم عليه السفر فهذه الصحبة خير له من سفر وفضيلة يقصدها. ثم إذا احكم امره في البداية بلزوم الصحبة وحسن الاقتداء، وارتوى من الاحوال وبلغ مبلغ الرجال وانبجس من قلبه عيون ماء الحياة، وصارت نفسه مكتسبة للسعادات يستنشق نفس الرحمن من صدور الصادقين من الاخوان في اقطار الارض وشاسع البلدان يشرئب الى التلاق وينبعث الى التطواف في الآفاق، فكذلك يُحمد له السير وتتفجر منه على الخلائق فيوضات البرِّ والخير، فينبغي له السير في البلاد لفائدة العباد وليبذر في اراضي

القلوب بذر الفلاح، ويكثر ببركته ونفسه وصحبته أهل الصلاح، وهذا مثل هذه الامة الهادية في الانجيل كزرع اخرج شطأه فآزره فاستغلط فاستوى على سوقه ليعود بركة البعض على البعض، وتسري الاحوال من البعض الى البعض، ويكون طريق الوراثة معموراً وعلم الافادة منشوراً، فإن رسول اللّه ﷺ قال: "**مَن دَعى الى هدى كان له من الاجر مثل اجور مَن اتبعه لايُنقص ذلك من اجورهم شيئاً، ومن دعى الى ضلالة كان عليه من الاثم مثل آثام مَن اتبعه لايُنقص ذلك من آثامهم شيئاً**".

هذا وقد اختلف احوال المشايخ الصوفية في السفر، فمنهم من سافر في بدايته واقام في نهايته، ومنهم مَن اقام في بدايته وسافر في نهايته وهو الذي إختاره الشيخ هنا، ومنهم مَن أقام ولم يسافر، ومنهم مَن إستدام السفر ولم يؤثر الإقامة والأمور بمقاصدها. وقوله:

ولو بالفكر والخيال؛ إشارة الى الإعراض عن تعلّق القلب به والتفكُّر فيه، فإن ذلك مما يشوِّش على المريد حاله،

لأنها - أي الأسفار - **تقطع السالكين عن الوصال الى المطلوب الأعظم وتمنع من دوام السلوك الى ملك الملوك**، وهذا كله قبل الكمال والوصول الى حضرة القريب المتعال،

«**ومتى وصلت**» الى المطلوب وحصلت على المرغوب

«**لاتعتزل الاسفار**» أي لاتتركها لما فيها بعد الكمال من زيادة الفوائد، والاقبال منها زيادة اكتساب المعارف والعلوم قال اللّه تعالى لنبيه ﷺ (**وقل رَبِّ زدني علماً**)، وقال ﷺ: "اطلبوا العلم ولو بالصين". وقال بعضهم: لو سافر رجل من الشام الى اقصى اليمن في كلمة تدلُّهُ على هدى ما كان سفره ضائعاً. ونقل ان جابر بن عبداللّه رحل من المدينة الى مصر في شهر لحديث بلغه ان عبداللّه ابن انيس يحدث به عن رسول اللّه ﷺ وقد قال عليه الصلاة والسلام: "**مَن خرج من بيته في طلب العلم فهو في سبيل اللّه حتى يرجع**".

وقيل في قوله تعالى (السائحون) إنهم طلاب العلم. وعنه ﷺ يقول: "**إنَّ اللّه عزَّ وجلّ أوحى إليَ أنه مَن سلك مسلكاً في طلب العلم سهَّلتُ له طريقاً الى الجنة**". ومن جملة مقاصد السفر لقاء العارفين والاخوان الصادقين. فللمريد بلقاء كل صادق مريد،

وقد ينفع اللحظ اكثر من نفع اللفظ. ولهذا قيل مَن لاينفعك لحَظُهُ لاينفعك لفظُهُ. وهذا القول فيه وجهان: أحدهما؛ إن الرجل الصديق يكلم الصادقين بلسان فعله اكثر مما يكلمهم بلسان قوله، فإذا نظر الصادق الى تصاريفه في مورده ومصدره وخلوته وجلوته وكلامه وسكوته ينتفع بالنظر اليه فهو نفع اللحظ. ومَن لايكون افعاله هكذا فلفظه أيضاً لاينفع لأنه يتكلم بهواه. ونورانية القول على قدر نورانية القلب، ونورانية القلب بحسب الاستقامة والقيام بواجب حق العبودية وحقيقتها. والوجه الثاني؛ إن نظر العلماء الراسخين في العلم والرجال البالغين ترياق نافع ينظر احدهم الى الرجل الصادق فيستنشق بنفوذ بصيرته حسن استعداد الصادق واستئهاله لمواهب اللّه الخاصة، فيقع في قلبه محبة الصادق المريد وينظر اليه نظر محبة عن بصيرة، وهم من جنود اللّه تعالى فيكسبون بنظرهم احوالاً سنية ويهبون آثاراً مرضية. وماذا يُنكِر المُنكِر من قدرة اللّه تعالى ان اللّه كما جعل في بعض الافاعي من الخاصية انه إذا نظَر الى الإنسان يهلكه، ينظر بأن يجعل في نظر بعض خواص عباده انه إذا نظر الى طالب صادق يكسبه حالاً وحياة، كذا في عوارف المعارف للسهرَوَردي. وحكي عن شيخه انه كان يطوف في مسجد الخيف بمِنى ويتصفّح وجوه الناس، فقيل له في ذلك، فقال: لله عباداً إذا نظروا الى الشخص أكسبوه سعادة فإنا لنطلب ذلك.

ومن جملة فوائد السفر قطع المألوفات والانسلاخ من ركون النفس الى معلوم ومعهود والتحامل على النفس بتجرُّع مرارة الألاف والخِلاّن والأهل والاوطان، فمن صبر عن تلك المألوفات محتسباً عنداللّه اجراً فقد حاز فضلاً عظيماً. ومن جملة الفوائد أيضاً في السفر استكشاف دفائن النفوس واستخراج رعوناتها ودعاويها لأنها لاتكاد يتبين حقائق ذلك بغير السفر، ولذلك سمي سفراً لأنه يسفر عن الاخلاق فإذا وقف على دائه يتشمَّر لدوائه. ومنها أيضاً رؤية الآثار والعبر، وتسرُّح النظر في مسارح الفكر، ومطالعة اجزاء الارض والجبال ومواطئ اقدام الرجال، واستماع التسبيح من ذرات الجمادات والفهم من لسان حال القطع المتجاورات، فقد تتجدد اليقظة بتجدد مستودع العبر والآيات، ويتوفر بمطالعة المشاهدة والمواقف الشواهد والدلالات قال تعالى (سنُريهم آياتِنا في الآفاقِ وفي انفسهم حتى يتبيّنَ لهم أنه الحقُّ). وقد كان السري يقول للصوفية: إذا خرج قد خرج أدار واورقت الاشجار وطاب الانتشار.

ومن جملة المقاصد في السفر ايثار الخمول وطرح حظ القبول. فصدق الصادق يتم على حسن الحال ويَرزق صاحبه حُسن الخُلق وحُسن الاقبال، وقَلَّ ما يكون صادق متمسك بعروة الإخلاص ذو قلب عامر إلاّ ويُرزق قبول الخلق حتى قال بعض المشايخ يحكى عن بعضهم انه قال: اريد اقبال الخلق عليَّ لا اني ابلغ نفسي حظها من الهوى فإني لا ابالي أقبلوا أم َادبروا. ولكن لكون قبول الخلق علامة تدل على صحة الحال، فإذا ابتُليَ المريد بذلك لايأمن نفسه ان تدخل عليه بطريق الركون الى الخلق، وربما يفتح عليه باب من الرفق وتدخل النفس عليه من طريق البرِّ والدخول في الاسباب المحمودة وتريه وجه المصحلة والفضيلة في خدمة عبادا اللّه وبذل الموجود، ولاتزال النفس به والشيطان حتى يجرانه الى السكون الى الاسباب واستحلاء قبول الخلق، وربما قوما عليه فجرّاه الى التصنُّع والتعمُّل ويتسع الخرق على الراقع. قال العارف باللّه الامام السَهرَوَردي في (عوارف المعارف): سمعت ان بعض الصالحين قال لمريد له انت الآن وصلت الى مقام لايدخل عليك الشيطان من طريق الشر ولكن يدخل عليك من طريق الخير وهذا مَذلّة عظيمة للاقدام، فاللّهُ تعالى يدرك الصادق إذا ابتليَ بشيء من ذلك ويزعجه بالعناية السابقة والمعونة اللاحقة الى السفر، فيفارق المعارف والموضع الذي فتح اللّه عليه هذا الباب فيه، ويتجرّد لله تعالى بالخروج الى السفر. وهذا الخلاف في السفر فيما عدا الحج والغزو وزيارة بيت المقدس، فإن ذلك مطلوب مطلقاً سواء في ذلك البداية والنهاية.

ولما كان السفر محلا لتجلّي صور الاكوان عليه ومَطلعاً لشموس المستحسنات لديه، فربما نظر العارف أو المريد الى شيء من ذلك فاستحسنه وتشوَّفت نفسه اليه، فيقف عنده عن السير ويكون محجوباً بالغير. فلذلك نَبَّهَ الشيخ رضي اللّه عنه على ذلك بقوله:

لا تحجب بالأكوان عن المكوَّن ولو كانت كعبة الأكوان؛ بمعنى مكوِّن اي موجود مخلوق - إذ التكوين معناه الخَلق - فهي عبارة عما سوى اللّه تعالى من أعيان الموجودات وأعراضها.

واعلم ان السائر الى اللّه تعالى يتجلّى له في اثناء سلوكه انوار وتبدو له اسرار، فإذا ارادت همَّته ان تقف عندما كشف لها من ذلك لاعتقاده انه وصل الى الغاية القصوى

والنهاية من المعرفة، نادته هواتف الحقيقة المطلوبة التي تَطلُبْ امامك فجدّ في السير ولاتقف. وان تبرجت له ظواهر المكونات بزينتها فمالت الى حسنها وجمالها فهو مفتون بها، وتناديه الحقائق الباطنة انما نحن فتنة فلا تكفر وغمِّض عينيك عن ذلك ولاتلتفت اليه ودُمْ على سلوكك وسيرك. واعلم انما دامت لك همّة وارادة فأنت بعد في الطريق لم تصل ولو قد فنيت عنها وما أحسن قول الشيخ أبو الحسن القشيري في هذا المعنى:

فلا تلتفت في السير غيرا وكل ما — سوى الله غير واتخذ ذكره حصنا
وكل مقام لاتقم فيه انـــــــه — حجاب فجد السير واستنجد العونا
ومهما ترى كل المراتب تجتلـــى — عليك فحل عنها فعن غيرها حلنا
وقل ليس لي في غير ذاتك مطلب — فلا صورة تجلى ولا طرفة تجنـــا

قال العارف باللّه سيدي ابن عطاء اللّه الاسكندراني في حكمه: ما ارادت همة سالك ان تقف عندما كشف لها إلاّ ونادته هواتف الحقيقة التي تطلب امامك ولاتبرّحت ظواهر المكونات إلاّ نادتك حقائقها انما نحن فتنة فلا تكفر. ويحتمل ان يكون مراد الشيخ رضي اللّه عنه بقوله «لا تحجب بالاكوان عن المكوَّن» أن العارف لاينبغي له ان ينظر الى شيء من الموجودات حتى ينظر اللّه تعالى فيها، فإذا نظر الى الحق سبحانه في الاشياء كانت الاشياء نوراً له وسبباً لترقِّيه، فإن الاشياء بالنظر الى ذاتها عَدَمْ وظلمة. وباعتبار تجلّي الحقّ عليها موجودة نَيِّرة قال العارف باللّه سيدي ابن عطاء اللّه في حكمه: الكون كله ظلمة وإنما اناره ظهور الحقّ فيه، فمَن رأى الكون ولم يشهده فيه أو عنده أو قبله أو بعده فقد اعوزه وجود الانوار وحُجبت عنه شموس المعارف بسحب الآثار. قال شارحها ابن عباد: العَدَمْ ظلمة والوجود نور فالكون بالنظر الى ذاته عَدَمٌ مظلم، وباعتبار تجلّي أنوار الحقّ عليه وظهوره فيه وجود مستنير. ثم اختلفت احوال الناس ههنا فمنهم مَن لايشاهد إلاّ الاكوان وحُجب بذلك عن رؤية المكوَّن، فهذا تائه في الظلمات محجوب بسحب الآثار الكائنات، ومنهم مَن لم يُحجب بالاكوان عن المكوَّن، ثم هم في مشاهدتهم إيّاه فِرَق: فمنهم مَن شاهد المكوَّن قبل الاكوان وهؤلاء الذين يستدلون بالآثار على المؤثر، ومنهم مَن شاهده مع الاكوان اي فيها أو عندها. وهذه الظروف المذكورة ليست بزمانية ولا بمكانية، لأن الزمان والمكان من جملة الاكوان والاتصال والانفصال المذكوران ليسا على ما يُفهم من معانيهما، فإنهما أيضاً من جملة

الاكوان. ومعرفة تفصيل هذه الامور والتفرقة بين هذه الحقائق على ماهي عليه موكول الى اربابه، فلنقتصر على ما ذكرناه فهنا زَلَّت اقدام كثير من الناس، فتكلموا بكلمات موهمة وعبَّروا بعبارات مُنكَرة في الشرع فكفروا بذلك وبَدَعوا، فاعتقد كمال التنزيه وبطلان التشبيه وتمسَّكْ بقوله تعالى (ليس كمثله شيء وهو السَّميع البَصير) ويؤيد هذا المعنى الثاني قوله:

عليك بمراقبة المولى؛ يعني بان ترى الحق سبحانه وتعالى في الاكوان فلا ترى شيئاً مع الغفلة عن اللّه تعالى، فترى اللّه في الاشياء قبل رؤيتها أو معها أو بعدها. فمراقبتنا للاشياء هي عين مراقبتنا إيّاه، لأنه الظاهر في كل شيء. ولذا قال بعضهم: ما رأيت شيئاً إلاّ رأيت اللّه، وقال آخر بعده، وآخر فيه. فمثل هؤلاء يصححون المراقبة. وهذا معنى قول بعضهم في تعريف المراقبة: هي رؤية اللطيف في الكثيف. وتطلق المراقبة بمعنى آخر وهو مراقبة الحياء اخذاً من قوله تعالى بان اللّه يرى بأن يراقب رؤيته وهو يراقبه، فهو يراقب مراقبة الحق إيّاه. فهذه مراقبة المراقبة وهي مشروعة. وتُطلق المراقبة بمعنى ثالث وهو ان يراقب قلبه ونفسه الظاهرة والباطنة ليرى آثار ربّه فيه وكذلك الموجودات الخارجة عنه يراقبها ليرى آثار ربه فيها قال تعالى (سنُريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم). ولهذه المراقبة تعلق بالحق اذ لا فاعل إلاّ هو، والمراقبة دوام المراعاة بحيث لايتملكه وقت لايكون العبد فيه مراقباً.

فاعلم ذلك وتحققه تعلم شؤون ربك في نفسك وفيما يدركه بصرك من الموجودات وما يصل اليه فكرك وعقلك وما يشهدك في شاهدك وما يطلع من الغيوب في كونك اوحيث كان ومن هنا تعرف خواطرك. وللمراقبة جاءت الموازين الشرعية وهي الفرض والندب والاباحة والحظر والكراهة، ولها درجات عند ارباب الانس والوصال من العارفين. والظاهر من كلام الشيخ رضي اللّه عنه ان المراد من المراقبة هنا هو ما ذكرناه من رؤية اللّه تعالى وملاحظته في مخلوقاته. ولذلك قال بعض العارفين لو كلفت ان ارى غيره لم استطع، فإنه لا غير معه حتى اشهده معه، وقال الشاعر:

مُذْ عرفتُ الإله لم أرَ غيراً — وكذا الغيرُ عندنا ممنوعُ
مُذْ تجمعت ما خشيتُ افتراقاً — فأنا اليوم واصلٌ مجموعُ

وقال آخر:

اللّه قُلْ وذَرِ الوجود وما حَوى إن كنت مرتاداً بلوغ كمال
فالكلُّ دونَ اللّه إن حققته عَدَمٌ على التفصيل والإجمال
واعلم بأنك والعوالُم كلُّها لولاه في محو وفي اضمحلال
مَن لا وجود لذاته في ذاته فوجوده لولاهُ عينُ محال
فالعارفون فنوا ولَمّا يشهدوا شيئاً سوى المتكبِّر المتعال
ورأوا سواه على الحقيقة هالكاً في الحال والماضي والاستقبال

وقد صنّفوا في بيان هذا الامر تصانيف وتفنّنوا في الكلام في هذا المعنى نظماً ونثراً وكلٌّ عبَّرَ على حسب مشربه وذوقه جزاهم اللّه عنا خيراً. ولما كان هذا المقام عزيزاً جداً قال رضي اللّه عنه:

ولو كانت صعبة؛ لأن الحجب كثيرة والدواعي الى الغفلة اكثر، ولايتأتى لهم المراقبة إلاّ إذا فنوا عن الحظوظ البشرية والشهوات الدنيوية والدرجات الآخروية والمقامات العلية، فيكون حينئذ خالصاً لله باللّه مع اللّه وهذا كالكبريت الاحمر سيما في هذا الزمان الذي امتلأ ظلماً وظلاماً. ولما كان هذا المقام مَزَلَّةَ اقدامِ كثيرٍ من الانام - لأن مَن لم يذق ذلك بالذوق ولم يشرب بكأسهم المصون عن غير أهل الحقيقة والشوق - يفهم من هذا الكلام شائبة حلول أو إتحاد وتعالى اللّه وتنزّه عن ذلك المراد. اشار السيخ رضي اللّه عنه بعد ذلك الى شيء من التنزيه للحقّ سبحانه بقوله:

نَزِّهْ مولاك عن الحدوث والمكان؛ بأن تعتقد انه سبحانه وتعالى متصف بالصفات السلبية وهي القدم والبَقاء والقيام بالنفس والمخالفة للحوادث والوحدانية. وكل ما اوهم الحدوث والمكان فاللّه تعالى منزّهٌ عنه، واكبر دليل على ذلك قوله تعالى:

ليسَ كمِثلهِ شيء؛ أي ليس مثله سبحانه وتعالى شيء يشابهه لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله.

« يكفيك » على تنزيهه سبحانه وتعالى عن الحدوث والمكان وما هو في صفات الحدوث والامكان هذه الآية الشريفة من القرآن، فإنها جامعة لمعاني التنزيه.

قال العارف باللّه تعالى سيدي عبدالوهاب الشعراني قدس اللّه روحه في كتابه (اليواقيت والجواهر): المبحث السابع في وجوب اعتقاد ان الحقّ تعالى لايحويه مكان

كما لايحدُّهُ زمان لعدم دخوله في حكم خلقه، فإن المكان يحويهم والزمان يحدّهم وهو سبحانه مُباينٌ لخَلقهِ في سائر المراتب، فإنه كان ولا مكان ولا زمان وذاته تعالى لاتقبل الزيادة ولا النقصان. وهو الذي انشأ الزمان وخلق المتمكن والمكان، فلا أينيّةٍ له تعالى. فإن قُلتَ فما المراد بقوله تعالى (وهوَ معكم أينَما كُنتم) فإنه يوهم الأينيّة عند ضعفاء العقول؟ فالجواب كما قال سيدي محمد المغربي الشاذلي: إنه لا ايهام لأن الأينيّة في هذه الآية راجعة الى الخَلق لأنهم هم اُلمخاطَبون في الأين اللازم لهم لا له تعالى، فهو مع كل صاحب أينْ بلا أينْ لعدم مماثلته لخَلقهِ في وجه من الوجوه آه. وسياتي بسط ذلك في المبحث بعد ان شاء اللّه تعالى.

وقال الشيخ محي الدين في باب اثنين وسبعين من الفتوحات: ليس الحقُّ تعالى لنا بأين لأن من لا أينيّةَ له لايقبل المكان، قال وذلك نظير قولهم المكان لايقبل المكان، فإذا كان لا أينَ لمن له أين فكيف يكون الأين لَمِن لا أينَ له يعقل آه. وقال أيضاً في باب ثمانية واربعين منها: إنما اَمَرَ اللّه سبحانه وتعالى بالسجود وجعله مقام قُربه (واسجُدْ واقتربْ) ولقوله ﷺ: "اقربُ ما يكون العبدُ من ربّه وهو ساجد" اعلاماً لنا بأنه تعالى في نسبة الفوقية إليه كنسبة التحتية إليه، فالساجد يطلب الأسفل بوجهه كما أن القائم يطلب الفوق بوجهه ويرفع يديه الى السماء في حال الدعاء فلا يكاد القائم يطلب من الله شيئاً قط من جهة السفل، فما جعل اللّه السجود حال قربه اقرب وقرب من الحقّ إلاّ لينبِّه عباده على انه لايقيده تعالى الفوق عن التحت ولا التحت عن الفوق لتنزُّههِ عن صفات خلقه آه. وسيأتي بسط ذلك في المبحث بعده ان شاء اللّه تعالى.

وقال في المبحث الثامن: فإن قلُتَ فهل هو تعالى معنا في جميع المواطن بالذات ام بالصفات كالعلم بنا والرؤية لنا والسماع لكلامنا،

فالجواب كما قاله الشيخ العارف باللّه تقي الدين بن ابي منصور في رسالته: انه لايجوز ان يطلق على الذات المتعالي مَعية، كما انه لايجوز ان يطلق عليها إستواء على العرش، وذلك لأنه لم يَرد لنا تصريح بذلك في كتاب ولا سُنّة، فلا نقول على اللّه تعالى ما لم نعلم. وقال الشيخ محي الدين في باب حضرات الاسماء من الفتوحات في الكلام على اسمه (الرقيب): اعلم انه ليس في حضرات الاسماء الإلهية ما يعطي التنبيه على ان الحقّ معنا بذاته إلاّ اسمه الرقيب، لأنه نبّه على ان الذات لاتنفكُّ عن

الصفات لمن تأمَّل. ويؤيد ذلك قول الاعرابي للنبي ﷺ: لا نَعدمُ خيراً من ربٍّ يضحك، فإنه اتبع الضحك توابعه آه. قلت: وهذه المسألة من المعضلات لإختلاف السلف فيها قديماً وحديثاً، ولكن مَن يقول ان المعيّة راجعة للصفات لا اللذات اكمل في الادب ممن يقول انه تعالى معنا بذاته وصفاته وان كانت الصفة الإلهية لاتفارق الموصوف؟ وقد وقع في هذه المسألة عقد مجلس في جامع الأزهر في سنة خمس وتسعمائة بين الشيخ نورالدين العلائي الحنفي وبين الشيخ ابراهيم المواهبي الشاذلي، وصنّف الشيخ ابراهيم فيها رسالة وأنا اذكر لك عيونها لتحيط بها علماً.

فأقول وباللّه التوفيق ومن خطه نقلت: قال الشيخ نورالدين العلائي الحنفي والشيخ زكريا والشيخ برهان الدين ابن ابي شريف وجماعة؛ إن اللّه تعالى وتبارك معنا بذاته وصفاته، فقالوا له ما الدليل على ذلك؟ فقال: قوله تعالى (واللّه معكم) وقوله تعالى (وهو معكم) ومعلوم ان اللّه تعالى علم على الذات فيجب اعتقاد المعية الذاتية ذوقاً وعقلاً لثبوتها نقلاً وعقلاً. فقالوا له: اوضح لنا. فقال: حقيقة المعيّة مُصاحبة شيء لآخر سواء كانا واجبين -كذات اللّه تعالى مع صفاته، أو جائزين كالإنسان مع مثله، أو واجباً وجائزاً وهو كمعية اللّه تعالى عزَّ وجلّ لخَلقه بذاته وصفاته المفهومة من قوله تعالى (واللّه معكم) ومن نحو (إن اللّه مع المحسنين)و (إنّ اللّه مع الصابرين)) وذلك لما قدّمناه م أن مدلول الإسم الكريم اللّه إنما هو اللازمة لها الصفات المتعينة لتعلّقها بجميع الممكنات، وليست لمعيته متحيزين لعدم مماثلته تعالى لخلقة الموصوفين بالجسمية المفتقرة للوازمها الضرورية كالحلول في الجهة الأينيّة الزمانية والمكانية، فتعالت معيّته تعالى عن التبعيّة والنظير لكماله تعالى وارتفاعه عن صفات خَلقه (ليس كمثله شيء). وهو على القول بمعيّة الذات مع انه يلزم من معيّة الصفات دون الذات إنفكاك الصفات عن الذات وبُعدُها وتحيّزُها وسائر لوازمها، وحينئذ فيلزم من معيّة الصفات لشيء معيّة الذات له وعكسه، لتلازمَهُما مع تعاليهما عن المكان ولوازم الإمكان لأنه تعالى مُباين لصفات خَلقه تبايناً مطلقاً. وقد قال العلامة القونوي في شرح عقائد النسفي: إن قول المعتزلة وجمهور النجارية أن الحق تعالى بكل مكان بعلمه وقدرته وتدبيره دون ذاته باطل، لأنه لايلزم مَن علم مكاناً ان يكون في ذلك المكان بالعلم فقط إلاّ إن كانت صفاته تنفك عن ذاته كما هو صفة علم الخَلق لا علم الحقّ آه. على انه يلزم

من القول بان اللّه معنا بالعلم فقط دون الذات واستقلال الصفات بأنفسها دون الذات وذلك غير معقول. فقالوا له: فهل وافقك احد غير القونوي في ذلك؟ فقال: نعم ذكر الشيخ شيخ الاسلام ابن اللبّان رحمه اللّه تعالى في قوله تعالى (**ونحن اقربُ إليه منكُم ولكن لاتُبصِرون**) إن هذه الآية دليل على ان أقربيّتُهُ تعالى من عبده قربُ حقيقة كما يليق بذاته لتعاليه عن المكان، إذ لو كان المراد بقربه تعالى من عبده قربه بالعلم أو بالقدرة أو بالتدبير مثلاً لقال ولكن لاتعلمون ونحوه، فلما قال (ولكن لاتبصرون) دلَّ على ان المراد منه القرب الحقيقي المدرك بالبصر لو كشف اللّه عن بصرنا فإن من المعلوم ان البصر لاتعلق لإدراكه بالصفات المعنوية وإنما يتعلق بالحقائق المرئية. قال: وكذلك القول في قوله تعالى(**ونحنُ اقربُ إليه من حبلِ الوريد**) هو يدلُّ أيضاً على ما قلناه، لأن اَفعَلْ مما يدلُّ على الاشتراك في اسم القرب وإن اختلف الكَيف ولا اشتراك بين قرب الصفات وقرب حبل الوريد، لأن قرب الصفات معنوي وقرب حبل الوريد حسّي ففي نسبة اقربيّته تعالى الى الإنسان من حبل الوريد - الذي هو حقيقي - دليل على أن قربه تعالى حقيقي -أي بالذات اللازم لها الصفات ، قال الشيخ ابراهيم: وبما قررناه لكم انتفى ان يكون المراد قربه تعالى منا بصفاته دون ذاته وان الحق الصريح هو قربه منا بالذات أيضاً إذ الصفات لاتعقل مجردة عن الذات المتعالي كما مرّ. فقال له العلائي: فما قولكم في قوله تعالى (**هو معكم أينما كنتُم**) فإنه يوهم ان اللّه تعالى في مكان؟ فقال الشيخ ابراهيم: لايلزم من ذلك في حقه تعالى المكان لأن الأين في الآية انما اطلقت لإفادة معيّة اللّه تعالى للمخاطَبين في الأين اللازم لهم، لأنه تعالى كما قدمنا فهو مع صاحب كل أين بلا أين آه. فدخل عليهم الشيخ العارف باللّه تعالى سيدي محمد المغربي الشاذلي شيخ الجلال السيوطي فقال: ما جمعكُم هنا ؟ فذكروا له المسئلة، فقال: تريدون علم هذا الامر ذوقاً أو سماعاً؟ فقالوا: سماعاً. فقال: معيّته تعالى أزلية ليس لها ابتداء وكانت الاشياء كلها ثابتة في علمه ازلاً يقيناً بلا بداية، لأنها متعلقة به تعليقاً يستحيل عليه العدم لإستحالة وجود علمه الواجب وجوده بغير معلوم واستحالة طريان تعلّقه بها لما يلزم عليه من حدوث علمه تعالى بعد ان لم يكن، وكما ان معيّته تعالى ازليه كذلك هي أبدية ليس لها انتهاء، فهو تعالى معها بعد حدوثها من العدم عيناً على وفق ما في العلم يقيناً، وهكذا يكون الحال اينما كانت في

عـوالم بسـاطتهـا وتركـيـبهـا واضـافتـهـا وتجريدها مـن الازل الى ما لانهـاية له. فـإندهش الحاضـرون بما قـاله لهم فقـال لهم: اعتـقدوا ما قـررته لكم في المعيّة واعـتمدوه ودعـوا ما ينافيـه تكونوا منزّهين لمولاكم حق التنزيه ومـخلصين لعقولكم مـن شبهـات التشبـيه، وإن اراد احدكم ان يعرف هذه المسئلة ذوقاً فليسلم قياده لي اخرجه عن وظائفه وثيابه وماله واولاده وادخله الخلوة وأمنعه النوم وأكل الشـهـوات وأنا اضمـن له وصـوله الى علم هذه المسئلة ذوقاً وكشفاً. قال الشيخ ابراهيم: فـما تجرأ احد ان يدخل معه في هذا العهد، ثم قـام الشـيـخ برهان الديـن والجـمـاعـة فـقـبّلوا يده وانصـرفـوا آه. فـتـأمل أيُّهـا الاخ في هذا الموضع وتدبره فـإنك لاتجـده في كـتـاب آه كـلام الشـيـخ عبدالوهاب الشـعـراني رضي اللّه عنه في اليواقيت والجواهر.

واعلم ان هـذه المعـارف انما هي عـلوم ذوقـيـة والطريـق في تحـصليـهـا كـذلـك وإتقـا ء الشبهات وفطم النفس عن الشهـوات ثم يلازم الذكر الذي لقنه له استاذه المسلك العارف باللّه تعالى. ولما كـان الذِكر هو العُـمدة في تمزيق الحُجُب الظلمـانية وافاضـة الانوار اشار الشيـخ رضي اللّه عنه الى ذلك بقوله:

الذِكر مع الحضور والتفـكُّر في صفـات اللّه يورثانك المشاهدة في ذات اللّه؛ اعلم ان الذِكر هو منزلة الـقـوم الكبـرى التي منهـا يتـزودون وفـيـهـا يـتـجـردون وإليـهـا دائمـاً يتـرددون. والذِكـر منشـور الـولاية الذي مَن اعطيـه اتصل ومن مُنعَـهُ انعـزل، وهو قـوت قلوب القـوم التي متى فارقـها صارت الاجساد لها قبوراً، وعمارة ديارهم فـمتى تعطلت عنه صارت بوراً، وهو سـلاحـهـم الذي يقـاتلون بـه قطاع الطريـق ومـاؤهم الذي يطفـؤن به التـهـاب الحـريق، ودوا ء اسقـامـهـم الذي مـتى فـارقـهـم انتكست منهم القلوب والسـبب الواصل والعلاقة التي بينهم وبين علاّم الغيوب:

اذا مـرضنا تداوينا بذِكـركُــم ونـتـرك الـذِكـر احـيـانـاً فننتكس

به يستدفعون الآفات ويستكفون الكُربات ويهون عليهم به المغيبات، إذا اظلهم البلاء فـإليـه ملجَؤهم، واذا نزلت بهم النوازل فـإليـه مَـفزعـهـم، فهـو رياض جنّـتـهم التـي فـيـهـا يتـقلبـون ورؤس اموال سـعـادتـهم التي بهـا يـتـجـرون، يَدَعُ القلب الحـزين ضـاحـكاً مسـروراً ويوصـل الذاكـر الى المذكـور، بـل يعـيـد الذاكـر مـذكـوراً وعلى كـل جـارحـة من الجـوارح عـبودية مؤقتـة. والذِكر عـبودية القلب واللسان وهي غـيـر مؤقـتـة بل هم مـأمورون بذِكـر

معبودهم ومحبوبهم في كل حال قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم. فكما ان الجنة قيعان وهو غراسها، فكذلك القلوب بور خراب وهو عمارتها واساسها، وهو جلاء القلوب وصقالها ودواؤها إذا غشيها اعتلالها. وكلما ازداد الذاكِر في ذِكره استغراقا ازداد المذكور محبة وإلى لقائه اشتياقاً. واذا واطأ في ذِكره قلبه للسانه نسى في جنب ذكره كل شيء وحفظ اللّه عليه كل شيء وكان له عوضاً من كل شيء، به يزول الوقر عن الاسماع والبُكم عن الألسن وتنقشع الظلمة عن الابصار، زين اللّه به ألسنة الذاكِرين كما زيّن بالنور ابصار الناظرين. فاللسان الغافل كالعين العمياء والاذن الصماء واليد الشَلاّء. وهو باب اللّه الأعظم المفتوح بينه وبين عبده مالم يغلقه العبد بغفلته. قال الحسن البصري رضي اللّه عنه: تفقَّدوا الحلاوة في ثلاثة اشياء؛ في الصلاة والذِكر وقراءة القرآن، فإن وجدتم وإلاّ فاعلموا ان الباب مغلق.

وبالذِكر يصرع العبد الشيطان كما يصرع الشيطان أهل الغفلة والنسيان. قال بعض السلف إذا تمكن الذِكر من القلب فإن دنا منه الشيطان صُرع كما يُصرع الإنسان إذا دنا منه الشيطان، فتجتمع عليه الشياطين فيقولون ما لهذا فيُقال قد مسه الإنسي. وهو روح الأعمال الصالحة فإذا خليَ العمل عن الذِكر كان كالجسد الذي لا روح فيه وهو في القرآن على عشرة أوجه.

الاول؛ الامر به مطلقاً ومقيداً. الثاني؛ النهي عن ضده من الغفلة والنسيان. الثالث؛ تعليق الفلاح باستدامته وكثرته. الرابع؛ الثناء عن أهله والاخبار بما أُعد لهم من الجنة والمغفرة. الخامس؛ الاخبار عن خسران مَن لهي عنه بغيره. السادس؛ انه جعل سبحانه ذِكرهم لهم جزاء لذِكرهم له. السابع؛ الاخبار انه اكبر من كل شيء. الثامن؛ انه جعله خاتمة الأعمال الصالحة وروحها فمتى عدمته كانت الجسد بلا روح. التاسع؛ الاخبار عن أهله بانهم هم أهل الانتفاع بآياته وانهم اولوا الالباب دون غيرهم. العاشر؛ انه جعل قرين جميع الأعمال الصالحة وروحها فمتى عدمته كانت كالجسد بلا روح.

اما الاول؛ فقوله تعالى (يأأيُّها الذين آمنوا اذكروا اللّه ذِكرا كثيراً وسبِّحوه بكرةً واصيلاً) و(هو الذي يصلّي عليكم وملائكتُه ليخرجكم من الظلمات الى النور وكان بالمؤمنين رحيماً) و(واذكر ربَّكَ في نفسك تضرُّعاً وخيفة) وفيه قولان احدهما في سرِّكَ وقلبك، والثاني بلسانكَ بحيث تُسمِعْ نفسك. وأما النهي عن ضده فكقوله (ولا

تكن من الغافلين) و(ولاتكونوا كالذين نسوا اللّه فأنساهم). وما تعليق الفلاح في الاكثار منه فكقوله (واذكروه ذكراً كثيراً لعلكم تفلحون). اما الثناء على أهله وحسن جزائهم فكقوله (إن المسلمينَ والمسلمات... الى قوله... والذاكرين اللّه كثيراً والذكرات اعدَّ اللّه لهم مغفرةً واجراً عظيماً). واما خسران مَن لهي عنه فكقوله تعالى (ياأيّها الذين آمنوا لاتُلهكُم اموالكُم ولا أولادكُم عن ذكر اللّه ومَن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون). وأما جعل ذكره لهم جزاءً لذكرهم فكقوله تعالى (فاذكروني اذكُركم واشكروا لي ولاتكفرون). واما الاخبار بأنه اكبر من كل شيء فكقوله تعالى (اتلُ ما اوحيَ اليكَ من الكتابِ واقمِ الصلاةَ إنَّ الصلاةَ تَنهى عن الفحشاءِ والمنكرِ والبغي يعظكم لعلّكم تذكّرون ولذِكرُ اللّه اكبر) وفيها اربعة اقوال:

أحدها؛ إن اللّه اكبر من كل شيء فهو أفضل الطاعات، لأن المقصود بالطاعات كلها اقامة ذكره فهو سرُّ الطاعات وروحها. والثاني؛ ان المعنى انكم إذا ذكرتموه ذكَركُم فكان ذكره لكَم أكبر من ذكركم له، فعلى هذا المصدر مضاف لفاعله وعلى الاول مضاف الى المذكور. والثالث؛ انَ المعنى (ولذكرُ اللّه اكبر) من ان تبقى معه فاحشة ومنكراً، بل إذا تم الذكر محق كل معصية وكل خطيئة هذا ما ذكره المفسرون. واما ختم الأعمال الصالحة به فكما ختم به الحج بقوله (فإذا قضيتم مناسَكُكم فاذكروا اللّه كذكركم آباءكم أو اشدُّ ذكراً). وختم به الصلاة فكقوله (فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا اللّه قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم). وختم به الجمعة فكقوله (فإذا قضيتم الصلاة فانتشروا في الارضِ وابتغوا من فضل اللّه واذكروا اللّه كثيراً لعلكم تفلحون). ولهذا إذاً كان خاتمة الحياة الدنيا وآخر كلام العبد ادخله اللّه الجنة.

واما اختصاص الذاكرين بالانتفاع بآياته وهم اولوا الالباب والعقول فكقوله (إن في خلقِ السموات والارضِ واختلاف الليلِ والنهارِ لآياتٍ لأولي الألباب الذين يذكرون اللّه قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم). وأما مصاحبته لجميع الأعمال واقترانه بها وانه روحها فإنه سبحانه قرنه بالصلاة كقوله (اقمِ الصلاةَ لذكري). وقرنه بالصيام والحج ومناسكه وهو روح الحج ومناسكه وهو روح الحج ولبُّه ومقصوده كما قال ﷺ: "إنما جُعل الطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروة ورمي الجمار لإقامة ذكر الله ". وقَرَنَهُ بالجهاد وامرَ بذكره عند ملاقاة الاقران ومكافحة الاعداء فقال تعالى (ياأيُّها الذين

آمنوا اذا لَقيتُم فئة فاثبتوا واذكروا اللّه كثيراً لعلكم تفلحون). وفي اثر إلهي يقول اللّه تعالى ان عبدي كل عبدي الذي يذكرني وهو ملاقي قربي. والمحبون يفتخرون بذِكر من يحبونه في هذه الحال كما قال عنترة:

ولقد ذكرتك والرماح كأنها اشطار بير في لِبان الأدهم

وقال آخر:

ذكرتُكِ والخطى يخطر بيننا وقد نهلت منا المثقفة السمر

وقال آخر:

ولقد ذكرتُكِ والرماح شواجِرٌ نحوي وبيضُ الهِندِ تقطرُ من دمي

وهذا كثير في اشعارهم وهو مما يدلّ على قوة المحبة، فإن ذِكر المحب محبوبه في تلك الحال لايهم المرء فيها غير نفسه يدل على انه عنده بمنزلة نفسه أو اعزُّ منها وهذا دليل صدق المحبة. والذاكرون هم أهل السبق كما روى مسلم في صحيحه من حديث العلاء عن ابيه عن ابي هريرة رضي اللّه عنه قال: كان رسول اللّه ﷺ يسير في طريق مكة فمرَّ على جبل يقال له حمدان فقال: "سيروا هذا حمدان سبق المفردون. قال: وما المفردون يارسول اللّه؟ قال الذاكرون اللّه كثيراً والذاكرات، والمفردون هم الموحِّدون وأما الآحاد الأفراد". وفي المسند مرفوعا من حديث ابي الدرداء رضي اللّه عنه: "ألا انبِّئكم بخير أعمالكم وازكاها عند مليككم وارفعها في درجاتكم وخيرٌ لكم من إعطاء الذهب والفضة وان تلقوا عدوكم فتضربوا اعتاقهم ويضربوا اعناقكم؟ قالوا: وما ذاك يارسول اللّه؟ قال: ذِكر اللّه".

وروى شعبة عن ابي اسحق قال سمعت الأغرّ قال اشهد على ابي هريرة وابي سعيد رضي اللّه عنهما انهما شهدا على رسول اللّه ﷺ قال: "لا يقعد قوم يذكرون اللّه إلاّ حفّتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم اللّه فيمن عنده" وهو في صحيح مسلم. ويكفي في شرف الذِكر ان اللّه يباهي ملائكته بأهله كما في صحيح مسلم عن معاوية رضي اللّه عنه ان رسول اللّه ﷺ خرج على حلقة من اصحابه فقال: "ما اجلسَكم؟ قالوا جلسنا نذكر اللّه ونحمده على ما هدانا للاسلام ومَنَّ به علينا. قال: اللّه ما اجلسكم إلاّ ذلك؟ قالوا: آلله ما اجلسنا إلاّ ذلك. قال: أما اني لم استحلفكم تهمةً لكم ولكن أتاني جبريل عليه السلام فاخبرني ان اللّه يباهي بكم الملائكة".

وسأل اعرابي رسول اللّه ﷺ: أي الأعمال أفضل؟ قال: أن تفارق الدنيا ولسانك رطب من ذكر اللّه". وقال له رجل ان شرائع الاسلام قد كثرت عليَّ فمرني بشيء أتشبث به. فقال: لايزال لسانك رطبا من ذكر اللّه. وفي المسند وغيره من حديث جابر رضي اللّه عنه قال: خرج علينا رسول اللّه ﷺ فقال: "يأأيها الناس ارتعوا في رياض الجنة. قلنا: يارسول اللّه وما رياض الجنة؟ قال: مجالس الذِكر قال اغدوا وروحوا واذكروا مَن كان يحب ان يعلم منزلته عند اللّه فلينظر كيف منزلة اللّه عنده، فإن اللّه ينزل العبد منه حيث انزله نفسه" وروى النبي ﷺ عن ابيه ابراهيم انه قال: "اَقرأ أُمَّتَكَ مني السلام واخبرهم ان الجنة طيبة التربة عذبة الماء وانها قيعان وان غراسها سبحان اللّه والحمد لله ولا إله إلاّ اللّه واللّه اكبر". رواه الترمذي واحمد وغيرهما. وفي الصحيحين من حديث ابي موسى رضي اللّه عنه عن النبي ﷺ: "مَثَلُ البيت الذي يذكر اللّه فيه والبيت الذي لايذكر اللّه فيه مَثَلُ الحي والميت" فجعل بيت الذِكر بمنزلة الحي والغافل بمنزلة الميت فتضمن اللفظان ان القلب الذاكر كالحي بمنزلة بيت الحَي وبيت الغافل بمنزلة بيت الميت وهو القبر. وفي اللفظ الأول جعل الذاكر بمنزلة الحي والغافل بمنزلة الميت فتضمن اللفظان أن القلب الذاكر كالحي في بيوت الاحياء والغافل كالميت في بيوت الموتى. ولا ريب ان أبدان الغافلين قبور لقلوبهم وقلوبهم فيها كالاموات في القبور كما قيل:

فنسيان ذِكرِ اللّه موتُ قلوبهم ... واجسامهم قبل القبورِ قبورُ
وأرواحهم في وِحشةٍ من صدورهم ... وليس لهم حتى النشورِ نشورُ

وكما قيل:

فنسيان ذِكرُ اللّه موتُ قلوبِهم ... وأجسامهم وهي القبورُ الدَوارِسُ
فأرواحهم فِي وِحشةٍ من حبيبهم ... ولكنها عند الخبيث أوانِسُ

وفي اثر إلهي إذا كان الغالب على عبدي ذكري احبني واحببته. وفي آخر فبي فافرحوا وبذكري فتنعموا. وفي آخر ابن آدم ما أنصفتني اذكرك وتنساني وادعوك وتهرب الى غيري وأُذهب عنك البلايا وانت معتكف على الخطايا، يا إبن آدم ما تقول غداً إذا جئتني. وفي آخر إبن آدم اذكرني حيث تغضب اذكرك حين أغضب وارض بنصري لك فإن نصري لك خير لك من نصرتك لنفسك. وفي الصحيح في الأثر الذي

يرويه رسول اللّه ﷺ عن ربه تبارك وتعالى: " **مَن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ومَن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خيرٍ منه**".

واعلم ان الذِكر على قسمين ذكر باللسان وذِكر بالقلب وذكر اللسان هو الذي يصل به العبد الى ذِكر القلب والتأثير لذكر القلب. فإذا كان العبد ذاكراً بلسانه وقلبه فهو الكامل في وصفه وهو المراد بقوله مع الحضور يعني مع حضور القلب. ولهذا قيل ذكر اللّه بالقلب سيف المريدين به يقاتلون اعداءهم وبه يدفعون الآفات التي تقصدهم، وان البلاء إذا أضلّ العبد فإذا فزع رجع بقلبه الى اللّه عنه في الحال، كل ما يكرهه والمراد من قوله والتفكُّر في صفات اللّه والتفكر في آثار الصفات ومتعلقاتها قال اللّه تعالى (**ويتفكَّرون في خلق السموات والارض**). وقال ﷺ: "**تفكُّر ساعة خير من عبادة سنة**". والفكر على خمسة أوجه: فكر في آيات اللّه تعالى تتولد منه المعرفة، وفكر في نَعِم اللّه ومننه تتولد منه المحبة، وفكر في وعد اللّه وثوابه تتولد منه الرغبة، وفكر في وعيد اللّه وعقابه تتولد منه الرهبة، وفكر في تفريط الإنسان في جنب اللّه يتولد منه الحياء والندامة.

والتفكر على كل حال قائد للانسان الى الخير ودليله إذا كان تفكراً صحيحاً مقصوداً به الفرار من الخلق الى الحق، والتفتيش على اقرب طرق الوصال الى اللّه تعالى. قال القشيري في رسالته: سئل الاستاذ أبو علي الدقّاق هل الذِكر اتم ام الفكر؟ فقال الاستاذ للسائل وهو أبو عبد الرحمن السلمي: ما الذي يقع للشيخ فيه؟ فقال الشيخ أبو عبدالرحمن: عندي ان الذِكر اتم من الفكر لأن الحق سبحانه يوصف بالذكر ولايوصف بالفكر وما يوصف به الحق اتم مما اختص به الخلق. فاستحسنه الاستاذ أبو علي وقوله: يورثانك المشاهدة في ذات اللّه؛ يعني بذلك المشاهدة القلبية بحيث يستغرق بكليته في شهود الحق سبحانه وهو المشار اليه بحديث لايزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى احبه، فإذا احببته كنت سَمعَهُ الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها الى آخر الحديث. وهذا المقام هو اعظم ثمرات الذِكر ونتائجه وهو المطلوب من الذِكر. وقد سئل الواسطي عن الذِكر فقال: هو الخروج عن ميدان الغفلة الى قضاء المشاهدة، فإذا وصل المريد الى هذا المقام صح له ان ينشد هذه الابيات:

ذكَرتُك لا أني نسيتك لمحةً وأيسرُ ما في الذِكر ذِكر لساني

وكدت بلا وجد اموت من الهوى　　　وهام عليَّ القلب بالخفقـــــــان
فلما آراني الوجد أنك حاضري　　　شهدتك موجوداً بكل مكــــان
فخاطبت موجوداً بغيرتكم　　　ولاحظت معلوماً بغير عَيان

قال الشارح رضي اللّه عنه قال بعض الاكابر ما معناه: لايحصل لأحد القدرة في الذكر وغيره مع دوام شهوده انه الحضرة إلاّ بعد ادمان لتفلت النفس من صاحبها عن تلك الحضرة وسرعة خروجها منها باستبدال الحجاب، سيما الملطخة بالأقذار. فهو وان اكره نفسه على المكث فيها شيئاً فشيئاً من ثانية الى دقيقة الى عشر درجات الى خمسها الى ربعها الى نصفها وهكذا بالتدريج الى ساعة فساعتين الى يوم كامل أو ليلة كاملة ثم جمعة ثم شهر ثم سنة. وهكذا حتى لايخرج من الحضرة لأنه لايجد مكاناً في الوجود إلاّ وهو فيها. وقد قال سهل التستري: لي منذ ثلاثين سنة اكلم الحق والناس يظنون اني اكلمهم. وقال الشيخ الاكبر: إذا غفل المريد عن الذِكر نَفَساً واحداً صار الشيطان قرينه فإنه له بالمرصاد ان اقبل على اللّه وقف تجاه قلبه فمتى دخلت الغفلة القلب دخل وان دخل الذِكر خرج. واذا كان الشيطان يدنس القلب بدخوله مرة بالنهار فكيف بقلب باض فيه وفرَّخ. وقال بعضهم اقرب الطرق الى دخول حضرة اللّه ذِكر اللّه لأن الاسم لايفارق مسماه فلا يزال الذِكر يذكر والحجب تُمزق شيئاً فشيئاً حتى يقع الشهود القلبي وحينئذ يُستغنى عن الذِكر بمشاهدة المذكور. فلو ذكر العبد ربه في تلك الحضرة كان غير الأدب كما ان مَن تمثل بحضرة السلطان لايناسبه ذكر اسمه جهراً بل ان ذِكره كذلك قد ينسب الى الجنون ويخرج. فالذِكر دليل فإذا جمعك على المدلول سقط شهود الدليل من قلبك ونشدوا:

بذِكــــر اللّه تزداد الذنوب　　　وتنكشف الرذائل والعـــيـــوب
وذكـر اللّه أفضل كل شيء　　　وشمس الذات ليس لها مغيب

واعلم ان انواع الذِكر كثيرة فمنها لا إله إلاّ اللّه وهو أفضل الاذكار لقوله ﷺ أفضل ما قلته انا والنبيون من قبلي لا اله الا اللّه. قال اللّه تعالى(**وكلمة اللّه هي العليا**) يعني كلمة لا إله إلاّ اللّه، وقال اللّه تعالى (**ومثل كلمة طيبة كشجرة طيبة اصلها ثابت وفرعها في السماء**) والمراد من الكلمة ههنا لا إله الاّ اللّه. وعن عبد اللّه بن عمر رضي اللّه عنه عن النبي ﷺ قال: "**يؤتى الرجل يوم القيامة ومعه تسع وتسعون سجلاً**

كل سجل منها مد البصر توضع في كفة الميزان ويخرج له قرطاس قدر انملة فيها شهادة ان لا اله إلاّ اللّه يوضع في الكفة الاخرى فرجح بها". وعن انس عن النبي ﷺ أنه قال: "قال اللّه تعالى لا إله إلاّ اللّه كلمتي وانا هو مَن قالها ادخلتُه حصني ومن أدخلتُهُ حصني فقد اَمِن والقرآن كلامي ومني خرج". وقال النبي ﷺ: "من قال لا إله إلاّ اللّه خالصاً مخلصاً دخل الجنة". وعن ابي هريرة عن النبي ﷺ قال: "لا إله الاّ اللّه كنز من كنوز الجنة" الى آخر ما ورد في فضلها وهو كثير لمن تتبعه.

ومن انواع الذِكر التسبيح والتحميد وتلاوة القرآن المجيد والصلاة على رسول اللّه ﷺ، فينبغي لكل مريد ان يكون له خرب من كل ذلك. قال العارف باللّه تعالى سيدي عبدالوهاب الشعراني رضي اللّه عنه في (المِنن الكبرى): ومما انعم اللّه به عليَّ موافقتي في وِردي لعمار السموات من الملائكة ولا اعلم الآن أحداً من أقراني ورده في الليل مشتمل على ما يسبح به الملأُ الأعلى، وصورة ترتيب وِردى انني ابدأ بقولي سبحان من سبقت رحمته غضبه لما ورد في الطبراني وغيره اَن صلاة الحق سبحانه وتعالى (سبقت رحمتي غضبي) فأقول انا سبحان مَن سبقت رحمته غضبه ألف مرة، ثم اقول سبحان اللّه وبحمده سبحان اللّه العظيم الف مرة، ثم اقول سبحان اللّه والحمد لله ولا إله إلاّ اللّه واللّه اكبر ولا حول ولا قوة الا باللّه العلى العظيم الف مرة لما ورد ان هاتين الصيغتين يحبهما اللّه تعالى، ثم اقول اشهد ان لا إله الا اللّه واشهد ان محمداً رسول اللّه الف مرة، ثم اقول اللّهم لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك ولعظيم سلطانك الف مرة لما ورد انها غطت على الملكين فلم يعرفا قدر ثوابها لما قال اللّه تعالى لهما اكتبوها كما قال عبدي وعليَّ جزاؤه بها، ثم اقول جزى اللّه سيدنا ونبينا محمداً ﷺ عنا خيراً بما هو أهله الف مرة لما ورد ان من قالها مرة واحدة اتعب سبعين كاتباً ألف صباح، ثم أقول سبحان اللّه وبحمده عدد خلقه سبحان الله وبحمده رضاء نفسه سبحان الله وبحمده زنة عرشه سبحان اللّه وبحمده مداد كلماته لما ورد ان كل مرة منها تعدل تسبيح العبد طول النهار، ثم أقول سبحان من أظهر الجميل وستر القبيح لما ورد أنها تسبيح ملائكة الستور، ثم اقول الف مرة سبحان العلي الديان سبحان الشديد الأركان سبحان مَن يذهب بالليل ويأتي بالنهار سبحان مَن لايشغله شان عن شان سبحان الحنّان المنّان سبحان الله في كل مكان لما ورد أنها تسبيح ملك نصفه من نار ونصفه من ثلج،

ثم أقول ألف مرة الحمد لله بجميع محامده كلها ما عملت منها وما لم أعلم على جميع نعمه كلها ما علمت منها وما لم أعلم عدد خلقه كلهم ما علمت منهم وما لم أعلم لما روي في الأثر أن شخصاً قالها يوم عرفة فلما حج العام الثاني شرع يقولها فناداه الهاتف: يا فلان من العام الماضي الى الآن نكتب لك في ثواب هذه التحميدة فما فرغنا، ثم اقول اللّهم صل على سيدنا محمد النبي الامي وعلى آله وصحبه وسلم الف مرة لما ورد انها صلاة ملائكة خلف البحار المحيطة لايفترون عنها ليلاً ولا نهاراً ذكره الثعلبي في كتاب العرائس، ثم اقول سبحانك اللّهم وبحمدك على عفوك بعد قدرتك سبحانك اللّهم وبحمدك حلمك بعد علمك لما ورد ان الشق الاول تسبيح نصف جملة العرش والشق الثاني تسبيح الآخر يرد ملكين على ملكين اقولها الف مرة، ثم الف مرة لا إله الاّ انت يا حي يا قيوم لأنها مجربة لحياة القلب وسمعت سيدي علياً الخوّاص رحمه اللّه يقول: ينبغي للعبد إذا ضاق عمره أو فاته القيام من اول ما ينتصب الموهب الالهي ان يبدأ بجوامع الكلم من الآيات والاخبار فيصلي بها ويسبّح بها لأن اللّه تعالى ما اخبرنا بفضلها إلاّ ليكون اهتمامنا بها اكثر.

وقد ورد ان آية الكرسي تعدل ألف آية وكذلك آخر سورة الحشر تعدل الف آية وكذلك ورد ان قُل هو اللّه احد تعدل ثلث القرآن يعني لو قسم اثلاثاً. وكذلك ورد أن قُل يا ايها الكافرون تعدل نصف القرآن يعني لو قسم انصافاً. ويقاس ما ورد انه يعدل ربع القرآن اي اذا قسم ارباعاً فكان مَن صلى بآية الكرسي أو آخر الحشر صلى بألف آية وذلك نحو سبعة عشر خربا فإني عددت الآيات من اول سورة البقرة الى نحو سورة الانفال فكان الف آية وكان الذي قرأ قل هو اللّه احد ثلاث مرات في كل ركعة قرأ القرآن كله وقس على ذلك. ومقادير الثواب لاتدرك بالقياس فنقولها كما اخبر الشارع ونؤمن بما وعد على ذلك كم الثواب الجزيل في العمل الذي هو اقل تعباً من غيره والحمد لله رب العالمين.

ولما كان للذكر نتائج وفوائد وثمرات تعود على الأعمال سيما وفاء العهود للمشايخ والاخوان وسائر عباد اللّه المؤمنين قال رضي اللّه عنه:

الوفاء بالعهود امانة وهي من شرط المؤمنين؛ العهود أوامر اللّه ونواهيه وهي التكاليف الشرعية المفسر بها الامانة في قوله تعالى (إنا عرضنا الامانة على

السموات والارض والجبال فأَبَينَ ان يحملنَها واشفقن منها وحملها الإنسان انه كان ظلوماً جهولاً). والوفاء بها عبارة عن الاتيان بها مستوفاة لشروطها بمعنى امتثال الاوامر وإجتناب النواهي والمحافظة على الآداب الشرعية وعهود المشايخ مندرجة تحت ذلك، لأن المشايخ لاتأخذ عهداً على مريد بمخالفة شريعة ابداً ومَن اخذ على مريده عهداً بخلاف الشريعة لايقتدى به. قال سيدي محي الدين العربي رضي اللّه تعالى عنه: لاتقتدِ بالذي زالت شريعته عنه ولوجاء بالانباء عن اللّه وقد افرد ذلك العارف باللّه تعالى سيدي عبدالوهاب الشعراني بكتاب جليل سماه (**عهود المشايخ**) وله كتاب أيضاً (**العهود الكبرى**) يقول فيها: اخذ علينا العهد العام من رسول اللّه ﷺ ان نفعل كذا وان نترك كذا وهما كتابان جليلان لم ينسج على منوالهما جزاه اللّه تعالى عن المسلمين خيراً. والوفاء بعهود الاخوان هو ان يحب لهم ما يحب لنفسه ويكره لنفسه هذا هو الموفي بعهودهم على العموم.

والعهد الماضي ما كان مؤكداً بالحلف ونقضه من امارات النفاق كما روي عن عبداللّه بن عمر رضي اللّه عنهما قال قال رسول اللّه ﷺ: "**اربعٌ مَن كن فيه كان منافقاً خالصاً ومَن كانت فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها إذا؛ اؤتمن خان واذا حدث كذب واذا عاهد غدر**- اي نقض العهد وترك الوفاء - **واذا خاصم فجر**. وعن ابي هريرة رضي اللّه عنه قال قال رسول اللّه ﷺ: "**آية المنافق ثلاث إذا حدّث كذب واذا وعد أخلف واذا أؤتمن خان**". ولما كان نقض العهود انما ينشأ غالباً من حب الدنيا والحطام الفاني والداعي الى ذلك انما هو البخل والحرص على الدنيا نبَّهَ الشيخ رضي اللّه عنه على ذلك بقوله:

الجود احوال المقبولين؛ الجود هو الاعطاء قبل السؤال بخلاف الاعطاء بعده، فإنه يسمى كرماً والسخاء والجود بما فضل عنك والإيثار ارفع درجات السخاء وهو جودك بالشيء مع الحاجة اليه. وقيل الجود ان يعطى الاكثر من ماله ويبقى له شيئاً أو يبقى مثل ما اعطى والسخاء ان لاينقصه البذل ولايصعب عليه واما الإيثار فهو ان يؤثر غيره بالشيء مع حاجته اليه وهو اعلى المراتب الثلاث، وعكس الإيثار الأثرة وهو استئثاره عن اخيه بما هو محتاج اليه وهي المرتبة التي قال فيها النبي ﷺ للانصار: "**انكم ستلقون بعده اثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض**" والانصار هم الذين

وصفهم اللّه بالإيثار في قوله (ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خَصاصة) فوصفهم باعلى مراتب السخاء وكان ذلك فيهم معروفاً، فقد كان قيس بن سعد بن عبادة من الاجواد المعروفين حتى انه مرض مرة فاستبطأ اخوانه في العيادة فسأل عنهم فقالوا: انهم يستحيون مما لك عليهم من الدين. فقال: اخزى اللّه مالاً يمنع الاخوان من الزيارة ثم امر مَن ينادي مَن كان لقيس عليه مال فهو منه في حلّ. فما امسى حتى كسرت عتبة بابه لكثرة من عاده. وقالوا له يوماً هل رايت أَسخى منك؟ قال: نعم نزلنا بالبادية على امرأة فحضر زوجها فقالت انه نزل بنا اضياف، فجاء بناقة فنحرها وقال شأنكم، فلما كان من الغد جاء بأخرى فنحرها فقلنا: ما اكلنا من التي نحرت البارحة إلاّ اليسير. فقال: اني ما اطعم اضيافي البائت فبقينا عنده يومين أو ثلاثة والسماء تمطر وهو يفعل ذلك، فلما اردنا الرحيل وضعنا مائة دينار في بيته وقلنا للمرأة: اعتذري لنا اليه ومضينا مع النهار إذا نحن برجل يصيح خلفنا قفوا ايها الركب اللئام اعطيتمونا ثمن قِرائي ثم لحقنا وقال لتأخذنه اولأطاعننكم برمحي فأخذناه وانصرفنا.

واعلم ان الجود على عشرة مراتب: احدها الجود بالنفس وهو أعلى مراتبه كما قال الشاعر:

يجود بالنفس اذ ضنَّ البخيل بها   والجود بالنفس اقصى غاية الجود

الثانية؛ الجود بالرئاسة وهو ثاني مراتب الجود فيحمل الجواد جوده على امتهان رئاسته والجود بها والإيثار في قضاء حاجة الملتمس. الثالثة؛ الجود براحته ورفاهيته واتعاب نفسه فيجود بها نصبا وكذا في مصلحة غيره ومن هذا جود الإنسان بنومه ولذته لمسامره كما قيل:

متيم بالندى لو قال سائله   هب جميع كرى عينيك لم ينمِ

الرابعة؛ الجود بالعلم وبذله وهو من اعلى مراتب الجود والجود به أفضل من الجود بالمال لأن العلم اشرف من المال والناس في الجود به على مراتب متفاوتة وقد اقتضت حكمة اللّه وتقديره النافذ ان لاينفع به بخيلاً ابداً، ومن الجود به ان تبذله لمن لم يسألك عنه بل تطرحه عليه طرحاً، ومن الجود ان السائل إذا سألك عن مسألة استقصيت له جوابها شافياً لايكون جوابك بقدر ما تدفع به الضرورة كما كان بعضهم يكتب جواب الفتيا نعم أولاً مقتصراً عليها. وقد كان بعض العلماء رضي اللّه عنه إذا سئل عن

مسئلة حكمية ذكر في جوابها مذاهب الائمة الاربعة إذا قدر عليه ومآخذ الخلاف وترجيح القول الراجح وذكر متعلقات واللوازم اعظم من فرحه بمسئلته، فمن جود الإنسان بالعلم انه لايقتصر على مسئلة السائل له بل يذكر له نظيرها ومتعلقها وما أخذها بحيث يشفيه ويكفيه. وقد سأل الصحابة رضي اللّه عنهم النبي ﷺ عن التوضأ بماء البحر فقال: "هو الطهور ماؤه الحِلُّ مَيتته" فاجابهم عن سؤالهم وجاد عليهم بما لعلهم في الاحيان اليه احوج مما سألوه عنه. وكانوا إذا سألوه عن الحكم نبهم على علته وحكمه كما سألوه عن بيع الرطب بالتمر فقال: اينقص الرطب إذا جف؟ قالوا: نعم. قال: فلا إذاً. ولم يكن يخفى عليه ﷺ ولكن نبههم على علة الحكم وهذا كثير جدا في اجوبته ﷺ.

الخامسة؛ الجود بالنفع بالجاه كالشفاعة والمشي مع الرجال الى ذي سلطان ونحو ذلك، وهذا زكاة الجاه المطالب بها العبد كما ان التعميم وبذل العلم زكاته. السادسة؛ الجود بنفع البدن على اختلاف انواعه كما قال النبي ﷺ يصبح على كل سلامي من احدكم صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس تعدل بين الاثنين صدقة وتعين الرجال في دابته فتحمله عليها أو ترفع متاعه عليها صدقة والكلمة الطيبة صدقة وبكل خطوة يمشيها الرجال الى الصلاة صدقة وتميط الاذى عن الطريق صدقة متفق عليه. السابعة؛ الجود بالعرض كجود ابي ضمضم من الصحابة رضي اللّه عنه كان إذا اصبح قال: اللّهم اني لا مال لي فأتصدق به على الناس وقد تصدقت عليهم بعرضى فمن شتمني وقذفني فهو في حِلّ. فقال النبي ﷺ مَن يستطيع منكم ان يكون كابي ضمضم. وفي هذا الجود من سلامة الصدر وراحة القلب والتخلص من معاداة الرجال ما فيه.

الثامنة؛ الجود بالصبر والاحتمال والاغضاء وهذه مرتبة شريفة من مراتبه وهي انفع لصاحبها من الجود بالمال واعزله وأنصر وأملك لنفسه واشرف لها ولايقدر عليها إلاّ النفوس الكبار. فمن صعب عليه الجود بما له فعليه بهذا الجود فإنه يجتني ثمرة عواقبه الحميدة في الدنيا قبل الآخرة. هذا جود الفتوة قال تعالى (والجروح قصاص) فمن تصدق به فهو كفارة له، وفي هذا الجود قال تعالى (وجزاء سئية مثلها فمن عفا واصلح فاجره على اللّه إنّه لايحب الظالمين). فذكر المقامات الثلاثة في هذه الآية مقام العدل واذن فيه ومقام الأفضل وندب اليه ومقام الظلم وحرمه. التاسعة؛ الجود بالخلق

والبشر والبسطة وهو فوق الجود بالصبر والاحتمال والعفو وهو الذي بلغ بصاحبه درجة الصائم القائم وهو اثقل ما يوضع في الميزان فإن النبي ﷺ قال: "**لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو ان تلقى اخا ووجهك منبسط اليه**" وفي هذا الجود من المنافع والمسار وانواع المصالح ما فيه، والعبد لايمكنه ان يسع الناس بماله ويمكنه ان يسعهم بخلقه واحتماله.

العاشر؛ الجود بتبقية ما في ايدي الناس عليهم فلا يلتفت اليه ولايستشرف له بقلبه ولايتعرض له بحاله ولا لسانه، وهذا هو الذي قال عبدالله بن المبارك انه أفضل من البذل. فلسان حال القدر يقول للفقير الجواد ان لم اعطك مالاً تجود به على الناس فجد عليهم باموالهم تزحمهم في الجود وتنفرد عنهم بالواحد. ولكل مرتبة من مراتب الجود مزية وتأثير خاص بالقلب والحال والله سبحانه وتعالى اعلم. وذا كان الإيثار أعلى مراتب الجود فالمحمود منه ان تؤثر الخلق على نفسك فيما لايحرم عليك ديناً ولايقطع عليك طريقاً ولايفسد عليك وقتاً يعني ان تقدمهم على نفسك في مصالحهم مثل ان تطعمهم وتجوع وتكسوهم وتعري وتسقيهم وتظمأ بحيث لايؤدي ذلك الى ارتكاب اتلاف لايجوز في الدين. ومثل ان تؤثرهم بما لك وتقعد كلاً مضطراً مستشرفاً للناس أو سائلاً، وكذلك ايثارهم بكل ما يقطع عليك طريقاً اي لايقطع عليك طريق الطلب والمسير الى الله تعالى، مثل ان تؤثر جليسك على ذِكرك وتوجهك وجمعيتك على الله فتكون قد آثرته على الله وآثرت بنصيبك من الله مَن لايستحق الإيثار، فيكون مثلك كمَثَل مسافر سائر على الطريق لقيه رجل فاستوقفه واخذ يحدثه ويلهيه حتى فاته الرفاق وهذا حال اكثر الخلق مع الصادق السائر الى الله تعالى، فايثارهم عليه عين الغبى وما اكثر المؤثرين على الله تعالى غيره وما اقل المؤثرين لله تعالى غيره، وما اقلُّ المؤثرين لله على غيره.

وكذلك الإيثار بما يفسد على المؤثر وقته قبيح أيضاً مثل ان يؤثر بقوته ويتفرق قلبه حينئذ في صلب خلقه أو يؤثر بامر قد جمع قلبه وهمه على الله فيتفرق قلبه عليه بعد جمعيته ويتشتت خاطره فهذا أيضاً ايثار غير محمود، وكذلك الإيثار باشتغال القلب والفكر في مهماتهم ومصالحهم التي لايتعين عليك على الفكر في العلم النافع واشتغال القلب بالله، ونظائر ذلك لاتخفى بل ذلك حال الخلق الغالب عليهم. وكل سبب يعود عليك بصلاح قلبك ووقتك وحالك مع الله فلا تؤثر به ابداً فإنما تؤثر الشيطان

على اللّه تعالى وانت لاتعلم. وتأمل احوال اكثر الخلق في ايثارهم على اللّه مَن يضرهم ولاينفعهم واي جهالة وسفه فوق هذا. ومن هذا تكلم الفقهاء في الإيثار بالقرب وقالوا انه لايجوز كمن يؤثر بالصف الاول لغيره ويتأخر هو او يؤثر بقربه من الامام يوم الجمعة غيره بالأذان والاقامة أو يؤثر غيره بعلم بحرمة نفسه ويقدمه عليه فيفوز به دونه. وتكلموا في ايثار عائشة رضي عنها لعمر بن الخطاب رضي اللّه عنه بمدفنه عند رسول اللّه ﷺ في حجرتها واجابوا عنه: بان الميت ينقطع عمله بموته وبقربه فلا يتصور الايثار في حقه بالقرب بعد الموت، اذ لاتقرب في حق الموت وإنما هذا ايثار بمسكن شريف فاضل لمن هو اولى به منه.س والإيثار به قربة الى اللّه بالمؤثر وقد ورد في مدح الكرم ما روته عائشة رضي اللّه عنها قالت قال رسول اللّه ﷺ: **"السخي قريب من اللّه قريب من الناس بعيد من النار، والبخيل بعيد من اللّه بعيد من الناس بعيد من الجنة، والجاهل السخي احب الى اللّه من العالم البخيل"**.

واعلم ان الحق سبحانه لايوصف بالسخاء ويوصف بالجود وان كان لا فرق على لسان أهل العلم بينهما قال ﷺ: **"ان الله جواد يحب الجود ويحب معالي الامور ويكره سفسافها"**. قال ﷺ: **"ما جبل وليٌّ لله تعالى الاّ على السخاء وحُسن الخُلُق"**. وعن جابر بن عبداللّه الانصاري قال: **"قيل يا رسول اللّه اي الايمان أفضل؟ فقال: الصبر والسماحة"**. عن عائشة رضي اللّه عنها ان ابن الزبير بعث اليها بمال في غرارتين ثمانين ومائة الف فدعت بطبق وجعلت تقسم بين الناس فلما امست قالت: يا جارية هلمي فطوري فجاءتها بخبز وزيت، وقالت لها: ما استطعت مما قسمت اليوم ان تشتري لنا بدرهم لحماً نفطر عليه. فقالت: لو كنت ذكرتيني لفعلت. وقالت اسماء بن خارجة: ما احب ان ارد احداً عن حاجة طلبها فإنه ان كان كريماً اصون عرضه وان كان لئيماً اصون عنه عرضي. وقيل كان مورق العجلي يتلطف في إدخال الرفق على اخوانه يضع عندهم الف درهم فيقول: امسكوها حتى اعود اليكم ثم يرسل اليهم ويقول لهم انتم منها في حل. وقيل لقي رجل من منبج رجلاً من أهل المدينة فقال: ممن الرجال؟ قال: من أهل المدينة. فقال: لقد اتى منكم رجل فقال له الحكم بن المطلب: فاغنانا. فقال المدني: وكيف وما اماتكم الاّ في جبة صوف؟ فقال: ما اغنانا بمال ولكنه علمنا الكرم فعاد بعضنا على بعض حتى استغنينا.

وقيل بعث رجل الى جبلة بجارية وكان بين اصحابه فقال: قبيح ان اخذتها لنفسي وانتم حضور واكره ان اخص بها واحداً وكلكم له حق وحرمة وهذه لاتحتمل القسمة - وكانوا ثمانين - فامر لكل واحد بجارية أو وصفية. وقيل عطش عبيداللّه بن ابي بكرة يوماً في طريقه فاستسقى من منزل امرأة فاخرجت كوزاً وقامت خلف الباب وقالت: تنحوا عن الباب وليأخذه بعض غلمانكم فإني امرأة من العرب مات خادمي منذ ايام. فشرب عبيداللّه الماء وقال لغلامه: احمل اليها عشرة آلاف درهم. فقالت: سبحان اللّه تسخر مني؟ فقال: احمل اليها عشرين الف درهم. فقالت: اسأل اللّه العافية. فقال: ياغلام احمل اليها ثلاثين ألف درهم. فردت الباب وقالت: افٍّ لك. فحمل اليها ثلاثين الف درهم، فما امست حتى كثر خطابها.

وقيل الجود اجابة الخاطر الاول وقد كان أبو الحسن البوشخي في الخلاء فدعا تلميذا له فقال: انزع عني هذا القميص وادفعه الى فلان. فقيل له: هلاّ صبرت. فقال: لم آمن على نفسي ان تتغير عما وقع لي من الخلق معه بذلك القميص. ودخل بعض السادة الصوفية على بعض اصحابه فوجده غائباً وباب بيت له مقفل، فقال: صوفي وله باب بيت مغلق اكسروا القفل. فكسروا وامر بجميع ما في البيت فأنفذه الى السوق وباعه واصلح وقتاً من الثمن وقعدوا في الدار ودخل صاحب المنزل ولم يمكنه ان يقول شيئاً، فدخلت امرأته بعدهم الدار وعليها كساء فدخلت بيتاً ورمت بالكساء وقالت: يا أصحابنا هذه أيضاً من جملة المتاع فبيعوها. فقال الزوج لها: لم تكلفت هذا باختيارك؟ فقالت: اسكت مثل هذا الشيخ يباسطنا ويحكم علينا ويبقي لنا شيء ندخره عنه.

وكل مافي الجود والكرم من المزيا والمحامد يوجد ضد ذلك في ضده وهو البخل ولذا قال: والبخل افعال المخذولين؛ اي آثاره التي تظهر عنه والاّ فهو صفة راسخة في النفس من قبيل السجايا. وقد ذمه اللّه ورسوله في مواضع كثيرة من الكتاب والسُّنّة، قال اللّه تعالى (ومَن يوقَ شُحَّ نفسه فاؤلئك هم المفلحون) وقال (ولا تحسَبنَّ الذين يبخلون بما آتاهم اللّه من فضله هو خير لهم بل هو شرٌّ لهم سيُطوقون ما بخلوا به يوم القيامة) وقال ﷺ: "إيّاكم والشُحّ فإنه أهلك مَن كان قبلكم حملهم على ان يسفكوا دماءهم فاستحلُّوا محارمهم" آه وسببه حب المال. ولحبِّ المال سببان السبب الاول؛ حب الشهوات التي لاتنال الاّ بالمال مع طول الامل فتسوِّل له نفسه الخبيثة انه يعيش كثيراً فيحتاج

الى المال وانه ان لم يعش هو كثيراً وترك ولد احتاج له ولده والى ذلك الاشارة بقوله ﷺ: "**الولد مجبنة مبخلة مجهلة**". واذا إنضاف الى ذلك خوف الفقر وقلة الثقة باللّه تعالى ان لايرزقه قويَ البُخل. السبب الثاني؛ ان يحب عين المال وهذا مرض في القلب مزمن والعياذ باللّه تعالى وهو كمن عشق شخصا ثم احب رسوله ونسيه، اذ المقصود بالدراهم والدنانير التوسل الى الاغراض وهذا نسي المقصود وعشق الوسيلة والواسطة ولا خفاء في قبح ذلك، فمن رأى ان بين الحجر والمال فرقاً الاّ من حيث كونه وسيلة الى الحاجات فقد جهل. وعلاج البخل تقليل الشهوة وكثرة التفكر في الموت والتأمل في موت الاقران وزيارة القبور وتأمل ما فيها من الديدان وتغير المحاسن والتفكر في الاحوال. ويعالج التفات القلب الى الولد بان اللّه خلق رزقه معه فكم من ولد ورث ولم يكن ذلك رزقه وكم ولد لم يرث ورزقه اللّه تعالى مالاً جماً وان ذلك الولد ان كان صالحاً فاللّه يتولى الصالحين وان كان فاسقاً فلا كثّر اللّه في المسلمين من امثاله فإنه يستعين بماله على المعاصي.

ومن انفع العلاج التأمل في ذم الناس للبخلاء ونفرة الطباع عنهم ومدحهم للاسخياء ورغبتهم فيهم، ولما كان من لازم الكرم والجود ثناء الخلق على الممدوح فربما اغتر المريد بثنائهم وترك يقين ما عنده، ونبّه الشيخ رضي اللّه عنه على ذلك بقوله:

لاتغترّ بثناء الخلق عليك لأنك اعلم بنفسك؛ الاغترار بمدح الناس وثنائهم غاية في الجهل والغباوة وذلك من علامات المقت، لأن المغترّ بذلك ترك يقينه بنفسه لظن غيره به وهو على كل حال اعلم بنفسه. قال العارف باللّه سيدي ابن عطاء اللّه الاسكندراني في حكمه: الناس يمدحونك بما يظنون فيك فكن انت ذامّاً لنفسك لما تعلمه منها. قال شارحها ابن عباد ذمُّ العبد لنفسه واحتقاره لها لما يتحقق من عيوبها وآفاتها مطلوب منه، لأن ذلك يؤديه الى الحذر من غرورها وشرورها فتصلح بذلك اعماله وتصدق احواله، والاّ فسدت واعتلت لدخول الآفات عليها ولايصرفه عن ذلك ثناء الناس عليه ومدحهم له، لأنه يعلم من عيوب نفسه ما لايعلمه غيره، ثم انهم لما قاموا بحق ما يجب عليهم من المدح له وحسن الظن به ينبغي له أيضاً ان يقوم هو بحق ما يجب عليه من اتهام نفسه وسوء اعتقاده فيها.

قال بعضهم مَن فرح بمدح فقد امكن الشيطان ان يدخل في بطنه. وقال آخر إذا قيل

لك نعم الرجل انت فكان احب اليك من ان يقال لك بئس الرجال انت، فأنت واللّه بئس الرجال. وقيل لبعض الصحابة رضوان اللّه عليهم اجمعين لن يزال الناس بخير ما ابقاك اللّه فيهم، فغضب وقال: اني لأحسبك عراقياً وقال بعضهم لما مُدِح: اللّهم اني عبدك تقرب اليّ بمقتك فأُشهدُك على مقته. وقال آخر: اللّهم اجعلنا خيراً مما يظنون ولاتؤاخذنا بما يقولون واغفر لنا ما لايعلمون.

قال الامام أبو حامد الغزالي رضي اللّه عنه: انما كرهوا المدح خيفة ان يفرحوا بمدح الخلق وهم ممقوتون عند الخالق، فكان اشتغال قلوبهم بحالهم عند اللّه تعالى يبغض اليهم مدح الخلق، لأن الممدوح هو المقرب عند اللّه تعالى والمذموم على الحقيقة هو المبعد عن اللّه تعالى الملقى في النار مع الاشرار. فهذا الممدوح ان كان عند اللّه من أهل النار فما اعظم جهله إذا فرح بمدح غيره، وإن كان من أهل الجنة فلاينبغي ان يفرح الاّ بفضل اللّه تعالى وثنائه عليه، اذ ليس امره بيد الخلق ومهما علم ان الارزاق والآجال بيد اللّه تعالى قلَّ التفاته الى مدح الخلق وذمهم وسقط من قلبه حب المدح واشتغل بما يهمه من امر دينه آه كلام ابي حامد. وقال ابن عطاء أيضاً: المؤمن إذا مُدِح استحى من اللّه تعالى ان يثنى عليه بوصف لايشهده من نفسه.

اجهَلُ الناس مَن ترك يقين ما عنده لظن ما عند الناس. وقد شبّه الحارث المحاسبي رضي اللّه عنه الراضي بالمدح بالباطل بمن يُهزأ به ويقال له ان العذرة التي تخرج من جوفك لها رائحة كرائحة المسك وهو يفرح بذلك ويرضى بالسخرية به إذ الذنوب والعيوب التي يعلمها العبد من نفسه انتن واقذر من العذرة التي تخرج من جوفه ولا فرق بين الحالين، الاّ انه في حال المدح يعلم ان المادح لم يشاركه في معرفة ذنوبه وعيوبه مشاركة ذلك المستهزئ به في معرفة حال ما يخرج من جوفه، فهو بجهله وغباوته قد رضيَ بان يكون له في قلوب العباد الجاهلين بحاله قدر وجاه من غير مبالاة بسقوطه من عين مولاه الذي يعلم من حاله ما لايعلمه هو ولا غيره من حيث رضي بالمدحة وفرح بها ولم يقابل ذلك بالإباء والكراهية. هذا إذا كان المادح من أهل العلم والدين، وأما ان كان جاهلاً أو فاسقاً فلا غباوة اعظم من الرضا بمدحهم والفرح به.

قال يحيى بن معاذ الرازي تزكية الاشرار هجنة بك وحبهم لك غيب عليك. وقيل لبعض الحكماء ان العامة يثنون عليك فاظهر الوحشة من ذلك وقال: لعلهم رأوا مني

شيئاً اعجبهم ولا خير في شيء يسرهم ويعجبهم. ويروى عن بعض الحكماء انه مدحه بعض العوام، فبكى فقال له تلميذه: أتبكي وقد مدحك؟ فقال: انه لم يمدحني وافق بعض خلقي خلقه فلذلك بكيت. فانظر هذا فقد نبهك هذا الحكيم على العلة في ذلك، فالعاقل حينئذ لايتغير بالمدح ولايغتم بالذم ولذلك قال:

ولاتقهر بذمّهم لأنه لا مفر لك عنهم؛ اي لاتحزن ولاتغتم بذمهم لك فإن ذلك يؤدي- اى معاداتهم وكراهتهم والتدابر والتقاطع وكل ذلك - يجر الى مفاسد في الدنيا والدين. فالاولى بمن ابتُلي بذلك ان يرجع على نفسه باللوم ويعتقد ان ذلك تسليط من اللّه عليك لترجع اليه وتعول في كل حال عليه، ولايحقد بذلك على العباد لأنه لاغناء له عنهم ولا مفر منهم.

وقد جرت عادة اللّه بالاخيار ابتلاهم بالاشرار ولو فارق الإنسان داره ارتحل الى اي بلدة أو دار فلا بد ان يجد فيها من يذمه ومن يمدحه، فلا ينبغي له ان يفرح بمدحهم ولاينقبض من ذمهم، بل الطريق المرضي كما قال الشيخ رضي اللّه عنه:

فمتى مدحوك مع استقامتك اشكر مولاك؛ حيث اظهر لك الجميل حتى اثنى عليك الناس به وستر القبيح -كما هي عادة الحق سبحانه وتعالى في عباده. قال سيدي ابن عطاء اللّه: إذا أُطلق الثناء عليك ولست له بأهل له فأثني عليه بما هو أهله.

تقدم ان المؤمن لايرى نفسه أهلاً لأن يُمدح أو يُثنى عليه فإذا اطلق اللّه ألسنة الناس بالثناء عليه ولا أهلية فيه لذلك فينبغي ان يعرف الحق لأهله فيستعمل نفسه بالثناء على اللّه بما هو أهله ليكون ذلك شكراً لنعمة إطلاق الألسنة بالثناء عليه من غير استحقاق لذلك ولا ثبوت أهليه. وأيضاً العارف إذا مُدح انبسط لانه يشهد ذلك المدح من اللّه تعالى واذا شهده من الله تعالى فعليه حينئذ الشكر لهذه النعمة. فقد كان بعضهم يُمدح وهو ساكت فقيل له في ذلك فقال: وما عليَ من ذلك ولست اغلط في نفسي بل لست في البين والمجري والمثني هو عزَّ وجلّ. وقيل هذا المعنى في الخبر المروي إذا مدح المؤمن ربى الايمان في قلبه. وقد مدح ابن عطاء اللّه شيخه ابا العباس المرسي بجملة قصائد وكان ينشدها بين يديه ويقع ذلك منه موقعاً عظيماً وكان يستعبد منه بعضها ويقول له في بعضها أيّدك اللّه بروح القدس نحو ما كان يقول رسول اللّه ﷺ لشاعره حسان بن ثابت مع ان حب المدح عندهم من الرذائل التي تشبه الفضائل.

وبهذا النظر والشهود الجمعي استقام لهم من مدحهم لانفسهم وثنائهم عليها ما لم يستقم لغيرهم كما وقع لجماعة منهم وقد روي في ذلك عن سيدي عبدالقادر الجيلاني وسيدي ابي الحسن الشاذلي وسيدي ابي العباس المرسي رضي اللّه عنهم مع ان ذلك عندهم معدود من الصدق القبيح، وما ذلك الاّ لما ذكرنا ولايتأول ما وقع لهم من ذلك بما تأول به علماء الظاهر مدح يوسف عليه السلام لنفسه وثنائه عليها بغاية الحفظ والعلم، وعلامة الصادق في حب المدح وان كان صاحب هذا المقام لايحتاج الى علامة ان لايكره ذم الناس كما قال رضي اللّه عنه:

ومتى ذموك مع جنايتك اشك لمن ابلاك؛ لأنهم مصروفون في قبضة القدرة فيسمح لهم ويصفح عنهم ولايجد في قلبه عليهم ولايصل بشيء من الاذى اليهم كما قيل:

رُبَّ رام بِأحجـــار الأذى | لم اجد بُداً من العطف عليه
فعسى يطلع اللّه علـى | فرح القوم فيُدنيني إليه

فينبغي لمن ابتُليَ بذم الخلق له ان يلتجئ الى اللّه تعالى ويشكو اليه حاله ويعلم ان اللّه ما اطلق ألسنة الخلق بالذم له الا لمساويء اتصف بها ورذائل انطوى عليها، ولايمكنه الخلاص من ذلك الاّ باللّه تعالى. وسبب انقباض النفوس من الذم حب الجاه وهو انتشار الصيت بين الناس ولايسمح بتركه الاّ الصديقون. ولذا قيل آخر ما يخرج من قلوب الصديقين حب الرئاسة فهو قوت الروح الطالبة للاستعلاء والربوبية إذ الروح من عالم امر اللّه وهو يطلب الربوبية والعلوم والاستعباد للناس فيحب الكمال ويطلبه. فإذا مُدح الشخص اعتزت روحه وارتاحت لشعورها بالكمال الذي تحبه واذا ذُم انقبضت لشعورها بالنقصان الذي تكرهه فالجاه مذموم الاّ مَن اشهره اللّه لنشر دينه.

قال انس قال صلى الله عليه وآله وسلم: **"حسبُ امريءٍ من الشر الاّ من عصمهُ اللّه ان يشير الناس اليه بالاصابع في دينه ودنياه"**. وقال علي رضي اللّه عنه: تبذل ولاتشتهر ولاترفع شخصك لتذكر بعلم واكتم واصمت تسلم وتسرُّ الابرار وتنغِّص الفجار. وقال سليمان بن حنظلة: بينما نحن حول أُبَيّ بن كعب نمشي خلفه اذ رآه عمر ابن الخطاب رضي اللّه عنه فعلاه بالدُرّة فقال: انظر ياأمير المؤمنين ما تصنع. فقال: ان هذا زلّة للتابع ومنه للمتبوع. وعن الحسن قال: خرج ابن مسعود يوماً من منزله فاتبعه الناس فالتفت اليهم وقال: علام تتبعون فواللّه لو تعلمون ما اغلق عليه بابي ما اتبعني منكم رجلان. ولما كان حب

المدح من الخلق وكراهة الذم منهم من علامة الرضا عن النفس والركون اليها اتبع الكلام رضي اللّه عنه بقوله:

الرضا عن النفس علامة الجهلاء: الرضا عن النفس اصل جميع الصفات المذمومة وعدم الرضا عنهما اصل الصفات المحمودة، وقد اتفق على هذا جميع العارفين وارباب القلوب، وذلك لأن الرضا عن النفس يوجب تغطية عيوبها ومساويها ويصير قبيحها حسناً كما قيل:

وعين الرضا عن كل عيبٍ كليلة ولكن عين السخط تبدي المساويا

وعدم الرضا على النفس على عكس هذا لأن العبد إذذاك يتهم نفسه ويتطلبه عيوبها ولايغتر بما تظهر من الطاعة والانقياد كما قيل في الشطر الاخير. فمَن رضي عن نفسه واستحسن حالها وسكن اليها فكان جاهلاً، ومَن كان كذلك استولت عليه الغفلة وبالغفلة ينصرف قلبه من التفقد والمراعاة لخواطره، فتثور حينئذ دواعي الشهوات على العبد وليس عنده من المراقبة والتذكر مايدفعها به ويقهرها، فتصير الشهوة غالبة له بسبب ذلك، ومَن غلبتهُ شهوته وقع في المعاصي لا محالة. واصل ذلك كله رضاه عن نفسه ومَن لم يرض عن نفسه لم يستحسن حالها ولم يسكن اليها، ومَن كان بهذا الوصف كان متيقظاً منتبها للطوارق والعوارض وباليقظة والتنبّه يتمكن من تفقد خواطره ومراعاتها، وعند ذلك تخمد نيران الشهوة فلا يكن لها عليه غلبة ولا قوة، فيتصف العبد حينئذ بصفة العفة. فإذا صار عفيفاً كان مجتنباً لكل ما نهى اللّه عنه محافظاً على جميع ما امر به. وهذا معنى الطاعة لله عزَّ وجلّ.

واصل هذا كله عدم رضاه عن نفسه فإذا لا شيء اوجب على العبد من المعرفة بنفسه ويلزم من ذلك عدم الرضا عنها، وبقدر تحقق العبد في معرفة نفسه يصح له حاله ويعلو مقامه. وقد ورد عن الكبار والائمة الاخيار من الكلمات المتضمنة لعيبهم نفسهم والتهمة منهم لها وعدم رضاهم عنها اكثر من ان يحصى. ولذلك قال أبو حفص: مَن لم يتهم نفسه على دوام الاوقات ولم يخالفها في جميع الاحوال ولم يجرها الى مكروهها في سائر ايامه كان مغروراً، أو مَن نظر اليها باستحسان شيء منها فقد أهلكها. وكيف يصح لعاقل الرضا عن نفسه والكريم بن الكريم بن الكريم يقول وما ابريء نفسي إن النفس لأمّارة بالسوء. وقال أيضاً أبو حفص: منذ اربعين سنة اعتقادي في

نفسي ان اللّه ينظر نظر السخط واعمالي تدل على ذلك. وقال الجُنيد: لاتسكن الى نفسك وان دامت طاعتها لك في طاعة ربك. وقال أبو سليمان الداراني: ما رضيت عن نفسي طرفة عين. ويحكى عن سري السقطي رضي اللّه انه قال: اني لانظر الى انفي في اليوم كذا كذا مرة مخافة ان يكون قد اسود لما اخافه من العقوبة. وقال أيضاً: من الناس ناس لو مات نصف احدهم ما انزجر النصف الآخر ولا احسبني الاّ منهم. الى غير هذا من العبارات الصادرة عن المشايخ رضي اللّه عنهم بهذا المعنى.

وقد الّفَ الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي جزءاً صغيراً لجرم عظيم الفائدة في عيوب النفس وكيفية مداوتها فلينظر فيه المريد، وكذلك الَّفَ قبله الامام أبو عبداللّه الحارث المحاسبي كتاباً سماه بالنصائح جمع فيه من معايب النفس وخدعها وغرورها وشرورها جملة شافية كافية على سنن دراسة عافية مما كان عليه سلفنا الصالح من التفتيش والتفقد والنظر فيما تصلح به اعمالهم واحوالهم وتفسد والمحافظة على تطهير الاسرار والقلوب والمبالغة في الحذر من محقرات الذنوب. وقد نقل الامام أبو حامد الغزالي منه فصلاً في كتابه واعتمد فيه ذكره بلفظه ورخص خطابه بعد ان اثنى على مؤلفه بما هو أهله بأن للجاهل به علمه وفضله فقال في حقه: والمحاسبي هو خير الامة في علم المعاملة وله السبق على جميع الباحثين عن عيوب النفس وآفات الأعمال واعوار العبادات، وكلامه جدير بان يخلى على وجهه. ثم ذكره وقد كان أوحد زمانه ونخبة اوانه ورعا وزاهداً سيدي الحاج أبو العباس ابن عاشر رحمة اللّه عليه يُكثر من التحريض على مطالعة ذلك الكتاب والعمل بما تضمنه من حق وصواب، واظنني سمعته ذات يوم يقول: لايعمل بما فيه الا ولي او كلاماً هذا معناه. فليتخذ المريد مطالعته وردا وليحرص على العمل بما تضمنه مستعينا باللّه تعالى وسائلاً منه توفيقاً ورشداً لينصح لمولاه في مراعاة باطنه والقيام على قدم الصدق في مواطنه وليجعل هيجيراه مطالعة كتب التصوف وموالاة أهله بالتألف والتعرف. فبذلك تتقوى انوار ايمانه ويقينه وتنتفي عنه العرّة بوظائف دينه ولايُقدم على ذلك الاّ فرض العين وما تسمح به نفسه من مكابدة التعب والأين، ولايشغل نفسه بعلم يقبر في وجه مقصوده ويوجب له انتكاث مواثيقه وعهوده، وهو ما اكبَّ الناس عليه اليوم وحادوا به عن سُنن القوم حتى تطرق لهم بسبب ذلك من رذائل الصفات وعظائم الآفات ما ارداهم الى

الهلاك والشقاء واعقبهم النفاق في قلوبهم الى يوم اللقاء، وسجل عليهم بالكذبة في دعواهم انهم قاصدون في علمهم رضا مولاهم. فإيّاك واياهم آه كلام ابن عباد في شرح الحكم.

وقال أيضاً صاحب الحكم: ولأن تصحب جاهلاً لايرضى عن نفسه خير لك من ان تصحب عالماً يرضى عن نفسه، فأي علم لعالم يرضى عن نفسه واي جهل لجاهل لايرضى عن نفسه. فإن العلم مع الرضا عن النفس منزل منزلة العدم، لأن علمه غير نافع وجهله الذي اوجب رضاه عن نفسه ضار غاية الضرر. ولهذا قال رضي اللّه عنه:

عدم الرضا عنها علامة العقلاء؛ لانه يبعث على تتبع العيوب وكيفية الخلاص منها والتحلي بالكمالات، فينبغي للعبد ان يتفقد نفسه كل التفقد ولايغفل عنها ليخرج منها صفات المنافقين ويدخل فيها صفات المؤمنين التي وصف اللّه بها المؤمنين في كتابه مثل قوله تعالى (التائبون العابدون) الى آخر الآية، وقوله تعالى (قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون) ونحوهما من الآيات. وفي الحديث لايؤمن احدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه. وكان حاتم الاصم يقول: من علامة المؤمن ان يفعل الطاعات ومع ذلك يبكي، وعلامة المنافق ان ينسى العمل ثم يضحك. وكان الفضيل بن عياض رحمه اللّه تعالى يقول: المؤمن مَن يزرع نخلاً ويخاف ان يثمر شوكاً، والمنافق يزرع شوكاً ويطلب ان يثمر رطباً آه.

ففتش ياأخي نفسك قبل موتك وابك على نفسك ان وجدت فيها اخلاق المنافقين ولاترض عنها ابداً، فإن أهل البصائر لايغفلون عن انفسهم ابدا خوفاً من دخول الآفات في علمهم وعملهم. فقد كان يزيد بن ابي حبيب يقول: ان من فتنة العالِم في دينه ان يكون الكلام احب اليه من السكوت والاستماع. وقيل للامام مالك رضي اللّه عنه ان فلاناً كثير العبادة، فقال: نعم ولكنه يتكلم كلام شهر في جمعة وفي رواية في ساعة. وكان الشعبي يقول: جهدنا في ابراهيم التيمي ان يجلس للناس في المسجد فيحدثهم فأبى وكان اذا دخل المسجد لايستند الى ساريه ولا الى جدار وكان الزهري مع وفور علمه لايُفتي ويقول: مَن افتى بغير وفور علم، وكان للامام معاقبة وكان حماد اللفاف يقول: المفتي على شفير جهنم. قلت: ولذلك لم يتصدر غالب القوم للفتيا ابداً للاحتياط لانفسهم وخوفهم من دخول العجب عليهم. وكل ذلك منشؤه عدم رضاهم عن

انفسهم واتهامهم اياها في كل حال.

واعلم ان الرضا عن النفس ينشأ غالباً من رؤية الفضائل وهي اما علمية واما عملية. والفضائل العملية لايعتد بها بدون العلم. ولما كان العلم ينقسم الى علمٍ وهبيٍّ وعلم كسبيّ بيّن الشيخ رضي الله عنه بقوله:

العلم علمان علم في الاوراق: وهو علم الاحكام الشرعية والفروع النقلية المبثوث في الكتاب والسُنّة، وعلم الحلال والحرام وما يلزم تعلمه لسائر الانام وهذا العلم طريق الكسب وتعاطي اسباب الطلب من سهر الليل والصبر على الغربة والاسفار وتعذر الملاذ والشهوات. وهذه العلوم يمكن تحصيلها مع محبة الدنيا والاخلال بحقائق التقوى وربما كان حب الدنيا عوناً على اكتسابها، لأن الاشتغال بها شاق على النفوس فجبلت النفوس على محبة الجاه والرفعة حتى إذا استشعرت حصول ذلك بحصول العلم تحملت المشاق والكلف. واما العلم الثاني وهو الذي ذكره بقوله:

وعلم بالاذواق؛ فهو نتيجة التقوى والعمل بالعلم الشرعي وهو المرموز اليه بقوله تعالى (واتقوا اللّه ويعلمكم اللّه) وقوله ﷺ **من علم بما عمل ورثه اللّه علم ما لم يعلم.** وهو علم السادة الصوفية الذي ادركوه بالذوق والمشاهدة فلا يكاد النظر يهتدي اليه الاّ بذوق ووجدان كالعلم بكيفية حلاوة السكر لايحصل بالوصف بل كل مَن ذاق عرف. وهذا لايمكن تحصيله مع محبة الدنيا ولا مع الاخلال بشيء من التقوى، فالعلماء الزاهدون ومشايخ الصوفية والمقربون حيث اكرموا بالقيام بواجب حق الاستقامة رزقوا هذه العلوم الذوقية والمعارف الوهبية: كعلم الحال وعلم القيام بواجب الوقت، وعلم الخواطر وعلم اليقين والاخلاص، وعلم النفس ومعرفة اخلاقها، وعلم النفس ومعرفتها، وعلم معرفة اقسام الدنيا وما يحذر منها ووجود دقائق الهوى وخفايا شهوات النفس وشربها، وعلم الضرورة اي ما لابد منه ومطالبة النفس بالوقوف على الضرورة قولاً وفعلاً ولبساً وتركاً واكلاً ونوماً ومعرفة حقائق التوبة، وعلم خفي الذنوب ومعرفة سيآت هي حسنات الابرار ومطالبة النفس بترك ما لايعني ومطالبة الباطن بترك خواطر المعصية ثم بترك خواطر الفضول، وعلم المراقبة وعلم ما يقدح في المراقبة، وعلم المحاسبة والرعاية، وعلم حقائق التوكل وذنوب المتوكل في توكله وما يقدح في التوكل ومالا يقدح والفرق بين التوكل الواجب بحكم الايمان وبين التوكل الخاص المختص بأهل

العرفان، وعلم الرضا وذنوب مقام الرضا، وعلم الزُهد وتحديده بما يلزم من ضرورته وما لايقدح في حقيقته ومعرفة الزُهد في الزُهد ومعرفة زهد ثالث بعد الزُهد في الزُهد، وعلم الانابة والإلتجاء ومعرفة اوقات الدعاء ومعرفة وقت السكوت عن الدعاء، وعلم المحبة والفرق بين المحبة العامة المفسرة بامتثال الاوامر والمحبة الخاصة - وقد انكر طائفة من علماء الدنيا دعوى علماء الآخرة المحبة الخاصة كما انكروا الرضا وقالوا ليس الاّ الصبر، وعلم المشاهدات، وعلم الفناء والبقاء وتفاوت احوال الفناء والتخلي والاستتار والجمع والتفرقة واللوامع والبوادي والصحو والسكر، وعلوم المكاشفات وغير ذلك مما لايدخل تحت دائر الحصر وفوق كل ذي علم عليم.

الاول محبوب مع العمل: بمقتضاه اذ هو حجة اللّه على العباد فإن عملوا به نفعهم وكان حجةً لهم والاّ كان حجة عليهم. فالعالم العامل يَستغفِر له كل شيء حتى الحوت في بحره والوحش في قفره، والعالم غير العامل بعلمه اول من تسعر به النار. فقد ورد في صحيح مسلم عن ابي هريرة قال قال رسول ﷺ: **"ان اول الناس يُقضى عليه يوم القيامة رجل استُشهِد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها فقال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت. قال كذبت ولكنك قاتلت لأن يُقال جريء، فقد قيل ثم مر به فيسحب وجهه حتى القي في النار، ورجل تعلم العلم وعلّمه وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال: فما عملت فيها؟ قال تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن. قال كذبت ولكنك تعلمت العلم ليقال انك عالم وقرأت القرآن ليقال هو قارئ فقد قيل، ثم امر به فيسحب على وجهه ثم القي في النار. ورجل وسع اللّه عليه واعطاه من اصناف المال كلّه فأتى به فعرفه نعمه فعرّفها قال فما عملت فيها؟ قال ما تركت من سبيل تحب ان ينفق فيها الاّ انفقت فيها لك. قال كذبت ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل ثم امر به فيسحب على وجهه ثم القي في النار"** رواه مسلم.

والثاني موهوب من الازل: وهو العلم اللدني الذي تقارنه الخشية وهو مما لا كسب للعبد في تحصيله بل هو من محض الوهب، ذلك أن فضل اللّه يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم يختص برحمته من يشاء ولذلك سمي لدنيا وهو وهبي وان كانت الأعمال تنتجه احياناً لكن انتاجها له ليس لكل احد بل لبعض من خصه اللّه تعالى، فلم يلحق بالامور المعتادة ولكن طريقه التقوى كما عرفت. ولمّا كان التحلي بالكمالات

التي قدمها المصنف في هذه الحكم والتخلي عن اضدادها لايحصل غالباً الاّ بالمرشد المسلك العارف بالداء والادوية النافعة اشار رضي اللّه عنه الى ذلك بقوله:

«التطهير من الاوساخ» الباطنية المانعة من اشراق الانوار وإفاضة الاسرار على قلوب الاحرار من حب الدنيا والجاه والكبر والحسد والعجب والانهماك في الشهوات والمستحسنات للطباعة.

بتسليم الروح للاشياخ - جمع شيخ - والمراد منه هنا العارف باللّه السالك المسلك العارف بالطريق وعوائقه وآفاته وقواطعه وما يطرأ فيه والخواطر والدسائس وكل ما لابد منه في الطريق. وهذا التطهير هو المراد من التزكية في قوله تعالى **(قد افلح من زكّاها)**.

وكيفية هذه التزكية ان المريد إذا سلّم نفسه للشيخ العارف باللّه اول ما يبدؤه به ان يأمره بمجاهدة نفسه بأنواع الرياضات وترك العوائد والمستحسنات، ثم يحببه الى ربه ويلقنه ذِكره فلا يزال العبد يذكر اللّه تعالى في كل احيانه ويتقرب اليه بنوافل العبادات والتقرب حتى يلج قلبه في عالم الملكوت، وتغلبه صفات الابرار والمقربين، فينغمس في عين اليقين ويكتسي انوار المقرّبين. وهذا لايكون الاّ بعد تسليم النفس الى الشيخ العارف، فإذا حصلت هذه التزكية انحلت مرآة القلب وإنعكس فيه انوار العظمة الإلهية ولاح فيه جمال التوحيد، وحينئذ يحصل له الفرح الدائم والسرور الملازم.

والفرح للارواح بتطهير الاشباح؛ من أدران المخالفات والتلطخ بادخال الشهوات والانغماس في بحر الجهالات، فتطهير الاشباح عبارة عن حفظ الحواس الظاهرة عن المخالفات، فبحفظ الحواس تشرق انوار الروح اذ بين هذا الهيكل والروح ارتباط قوي، فإذا تلبس الجسد بموافقة أو مخالفة اثر ذلك في الروح تأثيراً بليغاً.

وهذه التزكية وان كانت تحصل لكل مؤمن بدون المرشد بواسطة امتثال الاوامر واجتناب النواهي والمحافظة على اكل الحلال والورع، ولكن الطريق طويل والمسافة بعيدة والاهوية مختلفة والسالك بنفسه مخاطِر فربما سلك من طريق يعتقده موصلاً الى المطلوب حتى إذا توسطه رأى في اثناء ذلك العقبات واحتاطت به الآفات، فرجع يلتمس طريقاً سواه فيكون كحمار الرحى يسير والذي سار منه هو الذي ارتحل اليه، بخلاف السائر بالدليل العارف بتشعب الطريق وبالطرق الموصلة والغير الموصلة فإنه

يقطع به في مدة يسيرة ما لايقطعه بنفسه في الاحيان الكثيرة، (وانَّ يوماً عِند ربِّك كالف سَنةٍ مما تعدُّون).

قال رضيَ اللّه عنه:

الطريق بدون الدال يطول؛ على المريد إن سلِمَ من الآفات والعوائق والقواطع والمهلكات وقل ان يسلم الاّ من سلمه اللّه واختطفته العناية الربانية.

ومعه يسهل الوصول؛ قال اللّه تعالى (وإن يوماً عند ربِّكَ كألف سنة مما تعدُّون) سمعت شيخنا المصنِّف رضي الله عنه يقول بلسان الإشارة في معنى هذه الآية: وان يوماً عند شيخك ومربيك كألف سنة مما تعدون انتم بانفسكم من غير شيخ، فالمريد الصادق إذا دخل تحت حكم الشيخ وصحبه وتأدب بآدابه يسري من باطن الشيخ حال الى باطن المريد كسراج يقتبس من سراج، وكلام الشيخ يلقح باطن المريد ويكون مقال الشيخ مستودع نفائس الحال. وينتقل الحال الى المريد بواسطة الصحبة وسماع المقال فيصل الى المطلوب بمشيئة اللّه تعالى في اقرب حين وزمان. ولايكون هذا الاّ لمريد سلم نفسه للشيخ وانسلخ من ارادة نفسه وفنى في الشيخ بترك اختياره. فبالتألف الإلهي يصير بين المريد والشيخ كمال امتزاج وارتباط بالنسبة الروحية والطهارة الفطرية، ثم لايزال المريد مع الشيخ كذلك متأدباً بترك الاختيار حتى يرتقي من ترك الاختيار مع الشيخ الى ترك الاختيار مع اللّه تعالى، فيفهم من اللّه كما كان يفهم من الشيخ.

ومبدأ هذا الخير كله صحبة الشيخ وملازمته ولكن لاينبغي للمريد ان يسلك هذا الطريق على يد الشيخ حتى يصحح ما يجب عليه من معرفة اللّه تعالى وما تصح به عباداته ومعاملاته من العلوم الشرعية. فلهذا ذكر الشيخ رضي اللّه عنه عقب هذه الحكمة شرف العلم وفضيلته بقوله:

العلم أفضل الاعمال؛ وأن فيه للجنس أو للعهد الذكري أو الذهني اي في المعهود الذهن وهو العلم النافع فيشمل سائر العلوم الشرعية والعلوم الذوقية، وانما كان أفضل الأعمال لأن الأعمال بدونه كالجسد بلا روح ولايصح شيء من الأعمال الاّ به وفي (مشكاة المصابيح) عن كثير بن قيس قال: كنت جالساً مع ابي الدرداء في مسجد دمشق فجاءه رجل فقال يا أبا الدرداء اني جئتك من مدينة الرسول ﷺ لحديث بلغني

انك تحدثه عن رسول اللّه ﷺ ما جئت لحاجة. قال: فإني سمعت رسول اللّه ﷺ يقول "مَن سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك اللّه به طريقاً من طرق الجنة وان الملائكة لتضع اجنحتها رضا لطالب العلم وان العالم يستغفر له مَن في السموات ومَن في الارض والحيتان في جوف الماء وان فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب وان العلماء ورثة الأنبياء وان الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وانما ورثوا العلم فمن اخذه اخذ بحظ وافر". رواه احمد والترمذي وابو داود وابن ماجه والدارمي.
وان كان العلم أفضل الأعمال بالضرورة كان:

الجهل اقبح الخصال؛ لأنه مذموم شرعاً وعقلاً، اذ ربما استغنى الجاهل عن مسئلة فافتى فيها بغير علم فضَلَّ واضَلَّ. فقد ورد عن ابي هريرة رضي اللّه عنه قال رسول اللّه ﷺ: "مَن افتى بغير علم كان إثمُهُ على مَن افتاه ومَن اشار على اخيه بأمر يعلم ان الرشد في غيره فقد خانه" رواه أبو داود. وفي الامثال مَن جهل شيئاً عاداه قال الشاعر:

جهلتُ فعاديتُ العلومَ وأهلها كذالك يعادي العلم من هو جاهلُهُ

ومما ينسب للامام على رضي اللّه عنه وكرم اللّه وجهه:

الناس من جهة التمثال اكفّاءُ ابوهم آدام والام حَوّاءُ
إن لم يكن لهم من اصلهم نسبٌ يفاخرون به فالطينُ والماءُ
ما الفضل الاّ لأهل العلم انهم على الهدى لمن استهدى أدلاّءُ
وقدر كل امريء ما كان يحسنه والجاهلون لأهل العلم اعداءُ
فاختر لنفسك علماً واكتسب ادباً الناس موتى وأهل العلم احياءُ

وقد قال بعض الأدباء الجاهل صغير وان كان شيخاً والعالم كبير وان كان حدثاً. وقال فتح الموصلّي: أليسَ المريض إذا مُنع الطعام والشراب يموت؟ قيل نعم، قال: كذلك القلب إذا منع الحكمة والعلم ثلاثة ايام مات.

«الفضل للعالم وان قلَّ عمله على العابد وإن كثر عمله وطال اجله» لقوله تعالى (يرفعُ اللّه الذين آمنوا منكم والذينَ اوتوا العلمِ درجات). قال ابن عباس: للعلماء درجات فوق المؤمنين بسبعمائه درجة ما بين الدرجتين خمسمائة عام. وقال تعالى(هل يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون) وقال تعالى (انما يخشَى اللّهَ من عبادهِ العلماء) وقال

تعالى (وتلك الامثالُ نضربها للناس وما يعقلها الاّ العالمون). وقال ﷺ العلماء ورثة الأنبياء. وقال ﷺ: "أفضلُ الناس المؤمن العالم الذي ان أُحتيج اليه نفع وان استغني عنه اغنى نفسه". وقال ﷺ اقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم. وعن الحسن مرسلاً قال: قال ﷺ: "مَن جاءه الموت وهو يطلب العلم ليحيي به الاسلام فبينه وبين النبيين درجة واحدة في الجنة" رواه الدارمي، وعنه مرسلا قال سُئل رسول اللّه ﷺ عن رجلين كانا في بني اسرائيل احدهما كان عالماً يصلي المكتوبة ثم يجلس فيعلّم الناس الخير، والآخر يصوم النهار ويقوم الليل أيهما أفضل؟ قال رسول اللّه ﷺ فضل هذا العالم كفضلي على ادناكم" رواه الدارمي.

وعن علي رضي اللّه عنه قال رسول اللّه ﷺ: "نِعمَ الرجل الفقيه في الدين ان احتيج اليه نفع الناس وان استغني عنه اغنى نفسه"رواه رزين. وعن ابن عباس قال قال رسول اللّه ﷺ: "تدارس العلم ساعة من الليل خير من احيائها" رواه الدارمي. وعن انس بن مالك قال قال رسول اللّه ﷺ: "هل تدرون مَن اجود جوداً؟ قالوا اللّه ورسوله اعلم، قال: اللّه أجود جوداً ثم انا اجود بنى آدم وأجودهم من بعدي رجلٌ علّم علماً ففسّره يأتي يوم القيامة اميراً وحده" أو قال امة واحدة. وعن عون قال قال عبداللّه ابن مسعود: لَمنهومان لايشبعان صاحب العلم وصاحب الدنيا ولايستويان اما صاحب العلم فيزداد رضا الرحمن، واما صاحب الدنيا فيتمادي في الطغيان ثم قرأ عبدالله قوله تعالى(كلاّ ان الإنسان ليَطغى إن رآه إستغنى) قال: وقال الآخر انما يخشى اللّهَ من عباده العلماء. رواه الدارمي ولايمكن استقصاء ما ورد في فضل العلم وأهله العاملين به لأنَ الكتاب والسُنّة مشحونة بذلك نسأل اللّه العظيم ان يوفقنا للعمل بما علمنا وان يجنبنا مافيه سخطه ونعوذبا اللّه من علم لاينفع وقلب لايخشع ودعاء لايرفع.

ولما فرغ من بيان فضل العلم وأهله رجع يبيِّن اوصاف الشيخ المسلك والمريد السالك فقال:

الشيخ مَن رَقّاك؛ من حضيض صفاتك الى اوج كمالاتك

« بسرِّه » اي بتوجيه سرّه لك ونظره اليك. قال بعض العارفين ان اللّه لينظر الى قلوب قوم من قلوب قوم آخرين، فإن العارف إذا نظر الى المريد بعين المزيد فإن اللّه إذا اطلع على قلب ذلك العارف اليه، وللنظر تأثير في التربية كما قيل ان السلحفات تربي

اولادها بالنظر اليهم، فإذا انسلخ المريد من هواه وانقاد الى الشيخ وتأدب بآدبه يسري من باطن الشيخ حال الى باطن المريد فتشرق عليه خلع المعارف والاسرار.

«وهيّأكَ» اي جعلك مهيأ لقبول الانوار الإلهية بعد تخليتك عن العوائق الدنيوية

«وملك فؤادك» بحيث لايكون لهم حركة ولا سكون الاّ باشارته وتصريفه منقاد الحكمة وتعريفه. وهذا هو الفناء في الشيخ.

«وصفّاك» من الاكدار البشرية

«وعمّن سواه» سبحانه وتعالى

«نقّاك» خلصك من سائر الاغيار فحينئذ فنيت عن الصفات المذمومة ورديء الاخلاق وطاب لك الشراب وراق، فصرت لله في اللّه باللّه في سائر احوالك وتقلباتك واطوارك، ولايكون الشيخ كذلك حتى يكون قد سلك طريق الحق وعرف المخاوف والمهالك يرشد المريد ويشير عليه بما ينفعه وما لايضره.

وينبغي للمريد ان يتيقن ان روحانية الشيخ غير متحيزة بموضع دون موضع ففي اي موضع كان المريد لاتفارقه روحانية الشيخ وان كان يفارقه شخصيته. والبعد انما يتعلق بالمريد فإذا تذكر المريد بقلبه الشيخ قرب اليه فيتعلق به قربه فاستفاد منه، واذا احتاج المريد الى الشيخ لحادثة حدثت له يستحضر الشيخ بقلبه ويسأله عمّا يشاهده لا باللسان الظاهر بل بلسان القلب فيلهمه روح الشيخ معنى الواقعات عقيب السؤال، وانما يتيسر ذلك بواسطة ربط قلبه بالشيخ. ومن هذه الوجوه يُفصح له لسان القلب ويُفتح له طريق القلب الى الحق سبحانه فيجعله محدثا. واعلم انه لايصلح للمشيخة الاّ مَن سلك الطريق من المشايخ وابصر المذموم والمحمود وقاسى بلاء هواجم العظمة من الهيبة والموت والفناء. ولايصلح المجذوب لذلك فإن المجذوب وان كان قد ذاق المقصود ولكن لم يعرف الطريق الى اللّه تعالى، فلم يصلح لتربية المريدين لأن التربية والمشيخة هي الدلالة على الطريق وهو لم يسلك الطريق، وانما حصلت له خطفة اوصلته الى المقصود من غير ان يعرف شيئاً من اخطار الطريق. ويُشترط أيضاً في الشيخ ان يكون عارفاً بكتاب اللّه تعالى وسنة رسوله ﷺ وليس كلُ عالمٍ بأهلٍ للمشيخة، بل ينبغي ان يكون موصوفاً بصفات الكمال ومُعرضاً عن حب الدنيا والجاه والمال وما يشبه ذلك،

ويكون قد اخذ هذا الطريق عن شيخ عارف محقق وهكذا حتى اتصلت سلسلة متابعته الى رسول اللّه ﷺ وارتاض بأمره رياضة بالغة من قلة الطعام وقلة الكلام وقلة المنام وقلة الاختلاط وكثرة الصوم والصلاة والصدقة، فظهرت في شمائله مكارم الاخلاق ومحاسن الآداب مثل الصبر والشكر واليقين والسخاوة والقناعة والامانه وبَذل المال والجاه والحُلم والتواضع وكفاية امور الآخرة والصدق والاخلاص والحياء والوقار والاحتماء والسكون والتأني وامثال ذلك. وقد اقتبس نوراً من انوار الرسول ﷺ فاضمحلت الاخلاق الذميمة مثل الكِبَر والعجب والبخل والحسد والحقد والحرص والامل والخفة، وظهر على ظاهره صورة المجاهدة والمعاملة من غير مكابدة وعنا، بل بلذاذة وحلاوة واستنار بأنوار المشاهدة وانشرح صدره بالنور المقذوف في قلبه، وتجافى عن دار الغرور واناب الى دار الخلود، وارتوى من بحر الحال، وتخلص من الاغلال.

والمريد من ذبح نفسه؛ بسيف المجاهدة وتحميلها ما يشق عليها مما هو مطلوب بمنعها عن المألوفات. والمجاهدة على قسمين: مجاهدة العوام وهي تكثير الأعمال. ومجاهدة الخواص؛ وهي تصفية الاحوال فإن مقاسات الجوع والسهر سهل يسير بالنسبة الى تبديل الاخلاق المذمومة بالمحمودة. والمجاهدة في اللّه من اعظم اسباب الوصول اليه. قال تعالى (**والذين جاهدوا فينا لنَهدينّهم سُبُلنا**). وقال ﷺ: "**أُلمجاهد من جاهَدَ نفسه في اللّه**". قال الشيخ أبو علي الدقاق: مَن زيَّنَ ظاهره بالمجاهدة زيَّنَ اللّه تعالى في باطنه بانوار المشاهدة. وقد تقدم الكلام على المجاهدة في اول الرسالة.

وترك الاكوان؛ اشتغالاً بالمكوَّن فلم يحتجب بها عن مكونها ولم يلتفت اليها في سيره، بل كلما لاح له بارق أو ذرَّ لديه شارق نادته الهواتف المطلوب امامك فجد في السير ولم يلتفت الى الغير.

وخالفَ هواه؛ اي ما تميل اليه النفس وتشتهيه قال اللّه تعالى (**وامّا مَن خاف مقام ربِّه ونهى النفسَ عن الهوى فإن الجنة هي المأوى**). قال أبو بكر الورّاق: إن اللّه تعالى لم يجعل في الدنيا والآخرة اخبث من الهوى المخالف للحق. قال الفضيل: أفضل الأعمال خلاف الهوى. ورأى بعضهم ولياً من اولياء اللّه تعالى يمشي في الهواء، فقال له: بمَ وصلت الى هذه الرتبة العلية؟ فقال: خالفت الهوى فسخر لى الهواء. قال العارف باللّه سيدي الشيخ عمر بن الفارض رضي اللّه عنه:

ونفسي كانت قبلُ لوّامة متى | اطعها عصت أو تعصَ كانت مطيعتي
فأوردتها ما الموت ايسر بعضه | وأتعبتها كيما تكون مُريحتي
فعادت ومهما حملته تحمّلته | مني وان خففت عنها تأذت

وزهد في دنياه؛ عطف سبب على مسبب اذ لايتأتى له شيء من مخالفة الهوى والمجاهدة وترك شيء من الاكوان مع الرغبة فيها والانهماك في تعاطيها، اذ هي عدوة لله ولاوليائه. اما عداوتها لله فلأنها تقطع الطريق عنه ولذلك لم ينظر اليها منذ خلقها. واما عداوتها لاوليائه فلأنها تزينت لهم بزينتها وعمتهم بزهرتها ونضارتها حتى تجرعوا مرارة الصبر في مقاطعتها. واما عداوتها لاعدائه فلإستدراجها لهم بمكرها ومكيدتها واقتناصها لهم بِشباكِها حتى وقعوا فيها وعوّلوا عليها فخذلتهم. وقد ورد في ذمِّها آيات واخبار كثيرة وقد ذكرنا شيئاً من ذلك في اول الرسالة فلا نعيد بما يدعو الى الاطالة.

قال أبو زكريا يحيى بن معاذ الرازي: لو أن رجلاً في علم ابن عباس وهو راغب في الدنيا لنهيتُ الناس عن مجالسته فإنه لاينصحك مَن خاف نفسه. وقوله:

ونجا من الشيطان؛ عطف مسبب على سبب لأن مَن زهد في الدنيا نجّاه اللّه من الشيطان، لأن الدنيا حبالته التي يصطاد بها الناس. وقد جاء رجل الى شيخه يشكو له الشيطان وما يلقاه من وسوسته فقال له الشيخ: الآن جاء الشيطان يشكو منك يقول انك تعرضت لإبنته التي هي الدنيا فإنها بنت الشيطان فإذا أردت ان لايتعرض لك فلا تتعرض لإبنته. وختم الشيخ رضي اللّه عنه حكمه بالنجاة من الشيطان تلويحاً بأن مَن اتصف بما فيها وتخلّق باخلاقها وعمل بمقتضاها جدير بأن يحفظه اللّه من الشيطان وجنوده، وانما اقتصر المصنّف رضي اللّه عنه على هذه الصفات في حق المريد لأن الذي يمنعه من الوصول الى مأموله هذه الامور الاربعة: النفس والشيطان والدنيا والهوى. فإذا نجا منها فقد فاز بالمطلوب وحصل على المرغوب كما قال الشاعر:

اني بُليت بأربع ما سلطوا | الاّ لفرط شقاوتي وعنائي
ابليس والدنيا ونفسي والهوى | كيف الخلاص وكلهم اعدائي

قال سيدي محمد البكري الشهير بالقطب ابن سيدي أبو الحسن البكري تاج العارفين في رسالة له: واعلم ان الشيطان إذا احس باقبالك على اللّه تعالى بذل جهده ليصرفك

عما يوجب ايصال نفعه اليك حسداً منه وأنفة من ان يصل احد الى الحق أو يؤخذ عنه. فكُنْ على بصيرة في نفسك واحسن الظن بربِّك وأوليائه والعقيدة في احبابه واصفيائه، فإذا تعلقت لديك الاحوال واختلفت عندك الاقوال والافعال فاثبت ثباتاً لايزال أو تزول الجبال، فما هي الاّ أويقات ثم يبتلج نور المواصلة ويتأهَّل العبد للجبر والمقابلة والقول الجامع في سلوكك دوام المراقبة وعدم الازدراء بالحق والمواظبة على تأدية وظائف الحق وترحيل نفسك من مواطن شهوتها خصوصاً من حيث رياستها وشهرتها وذلك الترحيل بمخالفة محبوبها ومباينة مرغوبها.

وعلامة المحب ان يؤثر حبيبه على كل شيء لو كان له شيء، فكيف وليس له شيء فلم يبق الاّ ما اضيف اليه اضافة مجازية، فلا اقل من ان يسمح بذلك طلباً للفوز بالاسرار الحقيقة والليل مطية يقطع عليها المراحل المتباعدة فأملاه بالذكر والفكر والمراقبة والمجاهدة. ولا اقل من ثلاثة اوقات واحد بعد العشاء، وواحد في الجوف، وواحد في السحر، مع مراعاة حق البُنية فإنها راحلتك التي انعم اللّه بها عليك وصورتك التي تتوجه بها العناية اليك. واحتفظ من اللقم التي تدخلها جوفك واحرص كل الحرص على الاقرب للحلِّ فالاقرب. وإيّاك والامتلاء من الطعام فإنه مجلبة للآثام وسبب التكاسل عن امتثال الاوامر والقيام بالاحكام. فإذا احس القلب بحب الرب أو شعر به تنصرف عنه شهوات الطعام والشراب فلا يتناول الاّ بقلة اقامة لصورة الاسباب.

واحذر كل الحذر من مجالس غير الجنس خصوصاً مَن لم يتمذهب بمذهبك من حب استاذك بل اَركَسَ في الرجس، فإن مجالسة هؤلاء من غير ضرورة سم قاتل ومانع من الهدى وحائل. واحسن مجالسة من كان معك على نفسه، فإن لم تجد فمن لم يطلب منك ان تكون لنفسه، فإن لم تجد فمَن يشغلك عن صلاح نفسك. واجل المجالس مَن تهديك كلماته وترشدك اشاراته وذلك استاذك واخوك في طريق استاذك وصنوك اللائذ بملاذك. وإيّاك واستبطاء الوصول فذاك ولو بعد الملازمة للسلوك سبب لعدم بلوغ المأمول، فإنك لو عشت سالكاً عمر الدنيا الف مرة وظفرت بعد ذلك من اللّه قدر ذرة كان ما وصلت اليه اعظم من كل شيء سلكت عليه، بل لو لم تصل الاّ للتوفيق بدوام الخدمة لكان ذلك أوفى وافر نعمة. واللّه اسأل ان يلقي اليك مقاليد الحكمة وان يعاملك

بمحض الرحمة آه.

« وهذا القدر يكفي الصادقين » فإنه جامع لعلم السلوك وتصفية الاخلاق وغالب مهمات مسائل التصوف مع صغر حجمه وحسن ترتيبه ونظمه. فجزى اللّه تعالى مؤلفه خير الجزاء فإنه بلغ من النصيحة اعلاها واجلاها، فما غادر (صغيرة ولا كبيرة الاّ احصاها)

وغيرهم - اي غير الصادقين - ممن لاتؤثر فيه النصائح والمواعظ ممن لم يكن له في نفسه رادع عن غيه وواعظ

« لايكفيهم اساطير الاولين والآخرين » لوجود الران على القلوب والوقر في الآذان (اولئك كالأنعام بل هم اضلُّ سبيلاً) بخلاف الصادق ذي البصيرة النيرة يتأثر بكلام أهل اللّه، وان قال:

« وما توفيقي الاّ باللّه » فالتوفيق خلق قدرة الطاعة في العبد وتسهيل سبيل الخير اليه. وهذا ليس الاّ من اللّه وحده ليس للعبد منه شيء، واللّه لولا اللّه ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلّينا

« ما شاء اللّه كان » فلايقع شيء في الوجود على خلاف مراد اللّه ومشيئته

« وما لم يشأ لم يكن » بحال من الاحوال، خلافاً لأهل الزيغ والضلال

« وصلى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله » كل مَن آل اليه بالعمل الصالح

« وصحبه وسلم والحمد لله ختام ثم الصلاة على النبي بعد والسلام » والكلام على ذلك شهير وختم الأعمال الصالحة بمثل ذلك فيه خير كثير.

وهذا آخر ما نسير جمعه على هذا المتن المنير من اقوال السلف الصالح واحاديث البشير النذير. وقد سبق مني في خطبة هذا الكتاب اني لم يبعثني عليه باعث واللّه مطلع على سريرتي ان يقال أو يكون لي اسم مع اولئك الرجال، وانما عملته تذكرة لنفسي الامّارة ولمن شاء اللّه ان ينتفع به من الاخوان لقوله تعالى (وتعاونوا على البرِّ والتقوى ولاتعاونوا عن الإثم والعدوان). وارجو ممن يطلع عليه إذا ظهر له خطأ او تحريف ان يصلحه بيديه وان يلتمس لي من المعاذير ما يسبل ثوب الاغضاء عليه. واستغفر اللّه العظيم من الجراءة والتعدي فيما تعرضت له من بيان كلام العارفين

والاوليـاء الـراسـخين مع مـا تلطختُ به مـن الآثام وقـام بي من قـلة الأدب والاحـتـرام. واستغفر اللّه العظيم من قول بلا عمل وحكايـة احوالهم ونقل مقاماتهم والتحريض على سلوك طريـقـهم المسـتـقـيم مـع افـلاس من جـمـيع ذلك وعـدم اتصـافي بشيء مما هنالك. ونسأله سبحان وتعالى ان لايؤاخذنا بما انطوت عليـه الضمائر واكنَّتهُ السرائر من القبائح والمعـائب والكبائر التي نعلمـها مـن انفسنا ولا نسـمح بنسبـتهـا لنا. ونسألـه سبحـانه ان يوفـقنا للتنقي منهـا والتنزّه عـنها. ونرغب الـيه سبـحـانه وتعالى بـحرمـة الرسـول الكريم وحبيبه العظيم ان يُمنَّ علينا بتوبة نصـوح تمحو عنا كل حوبة وتمنحنا الفـتوح، وان يشمل في ذلك كل مَن آمن معـنا على هذا الدعاء ممن سمعه ودعا لنا بمثله. ولإخواننا في اللّه ولكافة المسلمين وﷺ على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه اجمعين آمين، اللّهم آمين.

وكـان الفراغ من تأليف هذا الـشرح المبـارك نهار الثـلاث الموافق ثالث رجب الفـرد سنة الف ومـائتين وسبـعة من الهـجرة النبـويه على صـاحبـها ألف صـلاة وألف تحيـة على يد مولفـه الضعـيف الفاني عـبدالقـادر الرافعي بن عـبد اللطـيف البيـساري خادم مـؤلف هذه الحكم عليه الرحمة والرضوان جمعنا اللّه تعالى به مستقر الرضا بمنه وكرمه آمين.

ترجمة المؤلف
رضي اللّه عنه

هو الامام القطب العارف باللّه تعالى الشيخ عبدالقادر الرافعي وهو اول مَن تلقب بهذا اللقب واشتهر به واليه تُنسب السادة الرافعية في مصر والشام ابن العارف باللّه تعالى الشيخ عبداللطيف البيساري العمري بن العارف باللّه تعالى الشيخ عمر البيساري صاحب الزاوية المشهورة في العوينات بطرابلس الشام، وبها نزل عنده الشيخ مصطفى البكري الصديقي مجدد الطريقة الخلوتية قدس سره وله معه مراسلات ومنها قصيدة مطلعها:

سر سر السر للسرّ ظهر   أين من يفهم هذا ياعمر

ابن الشيخ أبو بكر الحموي الولي الشهير المدفون بزوايته بحماه ابن الحاج لطفي بن الشيخ علي البخشي الحموي العقيلي، من ذرية الشيخ عقيل المنجي القطب المشهور ابن الشيخ شهاب الدين احمد البطائحي الهكاري بن زين الدين عمر بن عبداللّه البطائحي، بن زين الدين عمر بن الشيخ المعمر الكبير السن الجليل القدر زين الدين عمر المكي بن احد العبادلة عبداللّه الصحابي الجليل ابن امير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب رضي اللّه تعالى عنه ونفعنا به.

كان المترجم رضي اللّه تعالى عنه من اعيان العلماء وسادات العارفين وكُمَّل المرشدين رحل في عنفوان شبابه الى الجامع الازهر لتحصيل العلوم فتلقى عن اساتذة العصر واعلام الدهر وجَدَّ واجتهد وبرع في العلوم والفنون واجازه مشايخه الكرام وتصدر للتدريس بالجامع الازهر، فربى من الطلبة كثيرين ومنهم مَن برع وفاقَ أهل عصره. وكان مع ذلك ملازماً لقطب الديار المصرية في عصره بلا نزاع العارف باللّه تعالى الشيخ محمود الكُردي خليفة الامام العارف باللّه تعالى الشيخ الحنفي. فاخذ عليه العهد وسلك على يديه طريق السادة الخلوتية وجدَّ في المجاهدة وملازمة الذكر والاوراد مدة عشر سنوات الى ان تم فطامه وبزغ بدر كماله وحصل على ما حصلَ عليه من الفتوحات العليه والمقامات السنية، وخلفه الشيخ في طريق القوم واذن له بالارشاد

وتوالت عليه النفحات والامداد، ومع ذلك لم ينقطع عن التدريس والافاده. وتزوج ببنت الشيخ الاّ انه لم يرزق منها اولاد. وقد ذكر طرفا من مناقبة ابن عمنا العالم الفاضل الشيخ محمد كامل الرافعي في كتابه الذي الفه في ترجمة المترجم وفضلاء ذريته وسيصير طبعه ونشره ان شاء اللّه تعالى. وقد اشتهر ان الشيخ قدس سره تولى قطبانية طرابلس الشام ثلاثة عشر سنة واربعة اشهر. وكراماته كثيرة منها انه حصل هياج في طرابلس فتحزب جماعة الأشقياء وحضروا لدار الشيخ يريدون قتله فنزل من داره ومرّ بين صفوفهم ولم يروه، ولما سكنت الفتنة جاؤوا اليه معتذرين وقالوا: ياسيدي الذي قصدك هو البستوني لرجل معلوم. فقال: كلكم بستوني فارسلها مثلاً. وكان بين الوزير علي باشا الاسعد ومصطفى أغا بربر ما يكون بين المتعاصرين وكانوا يتناوبون حكومة طرابلس تارة يكون هذا حاكمها وتارة يكون ذاك، وكان مصطفى اغا بربر رجلاً جباراً سفاكاً للدماء، وكان إذا دخل عليه الشيخ رضي اللّه عنه يتضاءل بين يديه، فقيل له مرة لاينبغي منك هذا، فقال: إذا دخل عليَّ الشيخ الرافعي لا أراه الاّ اسداً. ولما توفي الشيخ الرافعي تولى مصطفى اغا بربر غسله بيده وكان غسل مائه لايقع على الارض لكثرة من يلتقطه بالقطن للتبرك به. وبوفاته رضي اللّه عنه عم الحزن والاسف جميع الديار المصرية والشامية لما يعلم الكل من فضائله وكراماته. توفي الشيخ رضي اللّه عنه سنة ثلاثين ومائتين والف هجرية في بلدته طرابلس الشام وقبره ظاهر يُزار ويُقصد لقضاء الحوائج. ورثاه مشايخ العصر من جملتهم الولي العارف الشهير صاحب الكرامات الخارقة الشيخ عبداللّه الحلبي المشهور بدبها بمرثية مطلعها:

شموس الهدى بعدك آفلات   دروس العلم بعدك دارسات

ومنها:

يحق عليك تبكي الارض طراً   يحق عليك تبكي الكائنات

وكان للشيخ رضي اللّه عنه اليد الطولى في علم الأدب والنظم الرائق والنثر الفائق ومنه مقامة بديعة ارسل بها للوزير الخطير علي باشا الاسعد في صفة السفينة وقد عظم عليها موج البحر والريح القاصف وهي طويلة. وله مقامة في الماخرة بين حمص وحماه اتى فيها بالنكات البديعه والاساليب العجيبة. وله قصائد طنانة وتخميس بليغ لابيات عفيف الدين في الحقيقة التي اولها:

نظرت اليها والمليح يظنني نظرت اليه لا ومبسمها الا لمي

حتى انه كان مكتوب بماء الذهب في بعض قصور الاسكندرية. واتفق انه كان اميرها اذ ذاك في القصر المذكور ومعه الشيخ محمد المسيري العالم الشهير فلما قرأ الامير التخميس المذكور تعجب من بلاغته وقال لحضرة الشيخ: هل يوجد في هذا الزمن مَن يقول مثل هذ؟ا فقال له: ان قائله حي من اخواننا وهو الشيخ عبدالقادر الرافعي. ثم بعد مدة اخبر الامير ان الشيخ عبدالقادر سيقوم من طرابلس للاسكندرية، فامر الامير مأمور السفن ان يخبره حين قدومه فلما قدمت السفينة التي فيها الشيخ لثغر الاسكندرية ارسل خبر الامير فأمر بالتأهل والاستعداد لمقابلة الشيخ الثغر، واستقبلوا الشيخ في السفينة واجرى في حقه كامل الاحتفالات والتعظيم وكان يوماً مشهوداً أو بالجملة. فترجمة الشيخ طويلة كإتفينا منها بهذا القدر ومَن اراد استيفائها فعليه بكتاب ابن عمنا العلامة الشيخ محمد كامل دام محفوظاً وبعين الرعاية من اللّه ملحوظاً آمين.

مطبوعات دار آراس الصادرة باللغة العربية

(١) الحرب الكردية وإنشقاق ١٩٦٤.تأليف: ديڤيد ادامسن وجرجيس فتح الله.
(٢) رحلة الى رجال شجعان في كردستان. تأليف: دانا ادامز شمدت. ترجمة وتعليق: جرجيس فتح الله.
(٣) جمهورية مهاباد ـ جمهورية ١٩٤٦ الكردية. تأليف: وليم ايغلتن الابن. ترجمة وتعليق: جرجيس فتح الله.
(٤) كردستان أو الموت. تأليف: رينيه موريبس. ترجمة وتعليق: جرجيس فتح الله.
(٥) كرد وترك وعرب. تأليف: سي.جي. ادموندز. ترجمة وتعليق: جرجيس فتح الله.
(٦) طريق في كردستان. تأليف: أي.ام. هاملتن. ترجمة وتعليق: جرجيس فتح الله.
(٧) مساهمة علماء كردستان في الثقافة الاسلامية. تأليف: محمد زكي حسين.
(٨) امارة بهدينان الكردية. تأليف: صديق الدملوجي. تقديم: د. عبدالفتاح علي بوتاني.
(٩) المجتمع البشري لماذا يشبه مستشفى المجانين...؟. تأليف: مسعود محمد.
(١٠) القومية الكردية ود. عبدالله جودت في مطلع القرن العشرين. تأليف: ماليسانژ. ترجمة: شكور مصطفى.
(١١) تنوع الكرد في العراق ـ مدخل الي السياسة. تاليف: سامي شورش.
(١٢) نظام الأناضول الشرقية. تاليف: اسماعيل بيشكچي. ترجمة: شكور مصطفى.
(١٣) الصراعات الدولية. تأليف: محمد احسان رمضان.
(١٤) مقالات حول القضية الكردية. تأليف: فوزي الأتروشي.
(١٥) حياتي الكردية أو صرخة الشعب الكردي. مذكرات: نورالدين زازا.
(١٦) جنوب كردستان في الدراسات الانثروپولوجية. ترجمة: جرجس فتح الله.
(١٧) مهد البشرية او الحياة في شرق كردستان. تأليف: دبليو. أي . ويگرام وادگار. تي. أي. ويگرام. ترجمة: جرجيس فتح الله.
(١٨) مبحثان على هامش ثورة الشيخ عبيدالله النهري. تأليف: جرجس فتح الله.
(١٩) أيامي في ثورة كردستان. مذكرات: يونان هرمز.
(٢٠) لقاء الكرد واللان في بلاد الباب وشروان. تأليف: جمال رشيد.
(٢١) نظام الأناضول الشرقية.الجزء الثاني. تاليف: اسماعيل بيشيكچي. ترجمة: شكور مصطفى.
(٢٢) احداث عاصرتها. ذكريات محسن دزه يي.
(٢٣) رجال و وقائع. جرجيس فتح الله.
(٢٤) الابستاه - كتاب ڤنديداد الزرادشتية. نقله من الفرنسية:الدكتور دواد الچلبي. تقديم جرجيس فتح الله.
(٢٥) رحلة الى كردستان في بلاد مابين النهرين. ترجمة: د. يوسف حبي.
(٢٦) الدولة الدوستكية في كردستان الوسطى. ج٢ . عبدالرقيب يوسف.
(٢٧) مأساة بارزان المظلومة. بقلم: معروف چياووك. تقديم: سامي شورش.
(٢٨) كردستان والكورد. الحركة القومية والزعامة السياسية. إدريس بارزاني... نموذجاً. سامي شورش.

(٢٩) الكاتب الكردي قدري جان (١٩١١-١٩٧٢) قصص ومقالات، شعر وترجمة. جمع واعداد: دلاور زنگي. ترجمة: هورامي يزدي، دلاور زنگي.

(٣٠) كرونولوجية اربيل. مشيحا زخا. ترجمة وتعليق: عزيز عبدالأحد نباتي.

(٣١) المسألة الكوردية في العلاقات التركية الإيرانية. تأليف: روبرت أولسن. ترجمة وتعليق: محمد إحسان رمضان.

(٣٢) الرواية الكردية. تأليف: عبدالرحمان پاشا.

(٣٣) كوردستان العراق-آراء ومواجهات إعلامية بقلم: فوزي الأتروشي.

(٣٤) وفادة الى المنطقة المحررة. يونان هرمز.

(٣٥) نناشد صلاح الدين... أم نحاسب أنفسنا؟ إستجواب قائد بعد ثمانمائة سنة. حوار مع الأستاذ الدكتور مُحسِن محَّمد حُسَيْن. أجراه: بدران أحمد حبيب

(٣٦) يقظة الكرد. جرجيس فتح الله.

(٣٧) حمله الأنفال فى كردستان العراق. تدمير قريه كوريمى. ترجمه د. رزگار

(٣٨) احداث عاصرتها. الجزء الثاني. ذكريات السيد محسن دزەيى.

(٣٩) الفيدرالية والديمقراطية للعراق: الدكتور: محمد هماوەندي.

(٤٠) الحملة على بادينان وأوضاع اللاجئين. رؤوف كامل عقراوي (أ. كاوه). تقديم: فلك الدين كاكەيي.

(٤١) كركوك - بحوث الندوة العلمية حول كركوك. ٣-٥ نيسان ٢٠٠١. أربيل.

(٤٢) كركوك بحوث المؤتمر العلمي حول كركوك - الطبعة الثانية

(٤٣) الحدائق الوردية في حقائق أجلاء النقشبندية. تأليف: عبدالمجيد بن محمد الخاني.

(٤٤) يهود كردستان. إريك براور. أكمله وأصدره رافائيل پاتاي. نقله الى العربية: شاخوان كركوكي وعبدالرزاق بوتاني.

(٤٥) ورود الكرد في حدائق الورود. محمد علي القرداغي.

(٤٦) قيام وسقوط الرايخ الثالث «نهاية دكتاتور»، وليم شايرر، ترجمة: جرجيس فتح الله، الجزء الأول.

(٤٧) قيام وسقوط الرايخ الثالث «نهاية دكتاتور»، وليم شايرر، ترجمة: جرجيس فتح الله، الجزء الثاني.

(٤٨) من مهاباد الى اراس. ترجمه من الفارسية الى الكردية: شوكت شيخ يزدين. نقله الى العربية: شاخوان كركوكي.

(٤٩) الجَيْش الأيوبي في عَهْد صَلاح الدّين (تركيبه. تنظيمه. أسلحَته. بحريَّته. وَ أبَرز المعارك التي خَاضهَا). تأليف: الأستاذ الدكتور مُحسِن محَّمد حُسَيْن.

(٥٠) الإنتفاضات البارزانية. تأليف: كاوس قفطان.

(٥١) ظهور الكورد في التأريخ. ج ١ . د. جمال رشيد أحمد.

(٥٢) ظهور الكورد في التأريخ. ج ٢ . د. جمال رشيد أحمد.

(٥٣) الأيزيدية ديانة قديمة تقاوم نوائب الزمن!. تأليف: د. كاظم حبيب.

(٥٤) سياسة التعريب في إقليم كُردستان العراق - دراسة وثائقية- إعداد: مجموعة من المؤلفين.

(٥٥) الأمير الكُردي - مير محمد الرواندزي. تأليف: جمال نَبَز. ترجمة: فخري شمس الدين سيلاحشوّر

(٥٦) الكُرد، دراسة سوسيولوجية وتأريخية، ألفه: باسيلي نيكيتين، نقله من الفرنسية وعلق عليه: الدكتور نوري طالباني.

(٥٧) منطقة كركوك ومحاولات تغيير واقعها القومي، تأليف: د. نوري طالباني.

(٥٨) هوية كركوك الثقافية والإدارية. تأليف: محمد علي قرداغي.

(٥٩) إحياء القلوب - شرح مولانا الشيخ عبدالقادر الرافعي الفاروقي الطرابلسي على حكم شيخه محمود الكردي الخلوتي قدس الله روحهما ونور ضريحهما.